الفائدة الأولى: وجود الصانع الباري تعالى

أعلم أن الفلاسفة ثلاثة أصناف، صنف متبعون للإسلام، وصنف متبعون لدين و مذهب سوى الإسلام، لكن يسلمون وجود الصانع للعالم، وصنف ثالث دهريون، ينكرون وجود الصانع للعالم، وهم قسمان، قسم يقولون أن العالم قديم لا فناء له، وهو موجود من أزل، كما هو رأى قدماء الفلاسفة، وكارسطو وغيره، وقسم يسلمون حدوث العالم، ولكن يقولون أن العالم حدث دفعة، وهم متأخرون من الفلاسفة، وكل منهما يقولون : أن العالم ليس له صانع مختار، بل موجود بنفسه، وكذلك يقولون والوحى والإلهام ليس بشيء، إذ لا علم سوى إدراكات الحواس والعقل، وما هو غير مدرك بالحواس والعقل تنكر وجوده، وكذلك يزعمون : أن الحشر والبعث غير ممكن، ولا عالم سوى هذا العالم، وكل هؤلاء الفلاسفة الدهريون ينكرون وجود الصانع.

وههنا أذكر نبذة من الكلام على إثبات وجود الصانع، فأقول : ان الله تعالى ذكر في القرآن ست مائة وخمسين أية لمعرفة ذاته تعالى، وأمر الناس بالنظر و التفكر في الآئة ونعمائه، وأثار قدرته ولمعاتحكمته

، وفي ذلك عبرة وآية لا ولي ألباب، ومن لم يعرف ذاته وقدرته وصفاته، فهو ليس من العقلاء و إنما هو من الجهلاء والحمقاء .

فيقال بأنه يستدل على وجود الصانع بوجوه ، الأول : دليل الصنعة : إن العقلاء كافة متفقون، بأن المصنوع يدل على صانعه ، لو رأى أحد عمارة أو ساعة أو أريكة، يقول من غير فكر وتدبر: بأن له صانعاً صنعه ، لا يتصور بأنه تكون من غير فاعل مختار ، بل يعد هذا محالاً، وكذلك كمال المصنوع وحسنه يدل على كمال صانعه وقدرته، وهذا أمر مشاهد يتفق عليه العاقل والجاهل ، فحينئذ يقال بأن هذا العالم من سمائه وأرضه ، وأشجاره وأوراقه، وحيواناته ونباتاته، وجماداته وزراعاته ، وغير ذلك كل هذه يدل على صانعه وموجده، وكذا يدل على كمال قدرته وعلمه ، وجود العالم بدون الصانع محال لا محالة .

الثاني دليل الوجود بعد العدم : إن العقلاء يعلمون بأن الذي وجد بعد زمان عدمه ، والعدم سابق عليه والوجود بعده ، فلوجوده لا بد من موجد أوجده، وأظهره من كتمان عدمه . فأنت مثلاً : وجدت في زمان ، وكنت قبل ذلك معدوما فمن هو الذي أوجدك، لا تكون أنت أوجدت نفسك، هذا هو محال عند العقلاء سائرهم،

لأن الشيء لايكون موجودا لنفسه، وكذا لا يكون أبواك وموجدين ، لأن الموجد يكون له أختيار في إيجاده، ولا اختيار للأبوين في إيجاد الأبن، وإلا لما يتولد الولد على خلاف ما يرغبان ويشتهيان .

وفي الحقيقة لا قدرة لهما في حيواته ولا في موته، ولا في صحته ولا في مرضه، ولا في أعضائه ولا في اعضابه ولا في اشعاره ولا في اظفاره، ولما لم يكن للأبوين قدرة على شيء من الولد، فكيف يكون الأبوان موجدين له مع أنهما بأنفسهما أيضاً محتاجان في وجودهما إلى الغير، وكذلك لا يمكن شيء آخر غيرهما الذي ليس له وجود بنفسه موجدا لذلك الولد، بل هو أيضاً في وجوده محتاج إلى غيره فحينئذ يحتاج أن يقال بأن الموجد هذا الذي له وجوده بذاته وبنفسه، غير محتاج في وجوده إلى غيره، وقادر مطلق على ذلك، وهو الصانع البارى تعالى .

الثالث : دليل تغيرات العالم : إنك إذا نظرت إلى موجودات العالم من صغيرها إلى كبيرها، من مفرداتها إلى مركباتها، كل منها في تغير وتبدل، في كون وفساد، في حياة وموت، كل حين وآن له انقلاب عظيم، وهذه التغيرات تنادي بصوت أعلى، بأن لها مغيرا قادرا مطلقاً، تقع هذه التغيرات بقدرته، وهو الصانع الباري تعالى،

والمنكرون يقولون: بأن هذه التغيرات والتبدلات وقعت بالقوانين الطبعية ، ونحن نقول : بأن القوانين الطبعية في الحقيقة هي ألات وقوانين من الصانع الموجد، وتجري هذه الفطرة تحت إرادة قدرته ، ولا توجد الأشياء بالآلات فقط من غير موجد وصانع، فالصانع للالته تعالى والقانون الطبعى هو الصانع الباري تعالى.

الرابع : دليل إمكان الأشياء : إنك ترى الأشياء كلها من العالم ممكنا وجوده وعدمه سواء، ليس وجوده ضرورياً ولا عدمه ضرورياً ، فالشيء الذي في ذاته ممكن، وجوده وعدمه سواء فلترجيح جانب وجوده على عدمه، لا بد له من مرجح والا يلزم الترجيح بلا مرجح ، وهو باطل اتفاقاً ، فالمرجح لا يكون نفس ذلك الشيء، هذا محال ، ولا يكون غيره من الممكنات، ولأن ذلك أيضاً محتاج في وجوده إلى غيره فيتسلسل أو يدور ، وكلاهما باطل ، فيقال بأن مرجحه هو الموجد الذي وجوده بذاته ، لا يحتاج في وجوده إلى غيره، وهذا هو الصانع الباري تعالى .

الخامس : دليل الفناء والزوال : بأن كل شيء من العالم إذا رأيته ، رأيته يفني ويزول أنا فأنا، حتى يمحو من صفحة الوجود، وهذا يصوت بصوت رفيع بأن وجوده مستعار وحاصل من غيره ، إذ لو

كان وجوده بنفسه فلا يفني حيناً ، مثلاً ضوء الشمس تقع على الأرض ، يجيئ ويذهب، والأرض تكون مستنيرة، وهذا يدل على أن ضوء الأرض ليس بذاتها بل مستعار من المشمس كذلك يقال بأن وجود أشياء العالم ليس لها وجود بذاتها وبنفسها، بل من غيرها الذي وجوده بنفسه وبذاته، ولا يكون مستعارا من غيره، وهو الصانع الباري تعالى .

السادس : دليل اختلاف الصفات والكيفيات : بأن موجودات العالم من أرضه إلى سمائه، كلها سواء في الجسمية، وهي تشترك في جميعها على السواء، والاختلاف إنما هو بحسب الصفات والمقدار، والصورة والتأثير، والألوان وغير ذلك فلو تنظر إلى الحقائق والماهيات ترى ما يجوز لأحدها يجوز لغيرها، فما كان في علو يجوز أن يكون في سفل، وما كان في سفل يجوز أن يكون في علو ، كل شيء في العالم يصلح للأضداد ، هكذا، فيقال من هو الذي قدر الأشياء بمقاديرها وصورها وأشكالها وكذلك الصفات التي خصها بها من خصها لها ولم يختص بغيرها في الحقيقة أن لهذه التخصصات قادر مطلق موثر مدبر، الذي يفعل كيف أراد ويرجح لكل شيء ما ناسبه، وهو الصانع الباري تعالى .

السابع : دليل الحركة : قال العلامة أحمد بن مسكويه في الفوز الأصغر: بأن كل شيء من العالم لا يخلو عن حركة، و الحركة ستة أقسام الأول حركة كون ، إذا تحرك من عدمه إلى وجوده، والثاني حركة فساد إذا تنزل إلى فساد، والثالث حركة نمو إذا ينمو ويزداد، والرابع حركة ذبول إذا تنزل إلى ضعف وقلة ، والخامس حركة أستحالة إذا تحرك من حالة إلى حالة وتبدلت ، والسادس حركة نقل إذا أنتقل من مكان إلى مكان، والعقلاء متفقون: بأن حركة المتحرك لا تكون بنفسه ، بل لا بد له من محرك ، الذي يقدر على هذه التحولات والتحركات. فجميع الحركات يتحرك تحت قدرة المحرك، وهو الصانع الباري تعالى .

والثامن دليل حسن الوضع و الترتيب : قال الإما م الرازي: إن السماوات والأرض والنباتات والجمادات والحيوانات و غير ذلك، كلها وضعت بأحسن ترتيب و أجود نظام، إذا أمعنت الجبال وتفكرت تظهر لك الحكمة والمصالح، كما يقول الفلاسفة في شرح الكواكب، و ترتيب الجبال والبحار في الأرض كلما يزداد فكراً يزداد حكمة ومصلحة ولو قيل إن هذه التكيفات والترتيبات تحت نظام قانون الطبيعة، أو وجدت دفعة بالبحث والإتفاق، كل هذه مردودة

ببداهة العقل ، بل تجد كل ذلك تحت قدره كاملة ووضعت بعلم محيط، وهى قدرة الصانع الباري تعالى .

والتاسع دليل الذلة والعجز: بأن كل ذي عقل وبصيرة يعلم بداهة، إذا وقع الإنسان في البلايا والمصائب، وانقطعت الأسباب الظاهرة والوسائل ، يلتجئي قلبه إلي ذي قدرة وغلبة، ويعلم أن له ناصرا غوثا حافظا دافعا للبليات، وهو الصانع الباري تعالى .

العاشر . دليل الانقياد والتخضع : بأن كل شيء في العالم تلوح عليه أثار الذل والعجز، يخضع وينقاد إلى قدرة باهرة، بحيث لا يعصي ما أمر به، ولا يخالف في حركته وفعله، مثلاً إن الشمس والقمر والكواكب، لهن طلوع وغروب، و نور وظلمة، بدر ومحاق ، خسوف وكسوف، وكذلك الهواء ينتشر شمالاً و جنوباً، شرقا و غرباً، وكذلك الأرض خضعت للناس، يحرث فيها ويمشي، يحفر فيها ويبنى عليها، و يتغوط ويبول عليها، كل أشياء العالم مصروف في عمله وفعله، كأنه مقهور تحت قدرة القدير المتعالى، وكذلك الحيوانات والنباتات، يذبح ويقطع، يحرث ويحرق، وكذلك الإنسان اجوح الموجودات، فإنه يجوع ويعطش، ويبول ويتغوط، ويمرض ويصح، يأكل و يشرب، ينكح ويتولد، وغير ذلك، لكل هذه يحتاج

إلى الغير، ويعلم من حاله إنه لا يستطيع أن يخالف حقيقته وماهيته وصفاته، فيقال بأن موجودات العالم، تحت قدرة قاهرة، وحكمة باهرة كل شيء مقهور ومجبور، بيد الصانع المختار، كيف اراد يفعل، وما شاء أراد ليس عليه قدرة، وهو على شيء قدير وهو الصانع الباري تعالى وتقدس .

والحادي عشر دليل تسليم الدعوى حسب اراء أكثر العقلاء وجمهورها : بأنك ترى من قديم الزمان إلى متأخره ، الذين يسلمون وجود الصانع ويعتقدونه، أكثر من الذين ينكرونه، والعقلاء أيضاً كثيرون كذلك، والشرذمة القليلة بل بالنسبة إلى هؤلاء وهم كالعدم، ينكرون وجود الصانع، والأدلة غير صحيحة أو ضعيفة جداً، فلا يقال بأن عقول العقلاء جميعاً أو أكثر هم فاسد أو مريض أو لم يفهموا حقيقة الشيء، والشرذمة القليلة فهموا ووصلوا إلى ذروة التحقيق، والحال أن هذا من ناحية الفكريات، فجمهور العقلاء ذهبوا وتيقنوا بوجود الصانع، بدلائل قوية ظاهرة، فلا وجه لأنكارها، فعلى هذا الأصل يعني تسليم الدعوي حسب أراء الجمهور، يثيقن بوجود الباري تعالى .

الثاني عشر دليل بداهة العقل : من حيث أن العقل إذا خلى ونفسه، يعترف بوجود الصانع، ولذا ترى الصبيان والمرضى أيضاً يعترفون هذا، ما لم يعرض له آفة في أم الدماغ أو لم يصب في عقله، وسائر الناس في العالم يقرون ذلك، من غير دليل وبرهان، لأن البديهي لاتقام عليه الحجة، ولا يحتاج إليه النظر والفكر المنطقي، ولذا من ينكر وجوده يحتاج إلى الاستدلال على دعواه الباطل، والحال أنه نفي وأنكار، و الأصل أن الدليل والبرهان يقام على إثبات شيء، لا على العدم والنفي، والمنكرون يظطرون على خلاف أصولهم، إلى إقامة الحجة وفي الحقيقة هذه حجة تامة على وجود الصانع إذا لو لم يثبت لما ينفي وينكر مع ذلك الدليل على بداهة وجوده ظاهر حتى إذا طولب من المنكرين الدلائل استحمقوا، و كلما أصروا على ذلك نكبوا على وجوههم، إذا لا مخالفة للبداهة .

الثالث عشر دليل الحزم والتيقظ : بأن العقل إذا ظهر له خلاف في شيء فحينئذ ينظر في عواقبه، إذا يفهم أنه لا يضر في عاقبته يقبله، وإلا يفر ولا يقبل، ولا تشتهي النفس، ولا يقتضي العقل أن يقع في بلاء وعناء فيما بعد، بل يطلب ما هو أنفع وأفيد، أقل أن يكون غير مضر، فعلى هذا يقال، لا يعترف المنكرون وجود الصانع الباري

تعالى، والمعترفون يقولون أن للعالم صانعاً موجداً قادراً، ويعتقده سميعاً بصيراً حياً أزلياً أبدياً، وكذلك يعتقد الحشر والبعث والجنة والنار وغير ذلك.

فنقول: أن المنكرين والمعترفين كلهم يموتون، لا أنكار عليه فلو صدق ما قال المعترفون فكيف يكون حال المنكرين، المعترفون يكونون في سلامة ويرون ما اعتقدوا حقاً فينجون من مشكلات الآخرة، بخلاف المنكرين لا يكون لهم أمن ولا سلامة، فالحزم والتيقظ بأن يسلم وجود الصانع والآخرة كما يعتقد المسلمون فيه أمن وسلامة، وحزم واحتياط، مثلاً يقول شخص لآخر: لا تمش من هذا الطريق، فإذا فيه حيوانا موذياً، وقال الآخر لا أرى شيئاً ولا دليل عليه، فلا نسلم قوله فحينئذ ما هو الأنسب والأصلح وما هو الأنفع في العواقب فيقال سلم قول الأول وهو الحزم والاحتياط، وإلا يمكن أن تملك وتتحسر في المأل، فكذلك الأنسب والحزم أن يسلم وجود الصانع وجميع أوامره حتى ينجو في الآخرة، ويسلم عن عواقب السوء.

والرابع عشر دليل صدق الدعوى بحسن أثاره: بأن العقل يفصل بين الصادق والكاذب بصحة أثاره و فساده، فإذا ظهر من الشيء حسن الآثار والنتائج يعتقد به و يقر صداقته وفساده، وإذا

يرى قبح عواقبه وشر نتائجه، يفر منه وينكره ولا يقربه، فكذا لو يقال بأن الإنسان ليس له خالق وصانع، وكذالك العالم كله ليس له صانع، فحينئذ يظهر الفساد والفتنة، كلهم يزعم بأنه مختار ليس فوقه من يقدر عليه .فالحيواة الإنسانية تنتشر وتتشتت، ولا يكون لها نظم ونسق، فحينئذ لا يكون هناك فرق بين الإنسان والحيوان، فأين العقل وادراكه، وأين الفهم وأفادته وهذا أمر شاهد في المنكرين كذلك فلذا يقال متى لم يربط الإنسان في عقله وقلبه، بربط الإيقان بوجود الصانع القادر المختار، ومتى لم يعتقد، و لم يعترف بأن قدرته فوق قدرة الإنسان وأن بطشه شديد، فلا يمكن حسن النظام في العالم، ولا يكون الإنسان إنساناً حقيقة فحسن الأخلاق ينشأ من الباطن، والأمن والطمانينة يقوم من قانون القلب، القانون الظاهري نظام السياسية، ولكن حسن نظم العالم وأمنه لا يكون الإ بربط القلب بالإيمان والإيقان، والعقل يقتضيه ذلك. ولذا يقال إن الإنسان مجبول على الفطرة و الدين فلا يمكن له ذلك إلا إذا اعتقد بوجود الصانع .

الخامس عشر : دليل الاستدلال باقوى الأدلة وأحسنها : بأن العقل دائماً يرجح الذي له دلائل قوية أو أدلة كثيرة، وإنك إذا رأيت أو ترى دلائل المنكرين لا تتم بل لا تقوم بها حجة، فالعقل السليم لا

يعتمد عليه قطعاً، ولا يسكن الخاطر عليه، وعلى خلافه دلائل وجـود الصانع، فإنها كثيرة قوية يطمئن القلب منها، فلذا يسلم وجود الصانع الباري تعالى وتقدس، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكـره إلينا الكفر والفسوق والعصيان اللهم آمين .

الفائدة الثانية : مصادر الإسلام و وعد الله تعالى بحفظه

أعلم أن الإسلام خاتم الأديان والملل، ليس بعده دين ولا ملة، وهو جامع للملل السابقة أصولها وعقائدها، ولا اختلاف بين الأديان السماوية في أصولها، والفرق بينها في الفروع بحسب أحوال الناس والزمان، والإسلام كامل من جميع النواحي والجهات، فلا حاجة إلى دين وملة سوى الإسلام إلى يوم القيامة ، وإن هذا ناسخ لكل دين سابق . فلا يتدين بمنسوخ الأحكام والمسائل، وكل ما يحتاج إليه من الإيمانيات والعقائد، وللأعمال والفروع، يحتوي عليها الإسلام أصولا وكلياً. ولهذه النقطة الإسلام جامع كامل خاتم الأديان إلى يوم القيامة.

فهذا الإسلام يبني على أساس المصدرين بالإصالة، كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه الف ألف صلوات وتسليم. فأصل الأصول هو القرآن الكريم، والشارح المبين له شرحاً وتشريحاً حسب العلم والعمل، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ثبت منه وهو الحديث وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبالحقيقة على أساس هذين المصدرين يبني الإسلام والدين، وهو محفوظ من جميع النواحي بفضل الله تعالى، لأن الله تعالى تكفل بنفسه تفضلاً وتكرماً لحفاظ الدين والقرآن الكريم، حيث قال تعالى :

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١٥/٩ . فالمراد بالذكر هو القرآن الكريم أو الرسول صلى الله عليه وسلكم، فسبحانه وتعالى تكفل بالحفاظ، فحفاظة القرآن أن يحفظه من التحريف والتغيير والتبديل، لفظا وحرفاً وإعراباً بحسب جميع الجهات، فكل هذه محفوظة بفضل الله تعالى، وحفظ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعصمه من الناس ظاهراً ومعنوياً، كما قال الله تعالى : والله يعصمك من الناس " ٢٧/٥.

ويقول العبد الضعيف :/ إن الذكر هو القرآن الكريم وهو عبارة عن الشريعة والدين، ولما كان القرآن اسم لجميع اللفظ والمعنى ، فلا بد أن يحفظ القرآن حسب كلا الوجهين . والقرآن فيه تبيان لكل شيء، فتوضيح المشكلات ، وبيان المجملات ، وتشريح المغلقات . وتفصيل المبهمات من مشكواة النبوة كل هذه معاني القرآن الكريم فلو لم تحفظ هذه الأمور لم يحفظ القرآن لفظاً ومعناً، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً و تقريراً كله شرح القرآن، فكأن الله سبحانه وتعالى وعد حفظ القرآن والحديث جميعاً.

ولهذه النقطة أنشأ الله تعالى في هذه الأمة طبقات عديدة، من الحفاظ والقراء والمحدثين والمفسرين والفقهاء والمجتهدين وأهل السير

والمؤرخين وغيرهم، وإلى هذه أشار الإمام حسن البصري رح يقول : أما حفظه فبا بقاء شريعته إلى يوم القيامة (روح المعني) وكذلك قال الله تعالى : ورفعنا لك ذكرك ٤/٩٤ ، قال مجاهد رح معناه حيث ما ذكرت ذكرت وقيل معناه رفع الذكر هو الأذان والصلاة وغير ذلك وقيل : لما أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين وأممهم بأنهم إذا وجدوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به وينصره هذا هو رفع الذكر.

والذي يرى العبد : إن رفع الذكر هو بقاء الشريعة والدين إلى يوم القيامة ، فعلى كل قرن وزمان إذا صار الناس متبعين لدين النبي صلى الله عليه وسلم فذلك هو رفع الذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي الأصل : إبقاء أثار المرء في حياته وبعد وفاته هو رفع الذكر ففي تلك الآية أيضاً إشارة إلى حفظ القرآن والحديث، وقد تشعبت في الدين علوم كثيرة، بعضها بلا واسطة وبعضها بالواسطة، والعلماء دونوا في كل فن من كتب ورسائل، ولم يبق شيء من علوم الدين إلا وقد دونت وجمعت، سواء كان من العقائد والأعمال أو العبادات والمعاملات أو المعاشرات والمعاشيات أو السياسيات والحقائق وغيرها كل هذه لحفظ الدين، ولهذه الجهة أنشئت العلوم الدينية من التفسير

والحديث والفقه وغيرها، لحفاظ الدين فقط، وقد صدق الله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً . لله الحمد والمنة

الفائدة الثالثة : وجود الوحي والإلهام مما يقتضيه العقل

إعلم أن الفرقة الدهرية ينكرون الوحي والإلهام ، ويقولون : لا سبيل لنا إلى إدراك الأشياء إلا بالحواس الخمسة الظاهرة ، والذي لا يدرك عقولنا ، لا تعلم وجوده، وعلى هذا ينكرون النبوة والرسالة ، وقالوا : إن الرسالة والنبوة كسبية لا وهبية ، العياذ بالله، ونفصل الكلام فيه من بعد إن شاء الله، والآن نذكر سفاهتهم في انكار الوحي والالهام .

نذكر أولاً مقدمة مختصرة ثم نأتي في مرادنا ، إن الله تعالى انعم على الإنسان بنعمة الحواس المدركة، وأكمل تلك النعمة بالعقل وبه يمتاز الإنسان من غيره ، إدراك الحواس للأشياء لا يتم إلا بمعونة العقل، ثم ادراك الحواس محصور ومحدود بجوانب وشرائط فلا تدرك إحداها ما تدرك الأخرى، فمثلاً لا تدرك حاسة البصر كلاما كما لا تدرك حاسة السمع صورة، لا يدرك كل حاسة إلا ما هو مخصوص لها ، ومع ذلك ادراك الحواس محدود في المحسوسات، أما ما هو غائب عن الحواس لا يدرك بالحواس، فادراك الحواس محدود في دائرة المحسوسات

، والعقل له قوة في ادراك المعقولات ، وله مرتبة زائدة على الحواس ، فالعقل حاكم على الحواس ، والحواس للعقل طرائق وآلات كثيرا ما يقع الخطاء في الحواس، والعقل هو الذي يقوم بالتصحيح

إذا علمت هذا فنقول أولا: أن الحواس الظاهرة للإنسان عموماً تكون خمساً ، ولكن قد تكون لبعضهم اربعاً، مثلاً الأصم خلقة أو الاعمي خلقة، ليس للأصم ادراك المسموعات، وكذا ليس للأعمي ادراك المبصرات، فلو يقال للأعمى : هذا أحمر ، هذا ابيض ، يقول الأعمى: ما الأحمر وما الأبيض؟ لا ادركها فلا نسلم ، فيقال في جوابه، أن فيك مرضاً خلقياً ، هو فقدان القوة الباصرة و كذا الأصم يرى الإنسان الصحيح يحرك الشفتين واللسان حين يتكلم، فيقول الأصم ماذا تفعلون ؟ تحركون الألسنة والشفاة حين تجتمعون؟ فيقال في جوابه نحن نتكلم وأنت لا تسمع ، وإن فيك مرضا، وهو فقدان حاسة السمع .

كذلك نقول : ان الإدراك بالحواس لا يرتقي فوق المشاهدات، بل هو محدود في إحاطة المشاهدات ، فالمسموعات و المبصرات المشمومات المحسوسات والمذوقات كلها من هذا العالم المشاهد، والذي وراء لا تبلغه الحواس، فلادراكه لا بد من سبيل وهو الوحي

والالهام ، والأنبياء عليهم السلام يدركون بالوحى والإلهام ما لا يدرك بعقولنا وحواسنا ، فيسمعون ما لا نسمع ، ويبصرون ما لا تبصر وهذا أمر معقول .

ثانياً : أن العلم كثيرا ما يحصل باخبار ثقة ةعدل ، كما يحصل بالحواس ، وهذا أمر متفق بين العقلاء ، وإذا سمعت قولاً من المخبر الصادق ، أنه شاهد كذا و كذا و أخبر بحاله ، فحينئذ أنت تتيقن بخبره وان لم تره وتشاهده ، فكذلك نصدق قول الأنبياء والصادقين ، بانزال الوحى عليهم ، و ان لم نره ونشاهده، وهذا أمر معقول لا ينكر .

ثالثاً : أن التصديق بتزول الوحي معقول، وما قاله بعض المنكرين : من أنهم لا يدركونه بعقولهم وبحواسهم، فإنه سفاهة وحماقة ، كثيرا ما لم يدركوا أشياء، بل لا يتصورونه زمانا طويلاً، ثم جاء بعدهم قوم أوجدوه وتصوروا ما لم يتصوروه قبل فهل يقول : علمهم غاية العلم ، وليس وراءه علم ؟ بل لا يعتمد على علوم العقلاء فقط ، كما أن القدماء من الفلاسفة ، ما تصوروا إمكان إبلاغ الصوت في وقت واحد إلى سائر العالم، أو السير في ساعات قليلة إلى كل العالم،

فلو يقال لهم هل يمكن ذلك لقالوا : كيف يمكن ؟ ما ندرك ولا نتصور فلا نعترف به .

ولما ثبت وأمكن الآن، فلو كانوا أحياء ليعترفون بطلان ما قالوا ولا يصدقون بأن علمهم ليس غاية العلم وراءهم علم أيضا، فكذا نقول: أن الانكار بترول الوحي والإلهام، بدليل عدم ادراكهم لا يصح، والذي حققوه لم يكن غاية التحقيقات، فما قالوا : إنهم لا يدركون الوحي والإلهام بعقولهم وبحواسهم فلذا ينكرون : هذه سفسطة وجهالة.

رابعاً : إن ادراكات الحيوانات ومشاعرهم مختلفة ، بأن الحيوانات سوى الإنسان لها حواس مدركة كما للإنسان ، ولكن بينها وبين الإنسان فرق بين، لأن إدراكها وشعورها ضعيف بالنسبة إلى الإنسان ، إذ الإنسان يدرك المعقولات أيضاً ولا يدركها الحيوانات، ومن ناحية أخرى إدراك الحيوانات أقوى من إدراك الإنسان ، لأن الإنسان محتاج إلى التعليم والتعلم، والحيوان ليس كذلك، بل يدركون من غير تعليم وتعلم حسب الفطرة، كما أن النمل يعرف الريحانة التي يأخذ منها عصارتها ليكون عسلاً، وكذا البقر يعرف النبات المضر له من النافع.

وكذلك النمل يتخذ كناسة بفنون الصناعات ما تعجز عنه عقول الفلاسفة، كيف هذه الإدراكات ؟ يقال كلها من الهام الله تعالى، وكذا الهد هد الذي كان لسليمان عليه السلام كالمهندس، يعلم مبلغ الماء من قعر الأرض من نقرة من غير ألة وسبب، وهذا أيضا من الهام الله تعالى ليس من ادراكات الحواس فقط فكذا نقول أن الأنبياء والرسل يدركون الأشياء من عالم الغيب من غير واسطة الحواس بنزول الوحي والهام هذا أمر ممكن ومما يقتضيه العقل، فقولهم ما لم ندركه ننكر لا يصح .

خامساً : أن ادراكات الحواس محصورة محدودة في دائرة العالم الظاهر، وكثيراً ما يثبت الغلط في درك الحواس فيسدده العقل، وهو حاكم عليها، كما أنا نشاهد الظل ساكنا بالحاسة الباصرة، والعقل يحكم بغلطه، لانا نرى ظله زاد أو انتقص، فلو كان ساكنا مستقرا فكيف يزداد أو ينقص ؟ فأصلح العقل هذا وسدده، بأن الظل غير ساكن، بل يجري بالبطوء الخفيف لا يدركه الحواس، فلما ثبت بأن ادراكات الحواس قد تكون غلطاً فالعقل يحكم عليه ويسدده، فلو كان إدراك العقل أيضا غلط كذلك ، فما الذي يغلطه أو يسدده ؟

فلا بد من ضرورة الوحي والالهام ، الذي يصدق أو يكذب ادراكات العقل، وأما التغاليط في ادراكات العقل فهذا أمر بين، كما أن الفلاسفة اختلفوا فيما بينهم كثيراً، والحق مع أحدهم والآخر على باطل، فما هو حق وصواب ؟ وما هو باطل وغلط؟ ليس السبيل إليه ، فأنزل الله تعالى الوحي والالهام، فصدق الأشياء، وكذب الأشياء ونظيره في هذا العالم الرويا في المنام، كثيراً ما يرى النائم رؤيا أنه يسير بالطيارة ويصدق عقله ويثيقن كذلك، فلما أنتبه فإذا يكذب عقله ما كان رأى في منامه .

فلما كان الادراك في حالتين مختلفا، فكيف يمكن أن نتصور بأن ما ندرك في هذا بحواسنا وعقولنا فهو حق وصواب، وما لم ندرك فهو غلط وباطل يمكن أن ترد علينا حالة أخرى نشاهد وقتئذ تغاليطنا، وهى حالة بعد الموت، ولكن الله تعالى أنزل الوحي والالهام على الأنبياء في هذا العالم بإحقاق حق وإبطال باطل، فإنهم يرون أشياء يقظة وهى غائب عن حواسنا، ويقولون بأن الحق هذا وهذا ، فكان الناس جميعا نوام والأنبياء الكرام يقظان، فالأنبياء يسددون ويصلحون ما رأوا بالوحي والالهام وهذا يقتضيه العقل .

الفائدة الرابعة : صفات النبوة وخصائصها

قال الشيخ الأكبر : لا ينبغي أن يتكلم في مقام الرسـول إلا رسول، ولا في مقام الأنبياء إلا نبي، ولا ذوق لنا في مقام الأنبياء حتى نتكلم عليه . اليواقيت : صـ٤٨ ج٢ .

اعلم أن حقيقة النبوة والرسالة، وكـذا حقيقـة الوحـي في ادراكها مشاكل، بل لا يمكن لنا أن ندركها، لأن صاحب الوحـي يعلم حقيقة الوحي، وكذا صاحب النبوة يدرك حقيقة النبوة فلـذا لا ندير الكلام على حقائقها، بل نذكر صفاتها وخصائصـها وأثارهـا، فلنذكر أو لا ما قال العقلاء في بيان حقائقها، وقد صنفت فيها كتـب ورسائل، مثلاً "شرح العقيدة الأصفهانية" والجواب الصحيـح، بـين فيهما الحافظ ابن تيمية بحثاً طويلاً، وكتاب النبوات " كتاب خـاص جيد في هذا الموضوع .

وإن أرسطو ومن اتبعوه من العقلاء المتقدمين لم يعرفوا الأنبيـاء والرسل ، فلا يذكرون النبوة و الرسالة في كتبـهم ورسـائلهم، ثم الفارابي قد كلم شيئاً فيها وذكر شيئاً قليلا ، وابن سينا شرح وفصـل كلامه ، ولكن لم يدرك حقيقتها فتخبط فيها خبط عشواء ، ابن سـينا يقول ان للنبي ثلاث خواص.

الأول أن النبي له قوة عقلية كاملة ، لا يأخذ العلم من غـــيره، بل يحصل من القوة القدسية .

والثاني : أنه يرى صورا نورانية، ويسمع أصواتاً مختلفـــة، ولا وجود له في الخارج حقيقة، ونظيره الرؤيا، كما أن الرأى يرى صـــوراً مختلفة وأصواتاً مختلفة في المنام، ولكن لا وجود لها في الخارج، كذلـك النبي يظن أنه يشاهد حساً في الخارج، و لكن ليس الأمر كذلك .

والثالث: أن للنبي قوة فطرية تصرف في المادة، وتصدر منـــــه الأفعال العجيبة والحركات الغريبة، وهو المعجزة، والفلاسفة ينكـــرون وجود الملائكة والشياطين، وفي ظنهم أن التصرفات المادية ، التي تقـــع في هذا العالم ، إنما هى بقوة النفس الإنسانية أو القوة الطبيعة أو مـــــن العقل الفعال، والهنود ينسبون كل التصرفات إلى الجنات والشياطين .

هذا ما ترى قول ابن سينا ليس عنده للنبوة والوحي والمعجـــزة حقيقة خارجية، بل تلك أمور كسبية تتحصـــل للإنســـان برياضـــة وكسب ، كالأمور الأخرى الكسبية، ولذا ترى السهر وردي المقتـــول وابن سبعين قد صرفا العمر كله بأن يحصل له مقام النبوة، العياذ بالله ، وأما الفلاسفة في زمان الإسلام يطلقـــــون اصطلاحـــات يؤولونهـــا

بتأويلات ركيكة، ويحرفونها بمعان بعيدة، كي تبقى بين القدماء وهؤلاء مناسبة .

وقال حجة الإسلام الشاه ولى الله في قرة العينين ما حاصله أن النبي تجمع صفات بطريق الاكمل التي لا بد منها للنظم والنسق في الحياة الإنسانية، من العلوم والكمالات والفكريات ، والتجريبيات والمشاهدات .

والنبي في قومه كالملك للرعايا يعجز عنده الأديب وأمير الجنود وماهر السياسية والتاجر والزراع وغير ذلك بالجملة أنه يربي الناس كلهم، في كل شعبة من الحياة الإنسانية، في النظم والنسق والتعليم والتربية .

وكذلك أنه كالحكيم الذي يكون حاذقاً في علم الأخلاق وتدبير المترل والسياسة المدنية، ولا يكون فيه ألفاظ تلك الأشياء، بل تكون تلك الأمور كالطبيعة الثانية، بحيث تظهر تلك في حركاته وسكناته دائماً متر شحا، وأيضاً يكون كالمرشد الكامل، الذي هو مركز ومصدر الكرامات والخوارق، تتصف بصفات الأولياء والأصفياء، وعالم لوجوه تهذيب النفس من الطاعات والعبادات، وماهر في العلوم الحقة التي تظهر على الناس بها أسرار عالم الملك

والملكوت، وكذلك يعلم خواص أعمال الجوارح والأذكار اللسانية، كما أن جبرائيل عليه السلام واسطة لأخذ العلوم الإلهية والتدبير الإلهي.

كذلك النبي يكون في الإنسان مالكا للصفات الجبرائيلية، حتى يكون شأنه شأن الملائكة، لا يعصون الله فيما أمرهم، وفطرته تكون مربوطة بالعالم العلوي، حتى تسيل منه العلوم الإلهية، وتلك الكمالات تكون فطرية له غير حاصلة من أستاذ ومعلم، ولا من مكتب ومدرسة، وإلى هذه الصفات أشار قوله تعالى: هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

فعلى ضوء هذه الآية، إذا لاحظت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ،رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث في زمان كان دين أهل العرب شركا في العبادات، وينكرون القيامة وقد مسخوا الملة الحنيفية فمحى الرسول صلى الله عليه وسلم رسوم الشرك وأثبت وجود القيامة وطهر الملة الحنيفية من التحريفات، فكأنه أسس الدين على أركانه، ولما قام الناس على خلافه، وقابلوه بالأنكار حتى بالآلات والأسباب، وقاتلوا معه قتالاً، ظهر معه التأئيد الرباني، فغلب عليهم .

وأظهر فيهم علوم القرآن، علم الإيمان والمعاد، وأحوال البرزخ، والجنة والنار، وعلم الإحسان الذي يقال علم المعرفة، و علم الشرائع و علم تدبير المترل، والسياسة المدنية، والمعاشرات، والمعاشيات، و علم الأخلاق والآداب، وعلم الفتن والحوادث المستقبلة وعلم الفضائل والأعمال وعلم المناقب وغير ذلك من العلوم والحكم من الله تعالى، ثم بين تلك العلوم مشرحاً، حتى صارت لهم في قليل الزمان كالمذاق الطبعي ، لا يبقى صغير و لا كبير ولا ذكى ولا غي إلا وقد تنقش الدين في قلوبهم كالنقش في الحجر فمن كان قبل البعثة بدويا متخفياً ، الآن صار حاكماً للدنيا، ومقربا إلى حضرة الصمدية فعليك أن تتفكر في حقيقة النبوة وبركاته والله أعلم .

ههنا شبهة ومغالطة ان الشرذمة القليلة من الأغبياء يزعمون، بأن علوم النبوة متعلقة بالأخروية التي تكون بعد الموت، ولا تعلق لها بالنظام الدنيوي، وعقول الماديين عاجزة من درك علوم النبوة الغيبية، ولذا لم يعطوا لها درجة رفيعة ، ولكن لا ينكرون أيضاً لتعلقهم بالدين، وهذه مغالطة منهم، لأن العقلاء من قديم الزمان سلموا منقبة علوم النبوة، كذلك العلماء الدينيون، وفي الحقيقة أن العلوم النبوية لها تعلق شديد بنظام العالم والحياة الإنسانية الدنيوية .

بالجملة أن حجة الإسلام الإمام ولى الله بين للنبوة ثلاث صفات وأركان، الأول السياسة والملوكية، والثاني: العلم والحكمة والثالث: الرشد والهداية، وكلها يوجد في النبوة بطريق الأكمل.

وههنا مقدمة: وهى إن لكل شيء صورة وحقيقة، مثلاً الإنسان له صورة خاصة متمايزة عن صور الحيوانات وغيرها، وكذلك له صفات مخصوصة للإنسانية التي هى حقيقتة فلو كان إنسان صورته صورة إنسان، ولكن ليست فيه حقيقة الإنسانية، فتقول إنه حمار إذا كان أحمق وذئب إذا كان خصوماً والأصل حقيقته.

فكذلك للملوكية صورة وحقيقة، مثلاً صورتها بأن يكون لها شأن وشوكة، ودولة و خزانة، وفوج و عسكر، ومحل وحصن، والإسراف في الأنعام، والظلم في الانتقام. وحقيقتها حسن نظام المعاش، وحسن المعاشرة، والأمن عن الأعداء الخارجية والداخلية، وحسن التعليم والتربية للرعايا، وحسن الصلاحية للنظم والنسق، وجرأة و سخاوة، وعدل وأنصاف، ومواساة ورحمة، وحسن الأخلاق، ومع تلك الأوصاف يكون الكبر الطبعي، والتعيش والتنعم، وغير ذلك.

فلو كان أحد ملكاً لمملكة ، ومالكاً لسرير الحكومة ظاهرا، ولكن ليست في حكومته حفاظة للرعايا من القذاق والقطاع واللصوص، وليس لهم نظام حسن الأخلاق والتعليم وغير ذلك، فحينئذ لا تنفع حكومته بل هي كالعدم ، وإذا كانت لها حقيقة الملوكية، فحينئذ يحكم الملك على الرعايا، في أنفسهم وأموالهم ، حتى على قلوبهم ، وهم يحبونه ويسلمونه بالنشاط والرضاء.

و إذا علمت هذا فانظر إلى صفات ملوكية النبوة، لأن النبوة تظهر حين تكون الدنيا نازلة كل نزول ، وإذا جاءت صارت الدنيا أحسن نظاماً، وتملأ عدلاً ورحمة، وعلماً وحكمة و غير ذلك وللملوكية النبوية صورها وحقيقتها بأن تكون لها أفواج وعساكر ، وتحفظات من الأعداء الداخلية والخارجية وغير ذلك، وهذا أمر بين خاصة من سيرة الرسول .

وفي الحقيقة أن ملوكية النبوة لها تعلق بعالم الغيب، ما من أمر من أمور الملوكية الأولها ظهور من الغيب ، ليس مجال للنبي أن يفعل شيئاً من تلقاء نفسه، كما قال الله تعالى : قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ١٠/١٥ ولا يكون ذلك في الاعتقاد فقط، بل كثيراً ما يظهر ذلك حقيقة كما في واقعة بدر الكبرى واحد ، بأن الرسول

صلى الله عليه وسلم قد تأيد بالملائكة المسومين، حتى قال : وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وللنبي في قتاله وجهاده، أصول وضوابط من عالم الغيب، ليس فيه القتل والإغارة ، والاقتدار والحكومة فقط، بل قتاله لإعلاء كلمة الله ولارشاد الناس والهداية ، ولذا ترى في الملوكية الدنيوية الملك والملكية، والقانون والخزانة والقوة والاقتدار، كلها للملك وفي ملوكية النبوة الحكومة والاقتدار والخزانة والدولة كلها لله تعالى وليست للنبي.

وفي الحقيقة ملوكية النبوة خلافة ونيابة عن الله تعالى ، والنبي خليفته تعالى في الأرض ينفذ أحكامه، ويجرى قوانينه ، ويحكم بحكمه ، كما قال الله تعالى : أنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين النلس بما أراك الله . ٤/١٠٥

وأيضاً قال : يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ٣٨/٢٦

ولذا ترى أن النبوة والرسالة فيض من فيوض الله تعالى، وهو يصطفى حسب علمه الغيبي، كما قال تعالى : والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس - ٢٢/٧٥ وفي آية أخرى الله اعلم حيث يجعل رسالته ٥/٦٧، فالرسول والنبي لا يكون من كسب واختيار، بل

كله من فضل الله العظيم ، ولا يظن بذلك أن الأنبياء لا حاجة لهم من أسباب ظاهرة ، بل معناه أنه لا يقتصر نظرهم على الأسباب و العلل، بل يكون نظرهم إلى قدرة الله تعالى دائما مع استعمال الأسباب والآلات ويتوكل على الله في كل أمر ، بخلاف ملوكية الماديين إذ عندهم النظر كله على الأسباب الظاهرة، وليس كذلك في ملوكية النبوة ولذا ترى النبي قد تصاف للقتال ومع ذلك يدعو إلى الله تعالى .

الركن الثاني للنبوة العلم والحكمة ، وله ثلث خصوصيات، الأولى تحفظ حقوق الإنسانية ومصالح العالم، مثلاً البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وغير ذلك، استرط فيه التراضي من العاقدين، مع ذلك قد حدحدودا أخرى، لأن لا يكون فيه ظلم على أحد، فلذا حرم الربوا والرشوة، إذ فيه ظلم على أحدهما، وكذا أن لا يكون فيه فسد نظام المصالح ، فلذا حرم الزناء والمتعة وان تراضي الفاعلان ، إذ به يفسد حسن المعاشرة ونظام المصالح، وكذلك بجمع الأموال ولكن اشترط شروطاً بحيث لا يكون عن حرام أو ظلم، والماديون لا يشترطون شيئاً من ذلك والمال يكون ظلماً وفساداً كما هو مشاهد اليوم في العالم .

والثانية إنها تتكفل ببيان الحقيقة ليس فيها كذب و لأخداع ، وكذا ليس فيها تجوز ولا تعدي، فيها بيان نفس الأمر والواقع، فكما أن الحقائق لا تتبدل بل تكون على حالة واحدة، كذلك علوم النبوة وأحكامها لا تتبدل، بل تدوم على حالة واحدة، وهذا كله في الأصول والكليات، ولكن الفروع لأحوال الإنسان قد تتبدل وتتغير، بتغير حالات الإنسان والزمان، ما من علم من علوم الدنيا إلا فيه مجال الكلام للناس، لا يكون الدعوى منهم أن تحقيقاتهم قد بلغت غايتها، بخلاف علوم النبوة ليس فيها أن يتكلم أحد ولو بحرف بل كلها على الحقيقة .

الثالثة إنها تكون على الجزم المقطعية ، لا يكون فيه شك ولا ريب، ولذا قال تعالى: لا ريب فيه، وعقول الماديين يبعد عندها عالم الغيب، فلا جزم ولا يقين فيها، وهذا عند علوم النبوة باعث لزيادة اليقين والجزم، مثلاً عقيدة القيامة لم تفهمها عقول الماديين أصلا، ولكن تعلن علوم النبوة بالقيامة بأشد جزم ويقين، قال الله تعالى – قل بلى وربي لتأتينكم ٣٤/٣ ، علوم النبوة لا تحصل للإنسان عامة، بل هى من علم الله تعالى يعطيه من يشاء، كما قال الله تعالى ،إني أعلم

من الله ما لا تعلمون . فالأصل أن علوم النبوة نوع آخر سوى علوم الإنسان، ولذا كثيراً ما لا تطابق علوم النبوة عقول الماديين .

والركن الثالث للنبوة الرشد والهداية : لا تتأدى ذلك بالألفاظ حقيقة، من صحب النبي صلى الله عليه وسلم ولو لحظة، فهو يكون أعلى من جنيد والشبلي، في الحقيقة كمالات الأنبياء سواء كانت من القوة العلمية او القوة العملية تنفرد وتتميز عن كمالات بني نوع الإنسان، إذ ينبع صفاتها من كمالات الباري تعالى بلا واسطة .

وتكون كمالات الأنبياء مظاهر لأسمائه الحسنى، وملوكيتهم لا تكون كملوكية قيصر وكسرى، بل تكون ظلاً للحاكم المطلق، وهم لو كانوا لا يدعون الحكومة ظاهراً، ولكن تجري حكومتهم على القوى السماوية والأرضية، حتى البحر ينفلق لمرور عساكرهم ، والملائكة يفتخرون بشركتهم مع الأنبياء في الصلوات والجهاد ويجري حكمهم على كل الخلق، وقد ظهرت آثاره، كما رجعت الشمس بعد غروبها ، وانشق القمر بالإشارة وغير ذلك، وكل ذلك تدل على كمالات الأنبياء، حتى تظهر من متبعيهم أيضاً ، من الخوارق والكرامات .

فكما أن النبوة والرسالة أعلى وأرفع من الكسب، كذلك كمالاتهم وصفاتهم أعلى من الكسب، حتى جميع الصفات لهم حقائقها متمائزة عن حقائق صفات المخلوقات، وترى العقلاء ينشرون عن الأنبياء تلك الصفات، كما جاء في هرقل: سواله أبا سفيان عن حلل النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى أظهر معجزات لا تحصى لصداقة النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلاها القرآن الذي يبقى إلى يوم القيامة.

وههنا شبهة: إن النبوة والمعجزة والحي من ضروريات الدين ومباديه، فلا بد أن يكون كلها مدركا بالعقل حتى يعرفها، متى لم يعرفها ارسطو وفارابي وابن سينا فكيف يعرف عقلاء زماننا، فكيف يكون الوحي والمعجزة والنبوة من مبادئ الدين وواجباته، الجواب: بأن كثيراً من الأشياء نعرفه بداهة، ولكن لا نعرف حقيقته، كالماء والملح يعرفه كل واحد، حتى الصبيان والمجانين، ولكن لا يعرف كثير من العقلاء أيضاً حقيقتها.

فلذا نقول أن معرفة النبي بديهي بآثاره وخواصه وصفاته وإن كانت معرفة حقيقة النبوة والوحي مشكلة، وإن الله تعالى يكلف بشيء الذي يكون سهلاً، والشيطان يوسوس الناس في غير ما أراده،

ولذا إذا جاء النبي في العالم فقد جاء بالتعارف الكامل ، لا يأتي مفاجأة، وما جاء نبي إلا وقد أخبر من قبله بمجيئه كما يعلم من التوراة والإنجيل .

وعلماء النصارى واليهود يعلمون خواص نبي آخر الزمان ، ومشركوا العرب إنما أنكروا النبي، إما لأنهم لا يعلمون خواص النبي ، فينكرون لجهالتهم أو لقصور فهمهم، فيقولون أنه مجنون، أو لأنهم لما رأو لعلومهم تأثيرا شديداً يقولون أنه ساحر ، أو لأنه لما سمعوا النبي يقول على خلاف ظنونهم، ما يظنونه نافعاً يقول النبي أنه مضر، وما يقولون أنه مضر يقول النبي أنه نافع، فلذا يقولون أنه مجنون ، فأعلن القرآن أنه ليس بساحر ولا مجنون، يقول الله تعالى : هل أنبئكم على ما تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ٢٢٢ / ٢٦ فرد الكهانة، وقال أيضاً وما علمناه الشعر وما ينبغي له ٢٣/٦٩، وكذا قال : والشعراء يتبعهم الغاؤن ٢٦/٢٢٤ فرد الشاعرية، حتى قال الله تعالى : إنه لقول رسول كريم وما هو بقول كاهن قليلا ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين ٢٩/٤٣.

وما قاله المشركون من أنه ساحر أو كاهن أو مجنون ، فلا حاجة إلى أبطاله ، لأنه بديهي البطلان ، ومع ذلك رد القرآن عليهم، لأنهم أول المخاطبين ، ولا بد من رفع شبههم، وإلا يقولون جهلا، ما أجيب عن شبهاتهم ، فيسع لمن يأتي بعدهم ، أن يقولوا مثل ما قالوا ، فأجاب الله تعالى ورد بأحسن رد، بحيث لم تبق شبهة في صدق النبي ولو إلى يوم القيامة، وبين الصفات المتمايزة للنبي بياناً واضحاً من أخلاقه وهديه ورشده وأعماله.

وبهذا البيان الواضح ظهر بطلان ما قال الفارابي وابن سينا، من أن الوحي والنبوة و المعجزة ليست لها حقيقة، بل كالرؤيا، فهل يمكن من الذي حاله كحال النائم أن ينشئ في العالم انقلاباً عظيماً، في كل شعبة من الحياة الإنسانية، لا يتصور ذلك قطعاً، بل أمكن منه هذا الانقلاب ، لأنه مؤيد من الله تعالى، والعلوم والهداية كلها من الله تعالى، وان النبي صلى الله عليه وسلم جامع للأخلاق الحسنة ، وكل هذه حقيقة لا شك فيها ، والله أعلم .

الفائدة الخامسة : ضرورة النبوة والرسالة

قال الإمام الرازي في التفسير الكبير : ما حاصلـه أن الملـوك والسلاطين كما يبعثون إلى الرعايا، قوانينـهم بواسـطة قاصديـهم ورسلهم، ولا يأتيهم الملوك بأنفسهم، كذلك يبعث الله تعالى أنبيـاء، ورسله إلى الناس ، كي يهديهم ويعرفهم قوانين معرفة الله تعالى، فينعم على من اتبع الهدى، وينتقم ممن عصاه .

والحكمة في ذلك أن لا يعتذر أحد بعدم علمه، كما قال تعالى يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسـل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير و نذيـر. - ١٩/ ٥ وكذا قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ١٥/١٧ .

فقال الإمام الرازي أن معرفة الحق تعالى واجب عقـلاً علـى جميع الخلائق / ومعرفة الله تعالى لا تكون من غير الأنبيـاء، فانكـار النبوة والرسالة انكار ذات الله تعالى حقيقة قال تعالى وما قـدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ٩١/٦ فمن أنكـر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله تعالى .

وقال الحافظ ابن القيم : إن افعال الأنبياء وأقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم ميزان صحيح، فمن صح على ذلك الميزان فهو كامل صحيح، ومن انتقص في الميزان فهو ناقص في كل أمر، والإنسان يحتاج إلى النبوة والرسالة اشد ، كما أن الجسم يحتاج إلى الروح والبصر إلى النور، أن هذه الأشياء تحتاج إليها للحياة الدنياوية، والحاجة إلى الأنبياء للحياة لا بدية الدائمة .

فالإنسان أكثر حاجة إلى النبوة من جميع حاجاتها إلى الضرورة الدنياوية، ومن جهة أخرى فإن الله تعالى بعث رسولا اقتضاء بصفة الملوكية، وأظهر على يد الرسول معجزات باقتضاء قدرة الله تعالى، حتى يعرف الناس صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان أفعال النبي والرسول في الحقيقة أفعال الله تعالى، ولكن الفرق بأن أفعال الله تعالى وآثار قدرته ظاهرة في العالم من غير واسطة وهذه المعجزات آثار قدرة الله ظهرت من يد النبي والرسول لصدقة، فمن أنكر المعجزات فكأنه أنكر قدرة الله تعالى .

وقال الحافظ ابن تيمية : إن الله تعالى أنعم على الناس إنعاماً عاماً ، حسب الضرورة والحاجة، فما هو أشد حاجة إليه أنعم الله تعالى عليه عاماً، مثلاً أن التنفس للإنسان ضروري في كل آن لحياته، فأنعم الله

تعالى عليه الهواء عاما لطيفاً سارياً شاملاً في كل زمـــان ومكـــان، ثم الحاجة إلى الماء، فأنعم الماء عليه ثلاثة أرباع الدنيا عاما، ثم الحاجـة إلى الأرض فأنعم عليه كذلك .

هكذا حاجة الإنسان للحياة الدينية أشد إلى معرفة الربوبية فلذا أظهر الله تعالى دلائله وآثاره في كل شيء وذرة، يقول الشاعر: ففـــي كل شيء له آية ، تدل على أنه واحد ، حتى يعرفه تعالى كل إنســـان بأسهل ، ثم الحاجة إلى النبوة والرسالة أشد، إن الإنســـان لا يعـــرف مرضيات الآخر ومبغوضاته الابيانه وإظهاره، كذلـــك لا يمكـــن أن يعرف الناس مرضيات الله تعالى ومسخوطاته بعقلوهم .

فمن الله تعالى عليهم، بأن يبعث رسولاً ليبين للناس مرضياتـــه ومسخوطاته، وأقام الحجج والدلائل على صدقه، بحيث يعرفه كــــل الناس سواء كان عالياً أو خاصاً، ولا تشق معرفته حتى أن كان إنكـــر نبوة النبي عجباً، و لذا سحرة فرعون لما رأوا معجزة النبي بأبصارهم ، اعترفوا بنبوته و رسالته ولو توعدهم فرعون بعذاب شـــديد، وقـــالوا فأقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحيواة الدنيا أنا أمنا بربنا .

وقال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني رحـــ في مكتوباته : مـــا حاصله أن نعم الله تعالى أعم وأشمل للناس، وأعلى النعم بأن أخرج لـــه

بينه وبين الله تعالى سبيل المكالمة بالوحي بواسطة النبي ، قال الله تعالى : وإن من أمة إلا خلافيها نذير ، ٢٤/٣٥ فمن الآته تعالى وجود أنفسهم والشمس والقمر والماء والمطر والهواء والأرض كل ذلك ولو كان أعم للناس، ولكن أعلى النعم عليه هو النبوة والرسالة .

ولو لم تكن هذه لتعطلت النعم كلها ، وبهذه النعمة أنعم الله تعالى للناس علم الحشر والجنة والنار ومرضياته وسواخطه، وإن الأنبياء والرسل يأخذون العلوم والمعارف من الله تعالى، ويبينون للناس، والناس ولو كانوا أعقل و أبصر ولكن لم يبلغوا مدراج الأنبياء لأن ذلك محدود في دائرة الأمكان لا يترقي ولا يصعد من هذه، ولذا توى العقلاء إذا أرادوا معرفة الله تعالى بعقولهم يختلف أقوالهم، فقال بعضهم : إنه علة تامة بالإيجاب كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذباً، وظنوا أن العالم قديم والخرق والألتيام محال ، وبعضهم أنكر الحشر والبعث، وبعضهم أنكر صفات الله تعالى ، وغير ذلك من التفوهات الباطلة ، ان هم إلا يخرصون .

ويح للعقلاء، ما فهموا بأن ذرائع العلم وأسبابه مختلفاً، و العلم كما يحصل بالحواس كذلك يحصل بالوحي، وبالحقيقة كثيراً ما يقع الغلط في ادراك الحواس فيحكم عليه العقل بالصحة، و أدراك الحواس

محدود وادراك العقل أوسع منه، وتارة يقصر العقل من دركها ويغلط، فأنعم الله تعالى لدرك العلم ذريعة أخرى وهو الوحي، ولا مجال فيه للعقل والحواس .

فكما أن الحواس عاجزة في ادراكات العقل فكذلك العقل عاجز عن ادراكات الوحي وهو ما وراء العقل وعلى الوحي الوثوق والاعتماد أشد من الحواس والعقل، إذا عارض العقل بالحواس يرجح العقل ويسلم وإذا عارض العقل بالوحي فحينئذ يصدق الوحي ويعتمد عليه، العقل عاجز بين يدي الوحي، لأن علوم الأنبياء بالأمور الغيبية فوق عقولنا، وهم يشاهدون الغيب بالوحي، فإنكار النبوة والرسالة والوحي لعدم ادراك العقل سفاهة ، قتل الإنسان ما أكفره .

ويقال أيضا : إن الإنسان مجموع الجسد والروح، كما أن للجسد اسبابا للصحة والمرض، ولذلك أطباء يعلمون أسبابها، فكذلك للروح أمراضا وأطباء ، يعلمون أسباب الصحة والمرض للروح ، وهم الأنبياء والرسل، لا بد للمريض أن يسلم نصائح الطبيب ولو لم يعقله ويفقهه، كذلك لا بد للناس أن يسلم النبوة وعلومها ولو لم يعرفها بعقلوهم الطبيب الحاذق يدعي حذاقة طبابته ويدعو الناس إليه، فالمريض إذا يسلم قول الطبيب ويعمل على نصائحه وتوجيهاته يصح

ويعتقد حذاقة الطبيب، فكذلك الأنبياء والرسل إذا بعثوا إلى الناس يدعون النبوة وأظهروا المعجزة، فمن أمن به وعمل بما أمر به يصح فيعتقدون صدق النبي حينئذ.

ويقال أيضا : بأن العالم وجميع ما فيه كله خلق للناس ينتفع بالأشياء حسب ما أمر، و الموجد المهندس يعلم جميع جهات المصنوع، وهو يعلم بأي وجه يستعمل وينتفع به حتى لو خولف ما قرر من الأصول والفروع لم ينتفع به، بل يهلك هو بنفسه فكذلك خلاق العالم يعلم بأي وجه يستعمل أشياء العالم وكيف يعامل مع سائر الخلق حتى ينتفع به، فبعث الله الرسل والأنبياء ليبينوا مصالح العالم وأسباب المنافع وذرائع الأمن والسكون حتى إذا خولفوا يظهر الفساد في العالم فيهلك ، هذا أمر معقول .

الفائدة السادسة : في خصائص الإسلام ومحاسنه

(١) الدين الذي أنزله الله تعالى على رسله وأنبياءه دين واحـــد ، لم يترل سواه ولا يقبل الله من أحد دينا غيره وهو الإســلام ---- قال تعالى :

" إن الدين عند الله الإسلام" ــ (ال عمران ١٩) .

" ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " (آل عمران ٨٥) .

والإسلام معناه : الاستسلام والخضوع والطاعة لله بفعل ما يأمر الله به وترك ما ينهى الله عنه . وذلك في الحياة كلها . فردية ، أو اجتماعية ، لأن الله تعالى أكمل هذا الدين الحنيف وأتمه على العباد وألزمه عليـــهم فقال :

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيـــت لكم الإسلام ديناً " (المائدة ٣) .

" يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتـــم مسلمون " ــ أل عمران ١٠٢ .

فالإسلام دين الله الذي أتقن كل شئ وقدر والفرق بينه وبين الأديان الأخرى كالفرق بين صنع الله وصنع البشر .

فالدين المترل من الله تعالى إنما هو روح ونور وحياة ـ فقال تعالى : " وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ـ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي من نشاء من عبادنا " (الشورى٥٢) .

وما يصنعه البشر من الأديان والشرائع انما هو نصوص جلمدة لا روح فيها تلفها ظلمات بعضها فوق بعض .

فالإسلام دين الهي سماوي كامل وجامع ورابط ـ فله المزايا والخصائص لا توجد في غيره من الأديان .

ومن هذه الخصائص بعضها :

(١) **دين إلهي رباني** :- ان هذه الخصوصية التي يمتاز بها الدين الحنيف لا توجد في أديان آخر ـ لأن الإسلام أنزل إلينا من خالقنا ومعبودنا سبحانه وتعالى .

" هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " فحق السيادة والحكم للإسلام لأنه

ط

من صلب السلطان الذي له حق التشريع ، ويجب على العباد الطاعة له والخضوع .

(٢) **دين معصوم ومحفوظ** : - ان هذا الدين المبارك معصوم كما ان أصحابه عليهم الصلواة والسلام معصومة ــ وكيف لا يكون كذلك وهي من عند الله الذي لا يضل ولا يشقى ، والله تكفل بحفظه إلى يوم القيامة . فقال : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "

وهذه العصمة تستمر إلى يوم تقوم الأشهاد . ولا زال يبقى كما أنزل متزها عن الباطل محفوظاً عن الغلط والتحريف والدخيل فارقاً بين الحق والباطل .

(٣) **الإسلام دين مستقل** :- لا علاقة له بالأديان الأخرى الموضوعة . لأن الإسلام له منهجه الذاتي وأسسه الأصلية ووسائله المتميزة ، فلا يوكل تفسيره وتشريحه إلى الأديان الأخرى ولا الإضافة إليه فهو منهج متكامل ووحدة متجانسة ـ فلا يعتز الإسلام بان يكون بينه وبين هذه الديانات مشابهة أو ملاطفة أو مماثلة .

بل الإسلام في منهجه مستقل يقدم للبشرية نموذجاً من النظام المتكامل لا يوجد في أي دين معروف على ساحة الأرض .

والإسلام لا يحاول ولم يحاول أن يقلد نظاماً من النظم أو يقصد بينه وبينها صلة أو مشابهة ، بل اختار طريقة منفردة فذة وقدم للإنسانية علاجاً كاملاً لمشكلاتها جميعاً .

(٤) **الإسلام دين عالمي** : - البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمتهم وأمكنتهم يعودون إلى أصل واحد .

" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء "

فالجماعة الإنسانية فوق ظهر كرة لأرض وحده واحدة والتقسيم إلى القبائل والشعوب للتعارف فقط فقال تعالى: " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات١٢).

فالخصائص واحدة مع اختلاف الألوان والأشكال والأجناس وهذه الوحدة تتحقق بالعبادة فقط .

والعبادة تكون باتباع الدين الذي أنزله الله تعالى ــ وبالتحاكم إلى الشريعة التي أرادها الله أن تكون قانوناً عالياً للناس كلهم

فقال تعالى : " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٢الفرقان) .

قل يا أيها الناس اني رسول الله إليكم جميعاً (الأعراف ٥٨) .

والقانون العالمي الوحيد الذي يصلح لحكم الحياة الإنسانية و إصلاحها وليسع الناس على اختلاف الزمان والمكان هو الدين الحنيف الإسلام .

فقد أراد الله تعالى : ان يكون الدين الإسلامي ديناً لجميع البشر ، والشريعة الإسلامية شريعة للناس كافة . والقرآن منزل للعالمين و محمد صلى الله عليه وسلم رسول الناس كلهم .

(٥) **الإسلام دين واسع كامل** : - لقد جاء الإسلام من عند الله ليسع حياة الإنسان من كل أطرافها وحياة المجتمع الانساني بكل أبعادها فلا يضيق الإنسان بالحياة ولا تضيق الحياة به وحسبنا أن الله الذي شرعه أراد ذلك فقال : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " (المائدة ٢٣) .

وإذا كان الإسلام ديناً كاملاً امتن الله بانزاله على عباده ورضيه لهم وعده نعمته الكبرى ونسبه إلى نفسه ــ فلا بد أن

تكون واسعة وافية بمصالح العباد وهو مع وسعتها لا تتناقض أحكامه .

كما قال تعالى : " الحمد لله الذي نزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً" (كهف ١).

فالإسلام توافق بين الوجهين : الروحية والمادية في الحياة الإنسانية . وعني عناية تامة بإصلاح روح العبد وعقله وفكره وقوله وعمله .

وعني كذلك بالفرد والأسرة والمجتمع . وقد وضع نظاماً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ــ وقرع قيام الدولة وحدد معالمها . ورسم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها في حالتي السلم والحرب .

وكذلك الإسلام مرتبط بالعقيدة والعمل ــ فهو عقيدة وشريعة دين ودولة .

فعقيدة المسلم تحكم باطنه وشريعة الإسلام تحكم ظاهره ومجتمعه وتترابط العقيدة والشريعة لتؤلف منهجاً متكاملاً يهيمن على الحياة كلها .

(٦) الإسلام دين ثابت ومستمر ومستقر مع المرونة :-

الإسلام الذي ختم الله به الشرايع والرسالات السماوية أودع الله فيه عنصر الثبات والاستمرار والخلود والاستقرار مع المرونة . وهذا من روائع الاعجاز في هذا الدين وأية من آيات صلاحيته لكل زمان ولكل مكان .

والمراد بالثبات الاستقرار على الأهداف والغايات والأصول والكليلت والقيم الدينية والأخلاقية .

والمرونة تكون في الوسائل والأساليب والفروع والشئون الدينية والعلمية .

فالثبات يكون المجتمع المسلم محفوظاً عن عوامل الانهيار والغناء والذوبان في المجتمعات الأخرى ــ ويستقر التشريع وتبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة وأسس راسخة لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية والاجتماعية يوماً فيوماً .

وأما المرونة فيستطيع بها لمجتمع المسلم تكييف نفسه وعلاقاته حسب تغير الزمان والمكان وأوضاع الحياة في الإنسان . وعلى هذا أعلن القرآن الكريم :

" إنما كان قول المومنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا (النور ٥١)

" ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم (الأحزاب ٣٦)

(٧) الإسلام دين الإنسانية من حيث تحفظ حقوق الإنسان :

إن الإنسان في منظور الإسلام هو المخلوق الذي كرمه الله تعالى بجنسه واختاره لعمارة هذا الكون وفق شرعه وشريعته " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر "(الإسراء ٧٠) .

فحقوق الإنسان في الإسلام مرتبطة بواجبات ، والتزاماته الدينية والاجتماعية والأسرية والتنظيمية ، وتترتب له كما تترتب عليه الحقوق وفقاً لذلك .

وحقوق الإنسان في الإسلام تبدأ بحماية حقوقه حتى قبل خلقه حيث اختيار الزوجة الصالحة والرضا بالزوج الصالح ، والتغذية على الكسب الحلال وعدم الاجهاد لحاملته ، واختيار اسم الصالح له والعناية برعايته وتربيته فضلاً عن حقوقه بعد وفاته .

ومن هنا فالمنظور الإسلامي لحقوق الإنسان منظور واسع يمتد مع الإنسان من قبل خلقه والى ما بعد وفاته .

وليس من الحكمة ان تكون الحقوق الإنسانية مقصورة على فترة عمره وفي قضايا خاصة من جوانب حياته ـــ كما في نظريات أخرى سوى الإسلام .

فالإسلام يهدف إلى حقوق العدل والإنصاف والسلام بين بني البشر ، ونشر الصحة في البيئة والإنسان والابتعاد عن الظلم والفقر واستبعاد الإنسان لأخيه الإنسان .

فالفئات التي تقود الحملات على بعض الدول باسم حقوق الإنسان انما هي ظلم وبغاوة على حقوق الإنسان فضلاً على ذلك أن نظرياتهم قاصرة خاطئة ضيقة في حقوق الإنسان طالما الإسلام يحفظ هذه الحقوق والواجبات بين الفرد ونفسه كما في الحديث (ان لبدنك عليك حقاً) .

وبين الفرد و أسرته (الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) وبين الفرد ومجتمعه (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) الحجرات ١٢

وبينه وبين ربه ونبيه والبنية التنظيمية العلمية والسياسية التي تحكمه (يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم (النساء٥٩).

ومن هنا تبين المنظور الإسلامي لحقوق الإنسان عن غيره . بأنه منظور متميز عن الطروحات الوضعية .

لأن دين الإسلام يشتمل على نظام شامل لحياة الإنسان تتجلى فيه الحقوق مفصلة وواضحة . وان حقوق الإنسان في الإسلام هبة من الله تعالى .

ففي الإسلام المساواة بين الناس وتحرير الإنسان من العبودية لأخيه الإنسان و حصر العبودية لله رب العالمين وحده كما ان الإسلام ضمن حماية دمه وما له وعرضه وكفل معاشه وحرم ظلمه وضمن كامل حقوقه .

وذلك ابتداء من الإعلان النبوي الذي أعلنه نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : (أن دمائكم وأموالكم و إعراضكم حرام عليكم) مما يؤكد أن الحقوق الإنسانية وان العدالة قيم إسلامية متصلة بتاريخ عريق. فحياة الإنسان

وحرمة ماله واعراضه وكرامته وكرامة جواره واقربائه من حماية الشجر والزروع والمنتأت المدنية وغيرها من الأمور الحيوية والاجتماعية فلكلها في الإسلام قيمة عالية ومرتبة رفيعة . والحديث الذي روي من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق الجوار وكرامة الشيوخ واجلال العلماء حتى الترحم على الصغار يدل دلالة واضحة على تحفظ الحقوق الإنسانية من جميع الجهاد ولا سيما حديث (الدين النصيحة ــ قيل لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم).

قد جمع جمعاً وافياً لجميع الجهات لحقوق الإنسان . ومن هنا تميز التشريع الإسلامي عن سائر القوانين والنظم الوضعية . والدعوات الواهبة المهملة .

(٨) **الإسلام دين الحرية لاسيما حرية النساء وتقييمهن :-**

إن الحرية تعتبر من حقوق الإنسان اما حرية الفكر والرأي أو حرية العمل والعيش.

نعم هذه الحرية للإنسان أمر عظيم لا بد لكل من يريد الإنسانية أن يلتزمها وان الإسلام جاء لتحقيق الحرية العادلة في ما بين الناس .

لأن الإسلام دين الله الخالد في العالم . وحقوق الإنسان في الإسلام دائمة تعاقب الليل والنهار ، راسخة رسوخ مفاهيم القرآن في أذهان من الإنسان ، جلية لجلاء الصبح في الأخلاق.

لأن الحرية معناها ضد العبودية ـ والإسلام قد جاء ليحرر العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ولينتظم الجميع في نسق العبودية لله وحده . فالعبودية في الإسلام لا تكون الا الله وكل سعى إلى التحرر من العبودية لغير الله فهو من جنس الجهاد في سبيل الله . وتنجلي هذه الحقيقة بأن القرآن قال (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) .

فإذا الإسلام تثبت الحرية الحقيقة ، هناك لكل من لا إنسان أن يظهر رأيه و فكره ولا يضطهد أحد أحداً ..

فتاريخ الإسلام وعمل الصحابة تدل دلالة واضحة على ذلك فحرية الرأي والفكر لا تترك على رسلها بل هناك انضباط من معطي الحرية وهو الله تبارك وتعالى .

ولتثبيت الحرية شرع الله تعالى الشورى فيما بينهم في الأمور المهمة : وهذه الشورى أمر عالمي تاريخي لتحقيق الحرية وميزة من مميزات الإسلام فلا توجد في التطربات الأخرى هذا النظام وخاصة أمر المرأة في الإسلام في دائر الحرية أمر محمود ومثالي : فلا ترى أي معوقة في اظهار الرأي في الأمور اللازمة من ذكر أو أنثى .

فسيد المرسلين محمد عليه السلام تجادله مرأة في أمر يخص بها ورسول الله يسمع الشكوى منها وتنزل الآية من الله رب العالمين : " قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ..

وسيدنا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يتكلم في صداق المرأة ويشدد عليه وهناك المرأة تقوم وتردد على الفارق رضي الله عنه بآية القرآن وعمر سكت يقنع وما تكلم على ذلك بهذه .

فهذه نبذة من الأمثلة التي دارت بين النساء في إظهار الرأي بلا خوف ولا إرهاب. فاين دعوى أعداء الله بان الإسلام يضطهد المرأة ويخنق حلقهن ولا يعطي الحقوق لهن ويظلم عليهن .

والحقيقة التي لا تقبل الجدل والمنطق الذي لا يرقى إليه الشك ، أن واقع الإسلام هو غير ذلك البتة ، إذ أن دين العدل والمساواة ، دين احترام المرأة الذي حرص على تربيتها . ويسر لها معيشتها وضمن لها مقومات حياتها اهتم بشؤونها وحفظ مكانتها في المجتمع فجعلها أما رؤوما واختا حنونا وزوجا ودوداً وابنة بارة .

وحماها من المكايد والدسائس والتأمر على سلوكياتها وكفل لها حياة كريمة ما لم تكفله لها غيره من قوانين أحكام ضاغها بشر . يقول الله تعالى : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات ١٢) .

فهذه الآية تبين بكل وضوح مكانة المرأة في الإسلام . تؤكد ذلك آية القرآن الأخرى . " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً " .

ثم ساوى الإسلام بينها في المسؤولية والشاهد على هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم

ومسؤول عن رعيته . فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيتـــــه والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعيـــة في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها) .

بل يضاف إلى ما هو أبعد من ذلك وهو أن الإسلام أعطــــى المرأة ثلاثة حقوق في البر مقابل حق واحد للأب ، جاء ذلك ، في حديث المصطفى عليه الصلوات والتسليم عند ما سأله أحد من الصحابة رضي الله عنهم قائلاً من أحق الناس بصحبتي يـــا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أمك قال ثم من ؟ قــــال أمك قال ثم من ؟ قال أمك قال ثم من ؟ قال أباك) كل ذلك إدراكاً لدورها وتقديراً لرسالتها ووفاء لصبرهــــا واحترامــاً لجهودها وإبرازا لمكانتها "ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمـــه وهنا على وهن وفصاله في عامين.

بل ان الإسلام قدر تقديراً للمرأة فوق ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الجنة تحت أقدام أمهاتكم) فلا يوجد لمثل هذا التقدير والمكانة مثيل في تاريخ أي قوم أو نظرية نعـــم ومن الجدير بالذكر ان الـــتزام المــرأة في الملبـــس وفي عــدم الاختلاط بين الرجال والنساء في ميدان العمل وعدم التـــبرج

تبرج الجاهلية وغيرها من الأمور اللازمة في الإسلام فإنه تكريم للمرأة ومحافظة عليها من إبداء زينتها للرجال الغرباء وحفظ لطهارتها وصون لعفتها وحماية لسلوكياتها من الانحراف ، لأن المرأة إذا فسدت في أي مجتمع فسد ذلك المجتمع بضياع انسابه وانعدام أخلاقه .

فهذا هو الحرية في الإسلام حرية عادلة مقيدة قيد الإنصاف والقسط . فكم من بيوت دمرت بدعوى حرية المرأة المزعومة والمغلوطة في ان واحد ، أنهم يريدون تحريرها من العفة والطهارة والإخلاص ، ويسوقونها إلى التبرج والسفور والى اوحال الرذيلة والفساد .

وهذا لا يعقل حرية الحقيقة بل هذا إلقاءهن في قعر الهلاك والفساد .

(٩) الإسلام دين العلم والمعرفة :-

الدين والعلم في نظر الإسلام شيئان متلازمان لا ينفصلان ولا يتعارضان ، فكل واحد يكمل الآخر . فالدين يدعو إلى طلب العلم والمعرفة والبحث والاجتهاد الفكري والعلم يوصل إلى حقيقة الدين والحق والرشاد .

ان الإسلام دين الله المترل من العزيز العليم . ورسول الله محمد المبعوث إلى كافة الناس إنما هو معلم ومتم لمكارم الأخلاق ومن هنا غـــرزت الأهمية للعلم في هذا الدين فضلاً على ذلك بدأت النبوة والرسالة مـــن الله تعالى بقوله اقرأ ..

فالدين الذي أول لفظ فيه اقرأ دين العلم والمعرفة تماما ولا شك فيــه . فالقرآن والسنة النبوية يدعوان دائماً إلى طلب العلم والمعرفة والتفكـــر والتأمل والاجتهاد ، حتى علمنا ربنا المستعان الدعاء لزيادة العلـــم ((رب زدني علماً)) طه ١١٤ آية .

يقول الله تعالى : " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمــون " (الزمر ٩) . " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (الفاطر ٢٨) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : طلب العلم فريضة على كـــل مسلم ومسلمة . وهكذا أذن الدين الإسلام الحنيف يدعو إلى التعلـــم وطلب العلم والمعرفة النفقه في الديـــن وخاصـــة العلـــوم الشـــرعية الإسلامية.

كما أن الدين الإسلامي يحث على النهل من جميع العلـــوم الكونيـــة اللغوية والفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، حـــتى العلم قسم إلى قسمين : علم الأديان وعلم الأبدان.

فأصحاب العلم والعقول هم الذين يصلون إلى معرفة الرب وعبادته وخشيته وطاعته واستعمار الأرض بالخير والبر والتقوى والعدالة فيقول الرسول عليه السلام : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربه لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة .

ان العلم يجمع بين الروح والمادة . فلا يوجد الصراع بين الدين والعلم بل هناك تكامل وانسجام . فالعلم يخدم العقيدة الإيمان ويوصل إلى الرشاد واليقين . وكذلك العلم يودي إلى اكتشاف قوانين الله في الكون وتسخيرها لمصلحة الإنسان . والقرآن الكريم حافل بالآيات العلمية التي تدل على وجود الله ووحدانيته وكذلك آيات الكون والخلق . فقال تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق (فصلت٥٣) .

ان الإسلام يدعو إلى الاستمرارية في طلب العلم والمداومة على ذلك كذلك يدعو إلى الانفتاح على كال الثقافات والعلوم الإنسانية من أجل الاستفادة من إيجابياتها ـــ لأن الحكمة ضالة المؤمن التقطها حيث وجدها وكذلك العلم يقوم على التجديد والتطوير.

فاذن تتجلى العلاقة القائمة بين الدين والعلم في الإسلام .
واما الدين المحرف يد إلى نبذ العلم ويعتبر طلب العلم خطيئة ومعصية ومن هنا تبررت حدة الصراع بين الدين المحرف والعلم . ولهذا ظهرت ما يعرف بقضية العلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن جميع كون الحياة . ومعنى العلمانية حسب ما يعبرونه العلمية والعرفانية . ويريدون بذلك العلم والمعرفة بدون الدين . أي الفصل بين الدين والعلم ومعنله اللادينية .

وحركة العلمانية وحيها أعداء الإسلام من حيث الصلاح ليطفئوا نور الله بأفواههم . ولكن الإسلام دين العلم والمعرفة بل الإسلام يريد من الناس تعلم العلم وتعليمه ولو كان هذا العلم في بلاد بعيدة . ولذا قد صيت القول المشهور في الإسلام أن اطلبوا العلم ولو كان في الصين .

والشاهد على ذلك تاريخ الإسلام وممارسة العلم في عهد الإسلام أكثر ما كان قبله .
بل العالم شاهد الظلم والاضطهاد على الذين أرادوا التعلم والتعليم ومحو الأمية من المجتمع من أسلاف هؤلاء الذين يدعون الآن رياسة

العلم وقيادته . فكم من رجال الغرب والعلماء قد قتلوا وحرقوا بذنب طلب العلم من بلاد الإسلام .

فالإسلام دين العلم والمعرفة والتفكر والاجتهاد يريد محو الجهل من المجتمع وذلك فضل الله على الناس .

(١٠) في الإسلام نظام اقتصادي مثالي معتدل :

ان المال مادة من المواد اللازمة في حيوة الإنسان وكلا تتصور الحياة بدون المال ولا تستمر بغيره . فلا يحتاج إليه من في السموات العلى ولا من يسكن في القبر وتحت الثرى — وتعتبر ضرورة المال في حياة الإنسان وسيلة ونعمة من الله تعالى لا مقصداً أصلياً ، والوسيلة من حيث الوسيلة أمر ثاني وتلقائي لا تعد غاية ولا يبني عليها الحياة ولا الحياة تدور معها . . .

ولكسب المال وصرفه وبزله واستعماله اسم خاص في الاصطلاح وهو نظام الاقتصاد . .

والإسلام من حيث الدين الاكمل عرض لأهل الدنيا نظاماً كاملاً مثالياً معتدلاً للاقتصاد . وهو أول عرض تام في تاريخ الإنسان ولا شك فيه وما اكتفى الإسلام لوضع النظام والنظرية فقط بل هناك

تطبيقات فائزة في الواقع الاجتماعي على يد رسول الإسلام وأصحابه وتابعيه وتبع تابعيه حتى يوم يقوم الإشهاد .

ولا يبقى لأحد أن ينكر هذه الحقيقة بأن نظام الاموال قبل الإسلام ما كان منظماً ومسطوراً ، بل كان هناك بعض العرف والعادات والرواج في معاملة الناس فيحابيهم

ففي هذا المجال حق الادلة والفضيلة للاسلام من حيث الدين وهدى الله لكافة الناس.

نعم هناك بعض النظريات راجت في العالم بعد الإسلام ولكن هذه النظامات الاقتصادية كانت قاصرة وخاطئة مع أنها كانت ظالمة على جنس الإنسان عامة وغنيمة لبعض الأشخاص والطبقات .

فنظام الاقتصاد في الرأسمالية والشيوعية قد توافق غافلا عن خالقه وربه ويزعم ان الدنيا وما عليها تراث له ويترعرع في طمع التملك على كل شئ .

ومن هنا تنشأ الاستبدادية والديكتاتورية التي ظلمت على الدنيا طوال السنوات .

فالإسلام غير هذه الفكرية المركزية و اعلن في هذه النقطة أصولين عظيمين مثاليين :

(أولاً) : الملكية المطلقة لله رب العالمين الـــذي خلــق الســموات والأرض وما فيهما.

—ولله ما في السموات والأرض وهو على كل شئ قدير .

—ولله ميراث السموات والارض .

—تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير .

(ثانياً) : الدنيا وما فيها مخلوق خلق الله تعالى والإنسان لا يملك شيئاً من خلق الله . الا اذن الاستعمال من حيث الامانة ـــ وهـــذا حــق اعطاه الله تعالى للإنسان بمنه وكرمه .

ويتبع الإنسان شريعة الله في استعمال هذه الملكية المفيدة المعطاة من الله تعالى . فلا يخرج عن حدود الله ولولي أمر بسيط . ومن يتعد حـــدود الله فقد ظلم نفسه فكسب الاموال وصرفه وجميع افعــــال يودؤهـــا الإنسان من حيث ان خليقة الله في الأرض .

فهذان الاصولان من الأمور الاساسية في الإسلام . ومن هنـــا تبـــين واتضح أمران آخران مهمان وهما :

(١) ان الاستفادة والتمتع من متاع الدنيا حق موهوب من الله لكل من يسكن في هذه لكرة المعهورة ، فلا يتملك ويستبد على ذلــك أشخاص معين ولا طبقة مخصوصة .

(٢) وكذلك كسب المال والزوة ليس مقصودا أصلياً للإنسان بــل كسب المال كوسيلة وذريعة العيش في هذه الحياة الدنيا .

ان اصلاح هذه الفكرة الخاطئة يجعل الإنسان دائماً متوجهاً إلى الله وخاضعاً له ومتبعا لشريعة الله في كل شئ وميزلا أمواله وترونه فيما ينفع لنفسه للناس اجمعين.

فهذه النقطة الواحدة جعلت نظرية الاقتصاد في الإسلام ونظامه نظاماً عدلاً ملائماً لجنس البشرية ورحمة لها . وتشعبت من هذه الفكرة الشامخة المعتدلة خصوصياتٍ أخرى لنظام الاقتصاد الإسلامي .

نعم ما حدد الاسلام ربقة الكسب ونهاية مبلغه ولكن جعله تحت قانون الشريعة ابتعاداً عن مواقع الغش والغين والضرر والارتكاز لذا منع الإسلام الاسراف والتبذير والرشوة والربوا والغش وجميع الأمور الضارة لنمو الإنسانية ، وعين الحقوق والتبرعات ومصارفها .

فالزكاة والعشر والخمس والصدقات والتبرعات من سبيل هذه الحقوق والبر والتعاون ، وكذلك صرف الاموال يكون حسب قانون الله تعالى. فقال تعالى إن الذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم .

وقال تعالى : ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام .

وقال تعالى : كلوا واشربوا ولا تسرفوا .

وقال تعالى : ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين .

فهذا الكسب والعمل الاقتصادي والمعاملات التجارية أمر مرغوب في الإسلام . وفريضة من فرائض الإسلام . حتى سمى الله تعالى هذا الكسب على النهج الصحيح فضل الله ورحمته .

فقال تعالى : فإذا قضيت الصلوة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (الجمعة)
وطلب فضل الله حينما يكون حسب قانون الله وشريعته يكون ذلك رحمة لكافة الناس وراحة لهم .
والا ذاك الوبال على الإنسانية و إلقائها في قعر الظلام والدمار . كما شاهد العالم ويشاهد تلك الخرافة . والفوضى الناشئة من نظام الشيوعية والرأسمالية وغيرها وتعبت الدنيا بمتاعب ومظالم هذه الأنظمة.
فهذا التعب والظلم والفوضى والتخلف الخلقي والاقتصادي والاجتماعي إنما حلها في الإسلام ونظام الإسلام .
فالإسلام دين الفطرة والإنسانية وهدى من الله رب العالمين فيه العدل والإنصاف في جميع الشؤون الدنيوية والدينية فلا يحرم أحد من حقه ولا يظلم أحد فيه بل القرآن أعلن :
إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها .
فلا يمكن الاستبداد ولا الاكتناز ولا الاحتكار في اتباع نظام الإسلام (لكي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) فأين الانظمة الأخرى المخترعة من أفكار البشر في اقامة العدل والإنصاف فلا مثيل ولا كفو لنظام الاقتصاد الإسلامي في إقامة الإنصاف والعدل أحد في العالم .

(١١) الاسلام دين المحبة والمودة لا الحقد والحسد : —

الإنسان حيوان اجتماعي كما هو المشهور ومعنى الاجتماع الترابط والمواصلة فيما بين الأفراد.

وتكوين المجتمع لا يمكن الا بالترابط والتقارب فيما بين أفراده من حيث الإنسان وحقوقه ثبات الترابط والمواصلة والتقارب يتقوى بالمحبة والمودة الحنان وحينما ينشأ الحقد والحسد فيما بينهم تضعف المرابطة وقوة تمسك الاجتماعي .

فالمحبة والمودة لازمة لاستمرار قوة الربط فيما بين أفراد البشر وبقاء جنس في هذه المعمرة والإسلام جاء من الله من حيث الدين القويم الذي يريد الخير في كل مراحل الحياة الإنسان آجلاً وعاجلاً . ويجعل جنس البشر كأعضاء جسد واحد أنصاراً وأخدانا . ويبقى هذا الشأن عندما تناصل المحبة والمودة في القلوب راسخة .

فالإسلام دين الله الوحيد يعلن هذه المحبة والمودة الإنسانية على أكمل صورة وعنوان . بقول الله تعالى : يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم (حجرات) .

فالذين آمنوا بالله ورسوله واخلصوا دينهم أكثر الناس محبة ومودة لأخيه المؤمن وغيره من البشر فقلما يظهر الجور والظلم والتحقير والحسد من المسلمين لأخيه الجار مسلماً كان أو غير مسلم .

لأن الإسلام فرض حسن المعاشرة والرعاية لجاره ولو كان غير مسلم .

فجاء اعلان الإسلام : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

وكذلك صل من قطعك واعف عمن ظلمك واحسن إلى من أساء إليك .

وقول معروف وأمر مهم في الإسلام في مجال الدعوة حتى أمر دعاة الإسلام ان يدعوا الناس برفق وحنان لا بشدة وخناق . هناك أمر الله تعالى لموسى وهارون حينما ذهبا الى فرعون ليدعوه إلى الله (أن تقولا له قولاً ليناً) .

بل نزلت الآية من الله إلى رسول الإسلام ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

وهذا يشير إلى أمر مهم ، بأن المحبة والرفق والحنان يجعل الإنسان العدو ولياً خالصاً ...

فكم من أعداء الله وجدوا نور الإيمان واليقين . ودخلوا في الإسلام بسبب المحبة والمودة من رسول الإسلام .

وكم من اعداء الإسلام الأشداء اعتنقوا الإسلام بالهمان أفواجا ، بسبب العفو وحسن المدارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة الكريمة وهم ظلموا واضطهدوا الرسول اياماً وسنوات .

ولكن رسول الله تقدموا إليهم بالمحبة والحنان العفو والكرم . فتأثروا به ووجدوا الراحة والسكن الدائمة في تعالم الإسلام .

فالمسلمون يسكنون مع غير المسلمين في ربعة واحدة بالمحبة والحنان ولا يوجد أثر حتى يتبين ذلك المسير من المسلمين بل ترى المسلمين أكثر حب لجارهم . ليكونوا مساهمين في بناء المجتمع الرفيع وذلك ثمرة تعالم

الفائدة السابعة :

في فضائل العلم الشرعي وخاصة علم الحديث الشريف

اعلم أن هذا الموضوع وسيع، الآيات والأحاديث والآثار فيه كثيرة، وألف كثير من العلماء في هذا الباب كتباً على حدة وهنا نذكر نبذة منها .

أما الآيات : فمنها أن أول ما نزل الله تعالى من آيات القرآن، العلم بالله الخالق والإنسان المخلوق، قال سبحانه : إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الذي أكرم، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم، (الآيات: ١-٥من سورة العلق)

ومنها امتن الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالتعليم فقال سبحانه : وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً (الآية : ١١٣ من سورة النساء). ومنها أمتن الله تعالى على المؤمنين بالرسول الخاتم ، وتعليمه وتزكيته اياهم، فقال : لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (الآية -١٩٤ من سورة آل عمران) .

ومنها مكانة العلم وشرافته ، طلب الله تعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن يسألوه سبحانه زيادة العلم، فقال : وقل رب زدني علماً . (الآية : ١١٤ من سورة طه)

ومنها ميز الله تعالى العالمين على من سواهم ورد تساويهم فقال سبحانه: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ (الآية -٩ من سورة الزمر)

ومنها رفع سبحانه وتعالى ، درجات المؤمنين والعلماء على غيرهم، فقال سبحانه: يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (الآية -١١ من سورة المجادلة)

أما من الأحاديث والآثار أيضاً كثيرة : فمنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة، قبلت الماء، فأنبتت الكلاء والعشب الكثير، وكان منها أجادب فامسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به (متفق عليه) .

ومنها عن معاوية رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، (متفق عليه)

ومنها عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا، وان العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحبتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، (رواه أبو داؤد والترمذي وغيرهما)

ومنها عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له . (رواه مسلم)

ومنها عن أبن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد (رواه الترمذي)

ـ ومنها عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا في المسجد مجلسان : مجلس

يتفقهون ، ومجلس يدعون الله ويسألونه فقال : كلا المجلسين إلى الخير، أما هؤلاء فيدعون الله تعالى، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل ، هؤلاء أفضل ، والتعليم أرسلت ثم قعد معهم ، (رواه ابن ماجه)

ومنها عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا ، يا رسول الله وما رياض الجنة قال : حلق الذكر ، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوابهم (رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه)

ومنها عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نضر الله امرأ سمع مقالتي ، فحفظها ووعاها واداها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه (رواه الترمذي)

ومنها عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحم خلفائي قلنا : ومن خلفاؤك يا رسول الله ؟ قال : الذين يرؤون أحاديثي ويعلموها الناس . (رواه الترمذي)

ومنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أولى النلس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة . (رواه الترمذي)

ومنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : آلا أخبركم عن الأجود؟ الأجود الله وأنا اجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل علم علماً فنشر علمه . (رواه الترمذي)

ومنها قال معاذ رضى الله عنه : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة. (مقدمة المجموع)

ومنها قال على رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه، وكفي بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه. (مقدمة المجموع)

ومنها قال الإمام الشافعي رحمه الله : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة وقال أيضاً ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم . (مقدمة المجموع)

ومنها قال أسحاق بن عبد الله بن أبي قروة رحمه الله : أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد فالعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل وأهل الجهاد جاهدوا على ما جاءت به الرسل . (مقدمة المجموع)

ومنها قال أبو مسلم الخولاني رحمه الله : مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيروا، (هذه كلها في مقدمة المجموع للنووي) .

الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا تحقرن أحـــداً ولا تحقرن طاعة ولا تحقرن معصية .

فالتحقير والتخذيل لأحد لا ينبغي للإنسان الاجتماعي . لأنـــه يثـــير الحقد والحسد ..

والإسلام أعلن ان الحسد يحرق الحسنات كما تحرق النار الحطب .

فالحقيقة الواقعية تشهد على مسامحة المسلمين جيلاً بعد جيل لأعدائه . وعفوهم لهم فضلاً على ذلك احسان إليهم والتعاون لهم بواسع الصدر ايفاء لحقوق الإنسان .

مثل أخلاق المسلمين في المحبة والحنان في التاريخ من غيرهم فلا يوجد.

الفائدة الثامنة :

في بيان أن الرسول كيف شانه في نظر الإسلام

اعلم أن شان الرسول متمايز عن شان الباري تعالى امتيازاً بيناً، كما أن الله تعالى متره عن الحلول والاتحاد والولادة والجسمانية والمادة ، كذلك الرسول كيف ما شانه ولو بلغ إلى ذروة الكمال الإنسلني لم يبلغ إلى أدنى درجة الألوهية ، فإن الألوهية والرسالة صفتان متمايزتان أشد الامتياز ، فلذا لا يكون الرسول متناسخا للإله بأن يحل فيه ولا يكون هو إلها بنفسه بأنه برز في صورة الإنسان .

فالنصارى يقولون بألوهية عيسى عليه السلام ، والبراهمة يقولون بأن الإله برز في صورة الرسول ، والإسلام يقول قولاً على حدة ، بأن الرسول إنسان مرسل ، ليس بإله ، فالذي قال النصارى والبراهمة فهو غير ممكن في ذات الرسول ، لأن الممكنات أنواع مختلفة ، لا يتجاوز كل نوع من حده الفاصل ، ولا يبلغ أي نوع ولو بلغ إلى أوج الكمال إلى درجة نوع آخر ، وهذا محدود من القدرة الإلهية، فكيف يتصور من الرسول أن يكون إنسانا ثم يتجاوز من الإنسانية بسبب كمالاته إلى الألوهية ، هذا محال وغير معقول .

ط

وأيضاً كما أن أفراد النوع الواحد تختلف مرتبة ودرجة ولا يستوون ، ومع ذلك لا يتجاوز أي فرد عن نوعيته ولا تتبدل حقيقته ، فكذا لا تتغير حقيقة الإنسانية للنبي أيضاً ، بل كون الرسول إنسانا ثم تحمله الصفات الكمالية بحيث صار أعلى الناس شأناً وأرفعهم قدراً دليل الكمالية لأن الرسول يبعث لإصلاح الناس وإرشادهم إلى الهداية ، فلا بد له أن ترد عليه جميع الحالات والتطورات التي تطرأ على الإنسان ، فمن لم يطرأ عليه غم ولا نوم ولا جوع ولاعطس ولاطرب ولا شهوة وغير ذلك من الأحوال الإنسانية فكيف يصلحهم ويرشدهم ، وكيف يكون، أسوة جامعة .

ولذا ذكر الله تعالى كونه إنساناً على طور الامتنان كما قال تعالى : " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم " ٣/١٦٤ ، وكذلك في دعوة إبراهيم عليه السلام بأنه عندما دعا الله تعالى لكي يبعث رسولاً من ذرية إسماعيل دعا أن يكون إنساناً كما قال " ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم" ٣/١٢٩ وكذلك قال الله تعالى لبني آدم من بدء الأمر أن يكون الرسول من الإنسان كما قال تعالى: " يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم

آياتي" ٧/٣٥ ، وأيضاً صرح تعالى : " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض" ٣/٣٣ .

فعلم من ذلك أن سلسلة النبوة التي بدأت من آدم عليه السلام وانتهت إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كل نبي من هذه السلسلة كان إنساناً حتى عيسى عليه السلام حيث قال صراحة ذرية بعضها من بعض " ولا يكون متجاوزاً عن الإنسانية قطعاً ،

وليس لمعرفة مقام الرسول لفظ جامع وأسهل من لفظ رسول ، كما أن الله تعالى ذكره في معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال "محمد رسول الله والذين معه" ٤٨/٢٩ ، وقال تعالى "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" ٣/١٤٤ ، والحال أن رسولنا سيد الأنبياء والمرسلين، والحكمة فيه أن لفظ الرسول متداول معروف عند الناس في كل زمان ، كل الناس يعلم صفاته اللازمة والممكنة والمستحيلة ، ويعرف كيف احترامه وتعظيمه ، وما جاء رسول في الدنيا إلا وقد عرف نفسه بأنه رسول من الله فللإيمان جانبان ، التوحيد لله في جانب ومحبة الرسول في جانب ، والرسول واسطة بين المؤمن وبين الله تعالى ، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله كما قال تعالى " من يطع الرسول فقد أطاع الله " ٤/٨٠

فعلم مما ذكر أن الرسول ليس اله ولا متناسخا من الله ولا هو بروز من الله ، بل هو إنسان بعثه الله تعالى رسولاً ، وان لفظ "رسول" كاف لمعرفته بل هو جامع لحقائقه ،

ثم اعلم أن ههنا لفظين آخرين يتقارب من معنى الرسول ولكن بينهما فرق بين وبون بعيد أحدهما لفظ ، الوكيل الذي يتكفل أمر الغير ، والوكيل يكون مختاراً من الموكل في حق الدفع والجواب ، يفعل ما يشاء ويقول ما يريد مستقلاً بنفسه ، بخلاف الرسول فإنه يكون أميناً من الله تعالى ، ليس له اختيار مطلق العنان ، مثلاً لو وكل الملك أحدا وكيلاً فيجوز له أن يفعل ما يناسب ملكه ولو لم يقل له الملك ، حتى يكون الوكيل مختاراً في نست القوانين ونسخها ، بخلاف الرسول فإنه لا يجب عليه شئ من ذلك سوى الإبلاغ والتبليغ .

فكذلك ههنا بأن الوكيل هو الله تعالى ولا يكون الرسول وكيلاً قط الوكيل أمر عظيم تكفل الله تعالى بنفسه فقال تعالى " الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل" ٣٩/٦٢ ، وقال تعالى "وكفى بالله وكيلا" ٤/٨١ ، وقال تعالى " لا تتخذوا من دوني وكيلا" ١٧/٢ والرسول ينكر إطلاق هذا اللفظ عليه كما في قوله تعالى قل

لست عليكم بوكيل" ٦/٦٦ وقوله تعالى " وما أنا عليكم وبوكيل" ١٠/١٠٨ وغير ذلك من الآيات .

فعلم من ذلك أن فريضة الرسول أن يبلغ إلى الناس ما أرسل به ولا اختيار له أن يفعل شيئاً من نفسه أو يبدل شيئاً ، وكذلك لا يهدي من يشاء ، ولا يضل من يريد ، بل الكيل على كل ذلك هو الله تعالى ، وكما أن الملك في الدنيا لا يكلم مع كل الناس بالمشافهة بل بالواسطة فكذلك ما كلم الله تعالى بالناس مشافهة بل اصطفى من الناس رسلاً يكلم معهم ، وهم يبلغون كلامه إلى الناس ، كما قال تعالى " ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب" ٤٢/٥١ وقال تعالى وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء " فهذه صورة مكالمة الرسول مع الله تعالى بالوحي ومن وراء حجاب ،

و ههنا لفظ ثالث هو المصلح (ريفارمر) ، والرسول كما لا يكون وكيلاً ومختاراً كذلك لا يكون مصلحاً فقط ، لأن المصلح في العرف الجديد فيما بين العقلاء يكون متعلماً من الناس ، والرسول لا يكون كذلك ، بل هو يأخذ العلم من الله تعالى ، وكذلك الرسول يكون في عصمة الله تعالى لا يحتمل الغلط والبطلان بخلاف المصلح

فإنه يحتمله وكذلك الرسول له زمانان زمان قبل البعثة وزمان بعدها، وبينهما فرق بين ، كأن الرسول يكون انسانين ، فهذا النبي موسى عليه السلام قد خرج من وطنه خوفا من فرعون ، فإذا بعث رسولا جاءه يدعو إلى الله تعالى والنبي محمد صلى الله عليه وسلم يتحنث في غار حراء معتزلا عن الناس ، فلما بعث رسولا خرج الى الناس يدعوهم في كل مكان في عزلة وفي مجامع وفي أسواق وفي مواسم الحج وغير ذلك .

فيتبين من ذلك أن النبي قبل البعثة مثل العامي ليس عليه فريضة ،وإذا بعث عادت إليه أمور كثيرة ،ولا يتشابه بين الزمانين لأن الرسول لا يكون رسولا لأجل كسبه وخبرته ولا بتسليم قومه له أنه رسول ، بل القدرة الإلهية والعلم الغيبي هو الذي ينتخبه ذلك ، كما أن كل سفير للحكومة ينتخبه الملك ويكون قابلا واهلا للسفارة وواقفا بأسرار الحكومة وأهدافها ، وليس يكون كل قابل وصالح سفيرا ، فكذلك القدرة الإلهية إذا اتنخبت إنسانا للرسالة فهو يكون معصوما من الكفر والشرك والمعصية قبل البعثة وبعدها وإلا لم يكن أسوة للناس .

ولو كانت الرسالة والنبوة مكتسبة فيبعث كل من يتعبد كثيرا رسولا في زمان كان الناس يتعبد كثيرا ، والحال أنه إذا كان الناس جاهلا عن الدين والشرع وجاهلا عن معرفة الله والآخرة بعث إليهم رسولا ليصلحهم ويرشدهم إلى الحق والهداية ، فعلم أن الرسالة والنبوة ليست من ثمرة الكسب ونتيجته ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " لو كان بعدي نبي لكان عمر " معناه أن في عمر صلاحية للنبوة ولكن لم يبق للنبوة منصب بعدي فلذا لم يختر نبيا .

وكذا قال عليه السلام " لو عاش إبراهيم لكان صديقا نبيا " يعني كان فيه صلاح وجوهر للنبوة والصديقية ولكن وجد ههنا مانع آخر وهو عدم الحياة ، لأن في عالم التقدير والغيب أمر ثابت مقدر بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين لا يكون بعده نبي ، فلو عاش لكان نبيا كما هو معلوم من سلسلة أولاد الأنبياء خاصة من إبراهيم عليه السلام فأماته الله تعالى صغيرا لئلا يخالف معنى ختم النبوة ومعنى صلاحية النبوة في أولاد الأنبياء عليه السلام .

وأما الوجه في عمر فإنه ولو أدرك بلوغا ، ولكن ليس فيه معنى سلسة النبوة التي في أولاد النبي ، ولكن فيه معنى صلاحية النبوة ، فبين النبي صلى الله عليه وسلم بأن النبوة والرسالة لا تكون لمجرد الصلاحية

فقط ، ولا ناتجا من كسب أحد بنفسه بل من اصطفـــاء الله تعـــالى بقدرته الحكيمة فقال عليه السلام " لو كان بعدي نبي لكان عمـــر " يعني لم يبق للنبوة منصب بعد فلم يبعث ،

وكذلك لما بعث موسى عليه السلام تفكر في نفسه بأن فرعون أشد عناداً وكبراً وفي لسانه عقدة ، فلو كان أخوه هارون نبياً لكـــان أحسن ، لأنه افصح منه لساناً فدعا الله تعالى وقال " واجعل لي وزيـــراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمـــري" ٢٠/٢٩ ، وقال تعالى " وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرســـله معـــي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون" ٢٨/٣٤ ، فلو كانت النبـــوة مـــن اختيار العبد وكسبه فما معنى الدعاء والشفاعة إلى الله وبيان أوصافـــه للشفاعة ، فأجابه تعالى فجعل هارون عليه السلام نبياً ، وكما ذهـــب موسى عليه السلام إلى الطور فاستخلف هارون من نفسه باختياره ولم يسأل من الله تعالى أن يجعله خليفة .

فعلم أن الخلافة غير الرسالة والنبوة ، كما أن الرسول لا يكون رسولاً من قبل نفسه كذلك لا يجعل آخر رسولاً من عند نفسه بـــل الرسول يكون من الله تعالى ، فإطاعته وتسليم قضاءه فـــرض للأمـــة بخلاف المصلح للقوم فإن لكل واحد من الناس حق للمنازعة معـــه ولا

يكون حكمه ديناً ومذهباً بخلاف النبي ، وكذلك ليس على المصلح أن يكون من أهل لسان قومه بخلاف الرسول فإنه يكون من أهل لسان قومه .

ولما لم تكن بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) درجة النبوة والرسالة فأبقى الله تعالى الخلافة والإمارة بعده ، ويكون كلها تحت الشريعة . كما روي عن أبي هريرة رض عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كانت بنو إسرائيل شوسم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي سيكون خلفاء فيكثرون ؛ متفق عليه .

خلاصة الكلام بأن الرسول لا يتصور فيه التناسخ والبروز والنبوة والألوهية ولا يكون أيضا كالمصلح للقوم، فالنصارى أرادوا الرسالة بعنوان الابنية فغلطوا ، والبراهمة جعلوا الإله حالاً وبروزاً في الرسول فأخطئوا ، وكذا النصارى جعلوا الرسول جزء الاله فضلوا والعقلاء العصريون لا يعرفون شان الرسول فجعلوه كالمصلح وكل ذلك إفراط وتفريط ، والرسول عندنا بين وبين فهو رسول وبشر ، ليس لمعرفته لفظ جامع وأسهل من لفظ الرسول ، والله أعلم .

الفائدة التاسعة :

في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة السلام

العصمة من لوازم النبوة وخصائصها ، وقد أنكرها اليهود ، وهم يظنون الأنبياء مثل عوام الناس ، غير معصومين عن الخطايا والذنوب ، بل يرتكبون ما يرتكب آحاد الناس ، ولذا نرى في التوراة أنهم اثبتوا لهم أشياء تقشعر منها الجلود ، أثبتوا لهم الشرك ، والزنا ، وقتل النفس بغير حق ، والخداع ، وشرب الخمر ، والمصارعة مع الرب ، وغير ذلك من الأباطيل ، والأكاذيب ، التي لا يتصور منهم صدورها (والعياذ بالله) وهو يخالفه لمكانتهم .

فلذا أثبت القرآن العظيم عصمتهم بالآيات ، والدلائل العقلية تدل عليها كذلك ، فالأنبياء ولو كانوا بشراً فنهم معصومون ، وهذا هو دليل النبوة أيضاً ، فالعصمة ثابتة بالقرآن ، والحديث ، والاجماع ، والعقل ، وهذه صفة خاصة لهم مسلمة بين أهل السنة والجماعة ، فأذكر ههنا تلك الأدلة اختصاراً أما من الآيات :

١- قال تعالى : " الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس " الحج آية رقم: ٢٢/٧٥ ، يعلم منها أن الله تعالى ينتخب رسلاً من الملائكة والناس و قال تعالى: في حق الملائكة " لا

يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " (التحريم آية رقم:٦/٦٦) ، فكذلك يكون الرسول انتخبا من الناس ومعصوماً ، وأيضاً لو سلم عدم العصمة في حق الأنبياء يلزم أن لا يصح اصطفاء الله تعالى إياهم ـ وهذا ممنوع (لا يمكن).

وأيضا قال تعالى: في حق عدة من الأنبياء " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (آل عمران ٣/٣٣) ، وفي حق إبراهيم عليه السلام " ولقد اصطفيناه في الدنيا " (بقرة آية رقم: ٢/١٣٠) ، وفي حق موسى عليه السلام " إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي " (أعراف : آية رقم:٧/١٤٤) وأيضاً قال تعالى: " واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وأهم عندنا لمن المصطفين الأخيار" (٣٨/٤٧) ذكر الله تعالى في هذه الآية الخير مع الاصطفاء أيضاً .

وقال العلامة السيد/ الألوسي تحت هذه الآية : وجه الاصطفاء في جميع الرسل أنه سبحانه خصهم بالنفوس المقدسة ، وما يليق بما من الملكات الروحانية ، والكمالات الجسمانية ، حتى أهم امتازوا كما قيل على سائر الخلق خلقاً وخلقا ، وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى

ومظهر أسمائه وصفاته ومحل تجليه الخاص من عباده ومهبط وحيه ومبلغ أمره ونهيه وهذا ظاهر في المصطفين المذكورين في الآية من الرسل . (روح المعاني ج/٣) فاصطفاء الله تعالى يقتضي العصمة في حقهم وهو ظاهر .

٢- قال تعالى: " الله أعلم حيث يجعل رسالته " (الانعام ٦/٤٨) .
يعلم منها بأن الله تعالى يعلم أين يضع النبوة ومن هو صالح لها ، ومن المستعبد على الله تعالى وضع النبوة في غير موضعه ومحله وهو علام الغيوب ، وعلى كل شئ قدير ، وهو بكل شئ عليم ، فهذا ينادي بصوت أعلى بأن الذي يكون نبياً فهو معصوم يقيناً .

٣- قال تعالى: " وكلاً جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عابدين" (الانبياء ٢١/٧٢)
ذكر فيها بأن الأنبياء هم صالحون وأئمة وعابدون .
فكل هذه تدل على العصمة ، وأيضاً قال في سورة الأنعام بعد ذكر كثير من الأنبياء مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداؤد وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل ويسع ويونس ولــوط عليهم السلام " كل من الصالحين" (الانعام ٦/٨٥) .

ثم قال : " كلاً فضلنا على العالمين" ٦/٨٦ وأيضاً قــال : " واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم" ٦/٨٧ فكل هـــذه تنادي بالعصمة صراحة .

٤- قال تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أســـوة حســـنة " (الاحزاب ٣٣/٢١) . وقال تعالى: " وما أرسلنا من رســول إلا ليطاع بإذن الله " (الانساء٦٤/٤) ، وقال : " إن تطيعــوه تهتدوا " (الانور٥٤/٢٤) .

وقال تعالى: " ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيمـــاً " (الاحزاب ٣٣/٧١) .

وغير ذلك من الآيات التي أمر فيها الإطاعة للنبي ، وبـــين أن ذلك علامة الإيمان والهداية والفوز العظيم والرحمة وغير ذلك .

فهذه الآيات تدل على عصمة النبي وإلا كيف يكون أســـوة للإيمان والهداية وهذا أمر ظاهر لا يخفى على أحد .

٥- قال تعالى: " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحـــي يوحـــى" (النجم ٥٣/٤) .

يعلم منها أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم عن الهوى لا ينطق عنه قطعاً .

٦- قال تعالى:" لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً (بني إسرائيل١٧/٧٤) .

وأيضاً قال: " ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ وأنزل الله عليكم الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً (النساء ١١٣/٤) .

وأيضاً قال: " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فيسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (الحج ٢٢/٥٢).

يعلم من هذه الآيات بأن الله تعالى جعل الأنبياء معصومين عن الميل إلى الظلم وكيد الشيطان وضلالته وإضلال الناس وامنية الشيطان وغير ذلك ؛ فهذه تنادي صراحة بالعصمة .

٧- قال تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم" (القلم) . والخلق العظيم تجمع جميع الصفات الحميدة ، والحسنات السعيدة ، وتخالف

السيئات والمعصيات ، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم معصوماً قطعاً .

٨- قال تعالى: " إنك لعلى هدىً مستقيم (الحج ٦٧/٢٢) .
وأيضاً قال تعالى: إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم" (يس/ ١) .
وأيضاً قال: "وهديناهم إلى صراط مستقيم" (الانعام ٨٧/٦).
وأيضاً قال: في حق إبراهيم عليه السلام " ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين" (الانبياء ٥١/٢١)
وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الأنبياء عليهم السلام يكونون على الهدى ، والصراط المستقيم . فلو لم يكونوا معصومين فكيف يكونوا على الهداية والصراط المستقيم ؛ فالعصمة لازمة لذواهم .

٩- قال تعالى: " سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله" (الأعلى/) .
يعلم منها أن الرسول عليه الصلاة والسلام معصوم عن النسيان إلا ما شاء الله فيكون فيه حكمة ومصلحة كما في المنسوخ للتلاوة ومواضع السهو في الصلاة ففيه فائدة عظيمة للأمة كما لا تخفى .

١٠- قال تعالى: " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " (النساء/١٠٥/٤) .

يعلم منه أن جميع القضايا للنبي صلى الله عليه وسلم إنما ذلك من إيحاء الله ولو كان غير متلو .

فيكون معصوماً قطعاً ، ولذا ترى كيف اجبر المؤمنين على تسليم قضاياه ، كما قال تعالى: " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم (الاحزاب ٣٣/٣٦) .

وأيضاً قال: " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمونك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ؛ (النساء ٦٥/٤) .

١١- قال تعالى: "اتبع ما أوحي إليك من ربك " (الانعام ١٠٦/٦).

وأيضاً قال تعالى: "واتبع ما يوحى إليك " (يونس١٠٩/١٠)

وأيضاً قال تعالى: "ان اتبع إلا ما يوحى إليّ " أنعام ٦/٥٠) .

وأيضاً قال تعالى: " قل إنما اتبع ما يوحى إليّ من ربي" (أعراف ٧/٢٠٣) . وغير ذلك من الآيات التي ذكر فيها بأن النبي

صلى الله عليه وسلم إنما يتبع الوحي من الله فيكون معصوماً وإلا يلزم أن يشتبه في الوحي وهو ممنوع قطعاً .

١٢- قال تعالى: " ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً (أحزاب ٣٣/٣٦) .

وأيضاً قال تعالى: " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم " (النور ٢٤/٦٣) .

قال تعالى: " ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب " (الانفال ٨/١٣) .

وأيضاً قال تعالى: "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولي ونصله جهنم وساءت مصيراً " (النساء ٤/١١٥) .

وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن مخالفة الله تعالى وكذا مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لشدة العقاب والعذاب وإصابة الفتنة وسبب لدخول النار؛ فهذا يدل على أنه معصوم مطاع ومتبع في جميع أمره ولا يحتمل العصيان وإلا كيف تكون مخالفته سببا لتلك النتائج .

١٣- قال تعالى: " والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى " (النجم ١/٥٣) .

يعلم منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعدل عن الحق ولا يعتقد باطلاً قطعاً فيكون معصوماً .

هكذا قال السيد الألوسي رحمه الله تعالى تحته ، أي ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة وهو استعارة و تمثيل لكونه على الصواب في أقواله وأفعاله وما غوى أي ما اعتقد باطلاً قط لأن الغي الجهل مع اعتقاد فاسد وهو خلاف الرشد (روح المعاني صـــ) .

حاصلة كما أن النجم والكوكب يجري طلوعاً وغروباً على طريقه ومداره لا ينحرف يميناً ولا شمالاً كذلك شمس النبوة لا يعدل عن مداره أي عن طريق الحق قطعاً ؛ فهذه الآية صريحة بالعصمة .

١٤- قال تعالى: " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم " (آل عمران ٣١/٣) .

يعلم منه بأن الله تعالى جعل اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم معياراً للمحبة ، فمن أراد أن يحب الله تعالى يلزم عليه أن يتبع

رسوله ، فيلزم أن يكون الرسول معصوماً وإلا كيف يكون اتباعه دليلاً للمحبة فهذه الآية تدل على العصمة صراحة

١٥- قال تعالى: "يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون" (الاعراف ٧/٦١) .

وأيضاً قال تعالى: " يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين (الأعراف٦٧/٧) .

أيضاً قال تعالى: " يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (الاعراف٧٩/٧).

يعلم من هذه الآيات بأن الأنبياء عليهم السلام معصومون ، وليس بهم ضلالة ، ولا سفاهة ، ولكنهم رسل يبلغون رسالات ربهم ، فمن يكون رسولاً لا يكون ضالاً ولاسفيهاً ، فيكون معصوماً قطعاً .

١٦- قال تعالى: في قصة يوسف عليه السلام " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء أنه من عبادنا المخلصين " (يوسف٢٤/١٢).

يعني إراءة البرهان والثبات على الحق إنما كان ذلك لأنه كان

من العباد المخلصين ، ولذلك صرف عنه السوء والفحشاء بحيث لم يمسه شئ منه ، فظهرت من ذلك العصمة صراحة.

١٧- وقال تعالى: " إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (إسرائيل ٤٢/١٥) . يظهر منه بأن من العباد بعضهم الذين ليس عليهم سلطان للشيطان ، ومن أول مصاديقهم الأنبياء ، فلم يكن للشيطان سلطان عليهم فيكونون معصومين قطعاً.

١٨- قال تعالى : " الخبيثات للخبيثين و الخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون " (النور٣٣/٣٣) .

مدح الله تعالى في هذه الآية الأزواج المطهرات بأنهن طيبات انتخبهن الله تعالى للطيب الطاهر أي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد قال الله تعالى في حقهن ـ بقوله ـ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ـ يظهر منه لما طهر الله تعالى أهل البيت للنبي صلى الله عليه وسلم فالنبي صلى الله عليه وسلم كيف لا يكون مطهراً وهذه هي العصمة له صراحة .

١٩- قال الله تعالى جواباً للمخالفين الذين يخالفوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إنه مجنون أو كاهن أو شاعر بقوله تعالى " ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (جاثية ٨/٤٥) . يظهر منه على الضد بأن النبي صلى الله عليه وسلم غير أفاك أثيم . فظهر منه العصمة وإلا يكون أثيماً ــ نعوذ بالله ــ .

أما من حيث الإجماع :

١) فقال القاضي عياض " وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله قصداً أو بغير قصد ، واستحالة ذلك عليه شرعاً و إجماعاً ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً وعن الصغائر تحقيقاً (شفاء ج/٢ صـ ٣٥٤) .

٢) وقال الإمام الرازي " فقد اجتمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ وإلا لارتفع الوثوق بالأداء ، واتفقوا على أن ذلك كما لا يجوز وقوعه منهم عمدا لا يجوز أيضاً سهواً .

٣) وقال في النبراس " واختار القاضي عياض المالكي ، العصمة عن الكذب مطلقاً في التبليغ وغيره سهواً وعمداً وادعى إجماع السلف عليه .

أما من حيث العقل فنقول بالاختصار :

الأول :أن الرسل والأنبياء عليهم السلام كانوا مرسلين ، اصطفاهم الله تعالى لرسالاته ولكلامه ، وجعلهم قادة ، أئمة الهدى للناس ، فهم كالسفراء من الحكومة ، كما أن السفير يكون بحيث أن الملك يعتمد عليه ويصدقه وانه يعلمه قوانين الحكومة ولا يخاف عليه البغاوة والعصيان ، فلو اشتبه على الملك أمر السفير فلن يجعله سفيراً . فكذلك الرسل سفراء إلى الناس ، فهم معتمدون عند الله وإلا لم يجعلهم كذلك فيكونون معصومين قطعاً . ولما انتخب الله تعالى الرسول رسولا فلا تردد في اصطفائه إذ هو علام الغيوب .

الثاني : جعل الله تعالى الأنبياء ميزاناً صحيحاً للهداية والنجاة ،ومعياراً للإيمان والمحبة ، فلو كانوا غير معصومين كيف يمكن أن يحصل ذلك المقصود ، فالعصمة لازمة لهم .

الثالث : جعل الله تعالى رؤيا الأنبياء وحيا بحيث يعصمهم الله

في منامه أيضاً كما في يقظته ، لا دخل للشيطان قطعاً فهم معصومون يقيناً .

الرابع : قال عليّ القاري في شرح الفقه الأكبر " قال القونوي واختلف الناس في كيفية العصمة ، فقال بعضهم هي محض فضل الله تعالى بحيث لا اختيار للعبد فيه ، وذلك إما يخلقهم على طبع يخالف غيرهم بحيث لا يميلون إلى المعصية ، ولا ينفرون عن الطاعة كطبع الملائكة وأما يصرف همتهم عن السيئات وجذبهم إلى الطاعات جبراً من الله تعالى ، بعد أن أودع في طبائعهم ما في طبائع البشر ، وقال بعضهم العصمة فضل من الله ولطف منه ، ولكن على وجه يبقى اختيارهم بعد العصمة في الإقدام على الطاعة والإمتناع عن المعصية ، إليه مال أبو منصور الشيخ الماتريدي حيث قال العصمة لا تزيل المحنة أي الابتلاء والاختيار .

خلاصته لما خلق الله تعالى الأنبياء على طبع كطبع الملائكة فهم يكونون معصومين كالملائكة.

الخامس : قال صاحب النبراس : أن البرية مأمورة باتباعهم وإيثار حبهم على حب الأباء والبنين ، وخضع الرقاب لهم

والكف عن ذمهم وإهانتهم ، والتخلق بأخلاقهم الظاهرة والباطنة ، فهذا الكل يقتضي أن يكون غايته ما يمكن في البشر من المحامد والمكارم والعفة والنزاهة حتى لا يستنكف أحد من التذلل لهم ولئلا يجد المتمرد والمتعصب سبيلا إلى الطعن فيهم .

أما من حيث أقوال العلماء الكبار المحققين فنذكره مختصراً :

فالعصمة عن الشرك والكفر :

١) قال في شرح العقائد للنسفي " أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده .

٢) وفي شرح المواقف للسيد السند " أما الكفر فاجتمعت الأمة على عصمتهم عنه قبل النبوة وبعدها ، ولا خلاف لأحد منهم في ذلك .

٣) وفي شرح الفقه الأكبر لملا على القاري " أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع .

٤) وفي المسامرة " قال قاسم بن قطلوبغا " اتفق جمهور المسلمين على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده .

والعصمة عن الكذب :

١) قال في شرح العقائد للنسفي " في هذا إشارة إلى أن الأنبياء معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلق بأمر الشرائع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة ، أما عمداً فبالإجماع ، وأما سهواً فعند الأكثرين .

٢) وقال في النبراس " ذهب الجمهور إلى عصمتهم عن الكذب في التبليغ سهواً ، ومنهم الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني ، وينسب الخلاف إلى القاضي الباقلاني إلى أن قال واختار القاضي عياض المالكي العصمة عن الكذب مطلقاً في التبليغ وغيره سهواً وعمداً وادعى إجماع السلف عليه.

٣) قال القاضي عياض في الشفاء " وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله قصداً أو بغير قصد واستحالة ذلك عليه شرعاً و إجماعاً ونظراً وبرهاناً وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً وعن الصغائر تحقيقاً .

٤) قال الإمام الرازي " فقد اجتمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ وإلا لارتفع الوثوق

بالأداء واتفقوا على أن ذلك كما لا يجوز وقوعه منهم عمداً لا يجوز أيضاً سهواً .

والعصمة عن التقصير في تبليغ الرسالة :

١- قال في شرح العقائد " كلهم كانوا مخبرين ومبلغين عن الله تعالى لأن هذا معنى النبوة والرسالة ، صادقين ناصحين للخلق لئلا تبطل فائدة البعثة والرسالة .

٢- وفي المسامرة " وأما فيما طريقه الإبلاغ أي إبلاغ الشرع وتقريره من الأقوال وما يجري مجراها من الأفعال لتعليم الأمة بالفعل فهم معصومون فيه من السهو والنسيان .

٣- قال الإمام الغزالي " لكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به ، والزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة .

٤- قال الشيخ محي الدين العربي في الفتوحات " ويشترط في حق الرسول العصمة في جميع ما يبلغه عن الله عز وجل .

٥- قال البخاري : قال الزهري " من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم ، وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة ،

أداء الأمانة واستصدقهم في أعظم المحافل في خطبة يوم حجة الوداع " .

٦- قال الألوسي تحت قوله " إما ينسينك الشيطان" ومنعت ذلك طائفة من العلماء في الأفعال البلاغية والعبادات ، كما أجمعوا على منعه واستحالته عليه في الأقوال البلاغية .

٧- قال القرطبي " ومنعت طائفة من العلماء السهو عليه في الأفعال البلاغية والعبادات الشرعية كما منعوه اتفاقاً في الأقوال البلاغية واعتذروا عن الظواهر الواردة في ذلك .

٨- قال في الخازن " تحت قوله إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته " قد قامت الدلائل على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الأخبار عن شئ منه بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً .

والعصمة عن اتباع الهوى:

١) قال السيد الألوسي تحت قوله تعالى " وما ينطق عن الهوى " المتبادر من الخطاب أن جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من ذلك ليس عن إلقاء الشيطان كما أنه ليس من هوى .

٢) قال الحافظ ابن كثير أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان.

٣) قال القاضي ثناء الله الفاني فتي " يعني لم يتقول القرآن من تلقاء نفسه كما يتفول الشعراء ، وكذا كل ما يتكلم ليس منشأه الهوى النفسانية بل مستند إلى الوحي جلي أو خفي وان كان باجتهاد مأمور من الله تعالى مقرر من الله عليه فهو ليس عن هوى البتة .

٤) قال الشعراني " فان قلت فما الفرق بين العصمة والحفظ فالجواب الفرق بينهما أن الأنبياء معصومون من المباح لهوى أنفسهم بخلاف الأولياء ، فإذا فعل الأنبياء المباح لا يفعلونه لهوى نفوسهم كغيرهم ، وإنما يفعلونه على جهة التشريع أنه مباح فهو واجب عليهم حينئذ يعني فعل المباح إذا التبليغ واجب عليهم .

العصمة من الكبائر والصغائر مطلقاً :

١- قال الإمام القرطبي " وقال جمهور الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي أنهم معصومون من الصغائر كلها

كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرتهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن لنا إقتداءهم ، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة أو الحظر أو المعصية ، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين ، قال الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني : واختلفوا في الصغائر ، والذي عليه الأكثرون أن ذلك غير جائز عليهم ؛ وصار بعضهم إلى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة .

٢- قال الإمام الرازي : والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم الذنب حال النبوة البتة لا الكبيرة ولا الصغيرة ، أن الرسول أفضل من الملك ، فوجب أن لا يصدره الذنب من الرسول .

٣- وفي النبراس قال الإمام الماتريدي " الأنبياء أحق بالعصمة من الملائكة ، أن الحق سبحانه وتعالى سمى ترك الأفضل منهم معصية لعلو شأنهم .

٤- وفيه أيضا: جمع من العلماء ذهبوا إلى العصمة عن الصغائر والكبائر قبل الوحي وبعده .

٥- قال علي القاري : في شرح الفقه الأكبر " الأنبياء كلهم معصومون عن الصغائر والكبائر أي من جميع المعاصي إلى أن قال ـــ ثم هذه العصمة ثابتة للأنبياء قبل النبوة وبعدها على الأصح .

٦- وأيضاً قال في المرقاة : إذ الأنبياء معصومون قبل النبوة وبعدها عن كبائر الذنوب وصغائرها ولو سهواً على ما هو الحق عند المحققين ، وإن كان الأكثرون على خلافه .

٧- قال العلامة بحر العلوم في شرح مسلم الثبوت: ومنعه أي صدور الصغائر الغير الحسيسة ، الحنفية رضوان الله عليهم وهو الحق ، فإن صغيرهم كبيرهم في حقهم وإن كانت صغيرة في حقنا ، ألا ترى مباحات العوام سيئات الأبرار وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

٨- قال صاحب النبراس " للمتكلمين فيها كلمات غير مرضية ، والمختار عندي أنهم معصومون عن وساوس الشيطان ، وعن الكذب ، والكبائر ـــ والصغائر عمداً وسهواً قبل البعثة وبعدها .

٩- قال الإمام الشعراني : قال أئمة الأصول الأنبياء عليهم السلام كلهم معصومون ، لا يصدر عنهم ذنب ولو صغيرة سهواً كما لا يجوز عليهم الخطاء في دين الله قطعاً ـــ وفاقاً للأستاذ أبي إسحاق الأسفرايني وأبي الفتح الشهرستاني والقاضي عياض والشيخ تقي الدين السبكي وغيرهم (اليواقيت والجواهر).

١٠- وأيضاً قال فيه: قال الشيخ أبو طاهر القزويني في الباب الخامس والثلاثين من كتاب سراح العقول : يجب تتريه الأنبياء عليهم السلام عن كل ما يتبادر إلى أفهامنا من ذكر خطاياهم ، فان خطاياهم لا ذوق لنا فيها، وان الله تعالى اصطفى للأنبياء في سابق علمه للنبوة وأداء الرسالة ، ورتبهم ذلك في مبادئ أمورهم ، وحماهم من مكائد الشيطان ، وصفى سرائرهم عن الكدورات ، وشرح صدورهم بنوره ، وزينه بالأخلاق الجميلة ، وطهرهم عن الرجس والرذائل.

وغير ذلك من أقوال العلماء الربانيين في عصمة الأنبياء عليهم السلام مطلقاً ، فليس لأحد أن يقول فيه شيئاً بعد ما تبين له الهدى على خلاف جمهرة العلماء.

أما دفع الشبه والإيرادات التي ترد على العصمة من الألفاظ الواقعة في آيات القرآن كما في قوله تعالى " وعصى آدم ربه فغوى" وقوله تعالى: " ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " وقوله تعالى: " لآ اله إلآ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " وقوله تعالى: " ووجدك ضالاً فهدى " وقوله تعالى: " واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات " وقوله تعالى: " يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى خلاف العصمة .

ففي هذه الآيات ألفاظ تحتاج إلى التشريح والتبيين أعني لفظ العصيان والظلم والضلالة والذنب ، فأقول مختصراً :

١) قد علم من ما سبق من محكمات الآيات بأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من المعصيات والشبهات لا يصدر منهم شئ منها وهم في حفاظة الله تعالى ، فيجب أن يوجه جميع تلك الآيات التي ترد على العصمة بما لا يضاد الآيات المحكمات وبما لا يخالف عصمتهم .

٢) لم يذكر القرآن لفظ العصيان في حق نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا في حق سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ، فيقال في توجيهه أن المراد بالمعصية الزلة وهي غير العصيان كما قلل في

لسان العرب وأقرب الموارد وغيرهما ـ بأن المعصية مصدر وقد تطلق على الزلة مجازاً وهذا معفو في حق غير الأنبياء لا يؤاخذون بها ، وأما الأنبياء عليهم السلام فيؤاخذون لجلالة شأنهم . كما قال الإمام الرازي في التفسير الكبير : فهو أن العتاب إنما حصل على ترك التحفظ من أسباب النسيان وهذا الضرب من السهو موضوع من المسلمين ، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به وليس بموضوع من الأنبياء لعظم خطرهم .

وقال في اليواقيت والجواهر : فسمى الله تعالى وقوعهم في خلاف الأولى معصية وخطيئة

وقال القاضي ثناء الله الفاني فتي : وترك الأولى يعد ذنباً بالنسبة إلى الأنبياء لعظمة شأنهم وإن لم يكن ذنباً (المظهري)

وقال ملا علي القاري في شرح فقه الأكبر : فعوتبوا بأن الحق سبحانه وتعالى سمى ترك الأفضل منهم كترك الواجب من الغير .

وقال في النبراس شرح شرح العقائد : أجيب بأن الحق سبحانه وتعالى سمى ترك الأفضل لهم معصية لعلو شأنهم ، وعظم رتبهم ، فحينئذ يؤول الآية بأن سيدنا آدم عليه السلام فعل ما فعل أعني أكل من تلك الشجرة الممنوعة ناسياً كما قال تعالى " ولقد عهدنا إلى آدم من قبل

فنسي و لم نجد له عزما " . قال الإمام الرازي: وهو أنه فعل ناسياً فهو قول طائفة من المتكلمين احتجوا عليه بقوله تعالى " فنسي آدم و لم نجد له عزما " ومثلوه بالصائم فيشغل بأمر يستغرقه ويغلب له فيصير ساهياً عن الصوم ويأكل في أثناء ذلك السهو عن قصد، وقال القاضي عياض معنى لم نجد له عزما أي عزم المخالفة لأمر الله ؛ فهذا النسيان ليس بعصيان .

٣) الظلم والضلالة والذنب ألفاظ تجئ بمعان مختلفة ، قال الإمام الراغب: الظلم وضع الشيء في غير محله ، وأيضاَ يجئ بمعنى النقص كما في قوله تعالى " كلتا الجنتين آتت أكلها و لم تظلم منه شيئاً " أي لم تنقص ، وأيضاً يجئ بمعنى الشرك ، فيؤول في قول آدم عليه السلام : ربنا ظلمنا ، وفي قول يونس عليه السلام إني كنت من الظالمين بالزلة التي هي غير معصية . وهذا المعنى يوافق شأنهما ،

وكذلك الضلالة تجئ بمعان أيضاً تارة بمعنى الغفلة عن الشريعة ، وتلوة بمعنى الشرك والكفر ، كما في غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وتارة بمعنى النسيان ، كما في قوله فعلتها إذا وأنا من الضالين ، وفي لسان العرب ضل الماء في اللبن أي غاب وخفي ، وفي مجمع البحار

الضلال الضياع ، فمعنى قوله تعالى ووجدك ضالاً فهدى : قال العلامة الألوسي: ووجدك غافلاً عن الشرائع التي لا تهتدي اليها العقول كما في قوله تعالى : " ما كنت تدري ما الكتاب " وقوله تعالى: " إن كنت من قبله لمن الغافلين " وقد نفى الله تعالى عن نبيه الضلالة والغواية صراحة كما في قوله تعالى " ما ضل صاحبكم وما غوى " .

وكذلك لفظ الذنب تستعمل في معان وفي الأصل وهو غير المعصية . قال حافظ العصر الكشميري : هنا مراتب بعضها فوق بعض وضع لكل لفظ ، فالمعصية عدول عن الحكم وانحراف عن الطاعة ومخالفة الأمر ـــ فهذا أشدها ثم الخطأ وهو ضد الصواب ثم الذنب وهو أخفها ومعناها العيب ـــ تقسيم الصغائر والكبائر يجري في المعصية دون الذنب بالمعنى اللغوي ، ويطلق على المعصيات والسيئات أيضاً مجازاً توسيعا ، فإطلاق الذنب على الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقتضي العصيان بل هو من قبيل الزلة والسهو ، قال في تفسير الخازن : المراد بذكر الذنب هنا ما عسى أن يكون وقع من هذا القبيل (من السهو والغفلة والتاول) وغيره فهو مغفور له .

وقال الإمام الرازي تحت قوله تعالى واستغفر لذنبك ، وثالثها وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل

السيئ ، وجهه أن الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح ، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا ، وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في المؤمنين والمؤمنات ، وفي هذه الآية لطيفة : وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة: حال مع الله تعالى ، وحال مع نفسه ، وحال مع غيره ، فأما مع الله فوحده . وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك ، واطلب العصمة من الله . وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله .

وقال الإمام الراغب في مفردات القرآن في تحقيق الذنب : ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه ، وفي فرايد اللغة في الفروق وبين الإثم والذنب فرق من حيث أن الذنب مطلق الحرام عمداً كان أو سهواً بخلاف الإثم فإنه ما يستحق فاعله العقاب ويختص بما يكون عمداً.

٤) ويقال في دفع الشبه إجمالاً قال الأستاذ الشيخ عبد الرحمن محلاوي في تسهيل الوصول إلى علم الأصول: ــ والتحقيق أن الأنبياء عليهم السلام معصومون لا يصدر عنهم ذنب لا كبيرة

ولا صغيرة لا عمداً ولا سهواً قبل النبوة ولا بعدها ، وما ورد من ذلك يحمل على أنهم فعلوه بتأويل أو على ترك الأولى، والشارع أطلق اسم المعصية على الزلة مجازاً في قوله تعالى:" وعصى آدم ربه ، وليس المعنى أنهم زلوا عن الحق بل زلوا عن الأفضل إلى الفاضل ، ويعاقبون به لجلالة قدرهم ، وتقترن الزلة بالتنبيه على أنها زلة .

قال الإمام الماتريدي : الأنبياء أحق بالعصمة من الملائكة ، أن الحق سبحانه وتعالى سمى ترك الأفضل منهم معصية لعلو شأنهم (نبراس) .

قال ملا علي القاري : قال أبو المنتهى: لأن الزلة قد تكون بالخطأ وقد تكون بالنسيان وقد تكون بترك الأولى والأفضل (شرح الفقه الأكبر)

.

وأيضاً قال: والحاصل أن أحداً من أهل السنة لم يجوز ارتكاب المنهي عنه عن قصد ولكن بطريق السهو والنسيان ويسمى زلة .

قال العلامة التفتازاني : قال شمس الأئمة السرخسي :- أما الزلة فلا يوجد فيها القصد إلى عينها ولكن يوجد القصد إلى أصل الفعل ، لأنها أخذت من قولهم "زل الرجل في الطين" إذا لم يوجد القصد إلى الوقوع ولا إلى الثبات بعد الوقوع ، ولكن وجد القصد إلى المشي في

الطريق ، وإنما يؤاخذ عليها لأنها لا تخلو عن نوع تقصير يمكن للمكلف الاحتراز عنه عند التثبت ، وأما المعصية فهو فعل حرام يقصد إلى نفسه مع العلم بحرمة (تلويح) .

وأيضاً قال: وذكر بعض العلماء من أن زلة الأنبياء هي زلل من الأفضل إلى الفاضل ، ومن الأصوب إلى الصواب ، لا عن الحق إلى الباطل ، وعن الطاعة إلى المعصية ، و إنما يعاقبون لجلالة قدرهم ، ولأن ترك الأفضل عنهم بمنزلة ترك الواجب عن الغير (تلويح) .

وقال الشعراني قال الشيخ العارف بالله الجامع بين الطريقين سيدي عبد العزيز الدرمين رضي الله عنه : لا يجوز قطعاً نسبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الذنوب على حد ما نتعقله نحن وإنما سماها الله في حقهم معصية ، خطيئة ، وذلك لأن مقامهم لأرفع ، لاذوق لولي فيه ولو ارتفعت درجته فضلاً ، عن غيره من أمثالنا (اليواقيت والجواهر) .

وقال السيد عبد العزيز الدباغ في الأبريز ــ فإن المنع من المعصية ذاتي في الأنبياء وعرضي في الأولياء ، ولا يمكن زواله في الأنبياء .

فظهر من جميع ما سبق من كلام المشايخ الكبار والعلماء المحققين بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن المعاصي والذنوب ، وما يطلق عليه اسم المعصية والذنب والضلالة والظلم فكل ذلك مصروف

عن ظاهرها ، وإنما المراد منها الزلة وغير ذلك التي ليست بمعصية ، ومع ذلك أطلق عليهم ذلك لعلو شأنهم وجلالة قدرهم ، فبعد هذا التحقيق من يقول بعدم عصمة الأنبياء عليهم السلام فإنه زنديق باطناً ، يريد أن ينشئ في قلوب المؤمنين اليهودية الملعونة ، حفظنا الله تعالى عن هذه العقيدة الباطلة التي هي خلاف عقيدة جمهور أهل السنة والجماعة .

الفائدة العاشرة : في تحقيق جامعية القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله تعالى أنزله هداية للناس وإصلاحا للعالم ، وهو جامع وشامل لجميع شئون الإنسان ، من الشخصية والشعبية والدولية ، وهو ينظم أحوال العالم، ويرشد الناس إلى التقوى والصلاح ، ويهديهم إلى العبادة وفكر الآخرة ، فهو كامل مكمل حيث قال تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " .

والقرآن هو أصل الدين والشريعة ، وهو جامع لأحكام الدين ، واتفق عليه جميع الأمة الإسلامية ، ولكن ليس معناه بأنه لا يحتاج إلى البيان والتفصيل ، والشرح والتوضيح ، ويبين فيه جميع الجزئيات والحوادث النازلة ، بل معناه أنه جامع للأصول والكليات ، التي تشمل جميع الفروع والجزئيات ، كما قال الإمام الشاطبي في الموافقات ج/٣ ص/٣٦٧ القرآن على اختصاره جامع ولا يكون جامعاً الا والمجموع فيه أمور كليات ، وقال الإمام البخاري صـ : قال محمد وبلغني أن جوامع الكلم أن الله يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد أو الأمرين أو نحو ذلك "

وقال الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين صـ٢٢٦ ، وجوامع الكلم هي الألفاظ الكلية العامة المناولة لأفرادها ، فإذا انضاف ذلك إلى بيانه الذي هو أعلى رتب البيان ، لم يعدل عن الكلمة الجامعة التي في غاية البيان ، لما دلت عليه إلى لفظ أطول منها واقل بيانا ، مع أن الكلمة الجامعة تزيل الوهم ترفع الشك وتبين المراد ، وكذا قال في موضع آخر منه صـ٢٨٩ (الكلمة الجامعة) وهي قاعدة عامة وقضية كلية تجمع أنواعاً وأفراداً وتدل دلالتين دلالة طرد ودلالة عكس ، فظهر من هذه الكلمات :

(١) الكلمة الجامعة تجمع الأمور والكليات وتشمل على جميع الأفراد والأنواع بحيث لو فصلت لا تخرج عنها .

(٢) لا تضيق دائرة الكلام بحيث يوهم خلاف المراد ، بل مع كونها مختصرة جامعة تزيل الوهم والشك في المراد .

(٣) الكلمة الجامعة مع كونها مجملة مهمة تبين المراد وتوضحه ، بحيث لا يبقى فيه إبهام وشبهة ، فهذه الصفات الثلاثة والأوصاف الثلاث توجد في القرآن الكريم على وجه الكمال ، فعلم بأن القرآن جامع ،

ويحتاج لدرك جامعيته إلى البيان والتفصيل ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى لتعليم الكتاب والحكمة ، كما قال تعالى: " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة" بين الله تعالى في هذه الآية ثلاثة مقاصد للبعثة :

(١) التلاوة (٢) والتعليم (٣) والتزكية ، وخاطب الله تعالى بهذه الآية أهل العرب الذين يعرفون اللغة العربية ، وأنزل القرآن عربياً أيضاً ، ومع ذلك بعث فيهم رسولاً عربياً ليتلوا عليهم الكتاب ويعلمهم ويزكيهم ، يعلم منه بأن علم اللغة لا يكفي فقط لفهم معاني القرآن وكشف حقائقه ، بل يحتاج الى بيان الرسول وتعليمه ، كما يحتاج في أداء الألفاظ في التلاوة إلى بيان الرسول وتلاوته صلى الله عليه وسلم ، فكذلك يحتاج لفهم معانيه إلى تعليم الرسول وتبيينه ، وهذا أمر ظاهر لا يخفى على أحد .

فكما أن أهل اللغة الأردية كثيراً ما لا يفهمون كلام الشاعر اقبال والشاعر غالب .

وكذا أهل اللغة البنغالي لا يعرفون كثيراً ما كلام الشاعر نظر الإسلام وغلام مصطفى ، مع أن كل الشعراء يتكلمون بلغة قومهم ، لأن المتكلم إذا تكلم كلاماً بليغاً وجامعاً تكون فيه رموز وإشارات ، ويخفي فيه كنايات واستعارات ، ويكون فيه إجمال وإبهام يحتاج إلى بيان المتكلم نفسه ، حتى في بعض الأحيان يفسر الناس على خلاف مراد المتكلم ، وعلى هذا لو أنزل الله تعالى القرآن ولم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم مراده ، لا يمكن للناس أن يدرك كلامه تعالى ولا يفهم معاني القرآن ، فإذاً يكون نزول القرآن عبثاً ، فلذا ذكر الله تعالى امتنانه على الناس " إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ٣/١٤٦ .

فهنا نذكر نبذة من الأمثلة ، بأن معرفة العربية لا تكفي لفهم القرآن ، بل يحتاج إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم :

١) عن عبد الله بن مسعود رض لما نزلت " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم الأنعام ٨٢ " قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أينا لم يظلم فأنزل الله تعالى "إن الشرك لظلم عظيم" ١٣/١٣ بخاري ١/ص ١٠ .

٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم " من حوسب عذب قالت عائشة فقلت : أو ليس يقول الله عز وجل " فسوف يحاسب حساباً يسيراً " قالت فقال: إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك . بخاري ١ / ص ٢١ .

٣) عن عدي بن حاتم قال لما نزلت " حتى يبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود" ٢/١٨٧ عهدت إلى عقال أسود والى عقال أبيض ، فجعلناهما تحت وسادتي ، فجعلت أنظر في الليل ، فلا يتبين لي فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار، بخاري١/ص٢٥٧.

فهذه ثلاثة أمثلة ذكرتها كي يعلم ، كيف نشأت شبهات في فهم الصحابة ودفع عنها الرسول صلى الله عليه وسلم ببيانه ، والآن أذكر أمثلة كيف تطرأ المشكلة للصحابة في فهم بعض تفصيلات القرآن .

١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا يا

رسول الله ! قال: فـــإنكم ترونـــه كذلـــك ــ بخـــاري ٢ صـــ١١٠٦ .

٢) عن مسروق قال: تلت عائشة هذه الآية " يوم تبـــدل الأرض غير الأرض " قالت يا رسول الله فأين يكون الناس ؟ قال على الصراط ترمذي٢ ص/١٤٠.

٣) عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رســـول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ! كيـــف يـــأتيك الوحي ؟ الخ بخاري١ ص/٢ .

وأذكر ثلاثة أمثلة كيف سأل الصحابة رض عن فروع المسائل:

١- عن ميمونة رض أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن فـــأرة سقطت في سمن ، فقال خذوها وما حولها فاطرحوه ــ بخاري ١ ص/٣٧ .

٢- وروي عن أم سلمة رض أنها قالت يا رسول الله ! إني امـــرأة أشد ضفر رأسي أفأنقضه لغسل الجنابة ؟ قال: لا إنما يكفيـــك أن تحثي على رأسك ثلاث حثيات ثم تفيضي علـــى ســـائر جسدك الماء فتطهرين ــ ترمذي١ ص/١٦ .

فعلم من تلك الأمثلة بأن العربية غير كافية لفهم معاني القرآن، وأن الصحابة مع ما كانوا من أهل العربية كثيرا ما يحتاجون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في فهم الدين، ويسألون أمورا لا يفهمونها ، فلذا قلنا إن القرآن مع كونه جامعا يحتاج إلى المعلم الذي يعلم معانيه ويوضح جامعيته ، وهو جامع على نظر الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا كما روي البخاري ١/ ص٣٧٦ قال (رجل) إن ابني كان عسيفا على هذا ، فزنى بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني مائة جلدة وتغريب عام وان علي امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله والوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، قال فغدا عليها واعترفت ، أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمها .

انظر إلى هذه الواقعة كيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، فلما قضى والحال أن الرجم والتغريب ليسا بمذكورين في القرآن ، يفهم منه أن قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم داخل تحت أصول الحدود في القرآن .

وكذا هو جامع على نظر الصحابة ، كما روي البخاري ج/٢ ص/٨٧٩ عن علقمة قال: لعن عبد الله الواشمات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله فقالت أم يعقوب ما هذا ؟ قال عبد الله ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي كتاب الله قالت والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته ، قال والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ٧/٥٩.

وكذا هو جامع على نظر الأئمة المجتهدين والمحدثين ، أما ترى كيف وضع الإمام البخاري كتبه وأبوابه على ألفاظ القرآن ، ثم يخرج تحته الأحاديث شرحا له ، وتارة يذكر في أول الكتاب آية من القرآن ويثبت به عنوان الكتاب ، ثم يذكر أبوابا مختلفة تحته ، كأنه يشير إلى

أن جميع الأبواب داخل تحت ذاك الكتاب ، وهذا يوضح جامعية القرآن .

كما قال الحافظ بن حزم : كل أبواب الفقه ليس منها باب الا وله اصل في القرآن نعلمه والحمد لله ، (الموافقات ج٣ ص٣٧١) وقال الإمام الشاطبي: تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي وحيث جاء جزئياً فأخذه على الكلية (الموافقات ج٣ ص٣٦٦) .

وأيضاً قال : القران فيه بيان كل شئ فالعالم به على التحقيق عالم بجملة الشريعة ولا يعوزه منها شئ (الموافقات٣ص٣٦٩)

وأيضاً قال : " ليس في السنة شئ الا وأصله في القرآن " فظهر من هذه النقول أن القرآن جامع لأحكام الإسلام كلياً ، حتى أن فيه إشارة لسائر العلوم العقلية والجديدة أيضاً ، كما قيل:

جميع العلم في القرآن لكن تقاصر عنه أفهام الرجال

والله أعلم .

الفائدة الحادية عشر :

في بيان جامعية أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم

لما بعث الله عز و جل رسولاً ليعلم الكتاب والحكمة فيكون أسوته أسوة كاملة جامعة ، لأنها في الحقيقة شرح القرآن ، فأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وحركاته كلها أسوة للأمة ، فما من شئ من أحوال الإنسان في حياة الفرد والمجتمع والسياسة والدولة والعبادة ، إلا له أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فالصحابة يتأسون في جميع حالاته أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم . فهنا أذكر أمثلة كما في البخاري ج١ص٢٢٢ عن نافع أن ابن عمر رض أراد الحج عام نزل الحجاج بابن الزبير فقيل له: أن الناس كائن بينهم قتال وأنا نخاف أن يصدوك فقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، إذن اصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكما روى البخاري ج١ص٢٣٢ عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت في عمرة و لم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته فقال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً و صلى خلف المقام ركعتين وطاف بين الصفا والمروة سبعاً ،

وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وقال الله تعالى: " لقد كـان لكم في رسول الله أسوة حسنة " (سورة أحزاب ٢١/٣٣) .

وأيضاً روى عن عائشة رضي الله عنها قالت كان خلقه القرآن .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم (بخـــاري٢ ص ١٠٨٠) .

الفائدة الثانية عشر : في بيان ربط السنة بالكتاب

اعلم أن القرآن هو الأصل الأول للتشريع الإسلامى، والحديث هو الأصل الثاني ، ويعبر عن الأول بالكتاب والثاني بالسنة ، وانزل الله تعالى هذا الشرع المتين بالكتاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يكون للناس حجة في فهم الكتاب وأخذ التأسي ، فقد قال الله تعالى في بيان فريضة الرسول صلى الله عليه وسلم : " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آيته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة" ١٦٤آل عمران . وأيضاً قال تعالى : " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" آل عمران ٦٤

وأيضاً قال : ثم إن علينا بيانه " وغير ذلك من الآيات التي يعلم منها ، بأن الله تعالى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين للناس معاني القران ومراد الله تعالى ويعلمهم ويزكيهم. فوظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوة الكتاب وتزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة. وليس معنى التعليم أن يكرر الألفاظ ويعاد مرة بعد مرة ، بل فيه دخل للمعلم ، فهو يوضح المبهم ويبين المجمل ، ويشرح المشكل ، ويفصل

المختصر ، ويكشف الخبايا، ويظهر النكات ، وغير ذلك الذي يحتاج في التعليم و إلا لا يفيد هذا .

وهاهو وعد الله تعالى ان علينا بيانه وقال تعالى أيضاً : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" فظهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يشرح القرآن ويفسره حسب ما يوحى إليه ولو كان غير متلو ، فالقرآن كما أنه وحي من الله تعلى كذلك بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً وحي من الله تعالى والفرق بينهما بأن القرآن كلام الله تعالى بعينه مخصوص بهذا النظم ويتضمن فيه معناه والحديث هو مراد الله تعالى غير مخصوص بالألفاظ بل معناه وحي من الله تعالى فكما أن الشرح وجيزاً كان أو بسيطاً يكون داخلا في ضمن المتن لا يخرج عنه ، فكذا جميع بيان الرسول صلى الله عليه وسلم داخل تحت القرآن . روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، أن كتاب الله أبهم هذا و أن السنة تفسر ذلك (جامع بيان العلم٢ ص١٩٢) .

وقال رجل عند مطرف بن شخير : لا تبين لنا سوى القرآن فقال " والله ما نريد بالقرآن بدلاً ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن (الموافقات ج٤ ص٢٦) .

معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أعلم بمعاني القرآن ، فنحن نحتاج إلى بيانه قطعاً ، بل لا نفهم الكتاب أصلاً بدون السنة والحديث ، كيف نعرف كيفية الصلاة والزكاة والحج وسائر العبادات، وكيف نعلم الإيمان والاعتقادات . وكيف نطمئن بأمور المعاش والدولة ، وغير ذلك من الفاظ القرآن بدون أسوة الرسول وبيانه . ولذا قال الإمام الأوزاعي : الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب (جامع بيان العلم ج٢ ص١٩) .

وقال أبو عمر وابن عبد البر في بيان مراد الإمام الأوزاعي : يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه ، وقال حسان بن عطية : كان الوحي يترل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبرائيل بالسنة التي تفسر ذلك ، وقال الإمام الشاطبي : لأن الكتاب يكون محتملاً لأمرين فأكثر ، فتأتي السنة يتعين أحدهما فيرجع إلى السنة ويترك مقتضى الكتاب ، ثم قال فمعنى كون السنة قاضية على الكتاب لا أنها مبينة له فلا يوقف على إجماله واحتماله وقد بينت المقصود منه " أنها مقدمة عليه " (الموافقات ج٤ ص١٠) .

مثاله إن القران بين فطع اليد للسارق ، ولكن ما بين في كم تقطع ، والى أين تقطع من اليد ، ومتى توجد السرقة ، فبقي فيه إجمال وإبهام ، فبينت السنة جميع نواحي ذلك ، حتى أمكن للناس إقامة الحد. كما تظهر من الأحاديث ، ولذا قال الإمام الشاطبي : "فكان السنة بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب " (الموافقات ٤ ص١٠) .

روي عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله كما في الميزان " لولا السنة ما فهم أحد منا القرآن " ، وعن الإمام الشافعي رحمه الله " جميع ما تقوله الأئمة شرح للسنة ، وجميع السنة شرح للقرآن" ، وسئل أحمد بن حنبل عن الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب فقال ما أجسر على هذا ، ولكني أقول أن السنة تفسر الكتاب (الموافقات) .

فعلم من هذه النقول والنقاط أن السنة له مكانة عظمية في فهم الكتاب ، لو لم يبعث الله تعالى رسولاً و لم يأت الرسول بالسنة ، لا يمكن لآحاد الناس فهم معاني القرآن وأحكامه ودرك مراد الله تعالى ، فظهر أن لهذه صلة وطيدة بالقرآن ، وربط شديد بالكتاب فههنا نذكر أمثلة لهذا المضمون والمسألة .

أما حل مشكلات القرآن في الأحاديث فمثاله قد مر من قبل وأذكر مثالاً آخر :

قال الله تعالى: " والذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم" ٩/٣٤ . فحزن الأصحاب وهم ولو كانوا غرباء فقراء ، ولكن بعضهم كان غنياً ، فبعد أن أدى الزكاة يبقى مال كثير ، فتردد هل هذا أيضاً يوجب العذاب ــ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أدى الزكاة فليس يكتر" ، وأيضاً قال: أن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم" ، فزال التردد واطمأنت قلوبهم ، كما روي البخاري١ صـ١٨٨ عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال أعرابي:

أخبرني عن قول الله : "والذين يكترون الذهب والفضة" قال ابن عمر: من كترها فلم يود زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تترل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال، فلو لم توجد هذه الأحاديث كيف يفهم مراد القرآن ؟

أما تفسير القرآن بالأحاديث فأمثلته كثيرة منها (١) قال الله تعالى : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا" ٩/١١٨

ففي هذه الآية من هم الثلاثة ؟ وما معنى التخلف ؟ والى أي قصة أشيرت ؟ فلتفسير هذه الأمور لابد أن يرجع إلى الأحاديث ، ففي هذه الاية إشارة إلى قصة تبوك ، والثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية .

فروى البخاري ج٢ص٦٣٦ ، قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا ، حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله "وعلى الثلاثة الذين خلفوا" ، وليس للذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، وانما هو تخليفه ايانا وارجاءه أمرنا عمن خلف له واعتذر إليه فقبل منه ، فلو لم ينظر أحد إلى هذه الواقعة وبيان الصحابة كيف يفهم تفسير هذه الآية ؟

(٢) قال الله تعالى: "فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم" ٥٩البقرة .

وفي آية أخرى "وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم" ٢/٥٨ فبدل الظالمون هذا القول وقالوا بدله غيره ، ولكن ما الذي قالوه بدل الذي قيل لهم ، لم يوجد في القران بيانه ، ففسره النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في البخاري ٢ص٦٤٣ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال: قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب ساجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حبة في شعرة ، فلو لم يفسر النبي صلى الله عليه وسلم هذا التفسير فلا سبيل لنا إلى فهمه .

(٣) قوله تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً ٢/١٤٣ ، ففي هذه الآية لم يبين كيف الشهادة ومتى تقع ؟

ففسرها النبي صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ٢ صـ ٦٤٥ عن أبي سعيد الخدري رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول لبيك و سعديك يا رب ، فيقول هل بلغت ؟ فيقول نعم ! فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير ، فيقول: من يشهد لك ، فيقول: محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فذلك قوله جل ذكره وكذلك جعلناكم أمة وسطاً الخ ، فلو لم يفسرها النبي صلى الله عليه وسلم لم يفهم معناها أحد .

أما بيان مجملات القران فهو ظاهر ، لأن القرآن ذكر الصلوات والصوم والزكاة والحج وغير ذلك من أحكام العبادات والمعاملات ولكن فيها تفاصيل قطعاً ، فالسنة تفسر ذلك . مثاله : قال الله تعالى:

" أقيموا الصلاة " ، ففيه أمر للصلاة فقط ، ولكن ليس فيه كيف افتتاح الصلاة وكيف رفع اليدين والى أين ترفع والى أي جهة تستقبل الأصابع و ترسل اليدين أو تضع واحدة على الآخر وغير ذلك من الكيفيات التي لم تبين في القرآن ، وكذلك قال تعالى "وآتوا الزكاة" وليس في القرآن تفصيل الأنصبة وفي أي مال تجب وبأي شرط تجب وغير ذلك من التفصيلات ، وقس على هذا جميع العبادات والمعاملات التي بينها القرآن مجملة غير مفصلة ، فلو لم تفسر السنة تلك المجملات لم يمكن لأي شخص كان ان يعمل بها ويفهم معانيها ، فبالحقيقة أن السنة شرح القرآن قطعاً كما قال الإمام الشاطبي أن السنة بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب .

الفائدة الثالثة عشرة :

في بيان صفات الرسول صلى الله عليه وسلم على ضوء القرآن.

(١) الرسول لا يكون رسولاً من كسب نفسه ولا من مشورة قومه ولا من الدعوى من سلطته ، بل يكون من اصطفاء الله تعالى وانتخابه ، وليس فيه دخل للناس مثل الرزق ، كما أن الرزق مقسوم بقسمته تعالى ، كذلك الرسالة والنبوة في قدرته تعالى ، كما قال تعالى: "أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم" ٤٣/٣٢. والى هذه النقطة أشار قوله تعالى " الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس" ٢٢/٧٥ .

(٢) ولما كان الرسول من اصطفائه تعالى فالله تعالى يعلم بأوصاف الرسول وصفاته التي لا بد منها في الرسول وإليه اشار قوله تعالى " الله أعلم حيث يجعل رسالته " ٦/٢٤ .

(٣) وإذا كان الاصطفاء من قدرته تعالى فنظام التعليم للرسول أيضاً يكون بقدرته الخاصة ، لا يتعلم من الناس واليه أشار قوله تعالى" اقرأ باسم ربك الذي خلق " ٩٦/١٠.

(٤) فقراءة الرسول من الله تعالى "لا ينسى إلا بمشيئته كما قال تعالى سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله " ٨٧/٦ .

(٥) ثم فهم معاني القرآن وبيانه على الله تعالى فهو يتكفل به كما قال تعالى " ثم إن علينا بيانه " .

(٦) فكما أن الله تعالى تكفل بتعليم الرسول كذلك تكفل بتربية الأخلاق للرسول أيضاً ، كما قال تعالى : " ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا" ٣١/١٨. وقوله تعالى : " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه" ١٨/٢٨ وقوله تعالى: "واخفض جناحك للمؤمنين" ١٥/٨٨.

وقوله تعالى : " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا " ١٥/٨٨.

وقوله تعالى: " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط" ١٧/٩. وغير ذلك من الآيات التي أشار فيها إلى تربية أخلاق

الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أعلن الله تعالى بقوله " إنك لعلى خلق عظيم "

(٧) كما أن الله تعالى يراعي تعليم الرسول وتربيته كذلك يراعي جسمه أيضاً فيعصمه كما قال الله تعالى " والله يعصمك من الناس" ٥/٦٧ .

فعلم بهذه الآية أن الرسول صار معصوماً من القتل والشهادة بأيدي الكفار .

(٨) إن الله تعالى يراعي عواطف قلب الرسول و ميلانه . كما قال تعالى: " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً " ١٧/٧٤. وتثبت منها عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٩) ولهذه العصمة ولأن يطمئن الناس على الرسول ، أعلن الله تعالى بعدم اتهام الكذب من الرسول كما قال تعالى "ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا عنه الوتين" ٦٩/٣٣ .

(١٠) ولهذه الرعاية الربانية والتعليم الرباني والعصمة يكون الرسول معصوماً عن الهوى والطغيان ، فما ينطق عن هوى قط واليه

أشار قوله تعالى " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" ٤/٥٣ .

(١١) ولهذه النقطة : فالذي يقضي الرسول في معاملات الناس ، فهو يكون من إراءة الله تعالى بالحق لا باتباع الهوى كما قال تعالى : " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " (نساء) ١٠٥/٤ .

(١٢) فلما ثبت من ما ذكرنا أن الرسول معصوم من الهوى والغي ، ويحكم بإراءة الله تعالى ويقضي ، والتعليم والتربية كله بقدرته تعالى ، فيلزم أن يكون الرسول أسوة لجميع الناس ونموذجاً للهداية ، واليه أشار قوله تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " (أحزاب) ٣٣/٢١ .

(١٣) لما بعث الله الرسول لإرشاد الناس وهدايتهم ، وهو أسوة لهم ، جعل في قلبه محبة الناس والأمة ، وهم يحبونه حتى يكون أقرب من أنفسهم ، واليه أشار قوله تعالى : " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم " وقوله تعالى " لعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " (الكهف) ١٨/٦.

وقوله تعالى " لعلك باخع نفسك ان لا يكونوا مؤمنين" (شعراء) ٢٦/٣. وقوله تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم" (توبة) ٩/١٢٨.

(١٤) فيجب على الأمة احترام الرسول حتى تكون أزواجه مثل أمهاهم كما قال تعالى: "وأزواجه أمهاهم" ٣٣/٦.

(١٥) لا يجوز لأحد أن يتقدم بالكلام بين يدي الرسول

كما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله " (حجرات) ٤٩/١ .

(١٦) ولا يجوز رفع الصوت والجهر بالقول بين يديه مخافة حبط الأعمال كما قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون " (حجرات) ٤٩/٢ .

(١٧) ولا يجوز الدعاء والنداء للرسول كآحاد من الناس كما قال تعالى : " لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً " (نور) ٢٤/٦٣.

(١٨) فالنداء من وراء الحجرات ليس من أمر العقل بل هو سخافة فلا يجوز هذا ، كما قال تعالى: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (حجرات) .

(١٩) البيعة على يد الرسول هي البيعة من الله تعالى كما قال تعالى : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" (الفتح) ٤٨/١٠ .

(٢٠) إطاعة الرسول إطاعة الله تعالى كما قال تعالى : "من يطع الرسول فقد أطاع الله" ٤/٨٠ .

(٢١) وعدم إطاعة الرسول وعدم امتثال أمره هو بالحقيقة الحرب من الله ورسوله ، كما قال تعالى: "فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " ٢/٢٧٩.

(٢٢) ولا خيار لأحد أن يرد قضاء الرسول ويقول فيه شيئا كما قال تعالى : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم (أحزاب) ٣٣/٣٦.

(٢٣) بل التسليم والقبول لحكم الرسول وقضائه فرض للأمة كما قال تعالى: " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر

بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما" (نساء) ٤/٦٥ .

(٢٤) لا يصح دعوى المحبة لله إلا باتباع الرسول ، فاتباعه ميزان المحبة لله كما قال تعالى : " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني" (آل عمران) .

(٢٥) جعل الله تعالى إطاعة الرسول علامة الإيمان كما قال تعالى : " أطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين " .

(٢٦) وكذا جعله علامة الهداية كما قال تعالى : " إن تطيعوه تهتدوا " (نور) ٢٤/٥٤ .

(٢٧) وكذا جعله علامة الفوز العظيم كما قال تعالى : " ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً " ٣٣/٧١ .

(٢٨) وكذا جعله سنداً لدخول الجنة كما قال تعالى : " من يطع الله ورسوله يدخله جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها " (نساء) ٤/١٣ .

(٢٩) وكذا جعله سبباً للرحمة كما قال: " وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون" (آل عمران) ٣/١٣٢ .

(٣٠) وجعل مخالفة أمر الرسول وعصيانه سبباً للفتنة والعذاب الأليم كما قال تعالى: فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (النور) ٢٤/٦٣ .

(٣١) وكذا جعله سبباً للضلال كما قال تعالى: " ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً " ٣٣/٣٦.

(٣٢) وكذا جعله علامة النفاق كما قال تعالى وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً " (نساء) ٤/٦١ .

(٣٣) وكذا جعله سبباً لدخول جهنم كما قال تعالى : " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولي ونصله جهنم وساءت مصيراً " (نساء) ٤/١١٥ .

(٣٤) الرسول لا يكون تابعاً لمجلس المشاورة بخلاف الناس كما قال تعالى فإذا عزمت فتوكل على الله والامام البخاري ترجم على هذه باباً مستقلاً يقول : باب قول الله وأمرهم شورى بينهم و شاورهم في الأمر وان الإشارة قبل العزم والتبيين لقوله "فإذا عزمت فتوكل على الله " فإذا عزم الرسول لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله .

(٣٥) وإذا وقع التنازع بين أولي الأمر من الأمراء والحكام أو من العلماء والمجتهدين فيجب حينئذ الرجوع إلى الله والرسول وهذا هو الفيصل كما قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً (نساء) ٤/٥٩ .

(٣٦) الغرض من بعثة الرسول إطاعة الناس إياه كما قال تعالى : " وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله " (نساء) ٤/٦٤ .

(٣٧) كما أن إطاعة الله مأمور مستقلاً كذلك إطاعة الرسول أيضاً مأمور من الله تعالى مستقلاً كما قال تعالى " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، هذا يشير بأن أحكام الشرع كما تثبت بالقرآن كذلك تثبت بأمر الرسول أيضاً .

(٣٨) إن الرسول يأمر أمته باتباعه كما يأمر باتباع الله تعالى ، كما قال الله " فاتقوا الله وأطيعوني"(شعراء) ٢٦/١٠٨. "واتقوه و أطيعون" ٧١/٣. وغير ذلك .

(٣٩) إن الله تعالى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ، حيث لا يحتاج إلى نبي آخر في أي وقت وفي أي مكان كما

قال تعالى : " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ٧/١٥٨" وقال تعالى : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون" ٣٤/٢٨ .

(٤٠) فهو خاتم النبيين بحيث لا يجئ بعده نبي ولا رسول ، ولا جرم أن ختم النبوة صفة لازمة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فمن ينكر ختم النبوة فهو خارج عن دائرة الإسلام كما قال تعالى : ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ٣٣/٤٠ .

(٤١) وبعثه تعالى شاهداً ومبشراً نذيراً وداعياً وسراجاً ومنيراً ورحمة للعالمين . كما قال تعالى : "يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً " ٣٣/٤٥ .

وغير ذلك من الآيات التي تبين شان الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته وهذه تدل صراحة على أن إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته واجب الإتباع ولها حيثية التشريع — وأن الحديث حجة شرعية تثبت منه الأحكام الشرعية مثل القرآن .

(٤٢) قال الله تعالى : وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة (نساء ٤/١١٣. وقال تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة (بقرة) ٢/٢٣١ . وغير ذلك من الآيات التي ذكر فيها لفظ حكمة ــ وهي ثمانية عشر آيات ــ يظهر من هذه الآيات أن الله تعالى أنزل مع القرآن شيئاً آخر الذي هو الحكمة ، فما معنى الحكمة ؟ ففيه أقوال ذكرها أهل اللغة والتفسير . فقال ابن دريد ــ فكل كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك من قبيح فهي حكمة (جمهرة اللغة ج٢ ص١٨٦) .

وقال في لسان العرب " والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ــ (١٥/٣٠) .

وقال الراغب : في مفردات القرآن ــ الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل (ص١٢٦) .

وقال ابن حبان الأندلوسي في التفسير بحر المحيط قال مالك وأبو رزين : الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى .

وقال مجاهد : الحكمة فهم القرآن .

وقال مقاتل : وهو العلم والعمل به .

وقال أبو جعفر: كل صواب من القول ورث فعلا صحيحا فهو حكمة . وقال الطبراني : في تفسيره قال مالك : الحكمة المعرفة بالدين والفقه في الدين والاتباع له ، وفال ابن زيد الحكمة الدين الذي لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم يعلمهم إياه ا . قال والحكمة العقل في الدين ، قال والحكمة شئ يجعله الله في القلب ينور له به ، وعن قتادة والحكمة أي السنة تم قال الطبري .

والصواب من القول عندنا في الحكمة أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم .وقال الإمام الشافعي في الرسالة ص٢٤ وسمعت من أرضي من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيضا قال فيه ص٢٨ وسنته الحكمة التي القى في روعه عن الله عز وجل .

فهذه الأقوال ترجع إلى السنة بالحقيقة وتلك الألفاظ اختلفت في التعبير والمعنى واحد . فعلم أن الله تعالى أنزل السنة كما أنزل القرآن ولو كان بينهما فرق بحسب النزول ــ فيجب اتباع حكمة النبي صلى الله عليه وسلم وهي أخباره وأحاديثه وهي حجة شرعية للأحكام .

لفائدة الرابعة عشرة : في فضائل الصحابة وعدالتهم

اختلف العلماءفي تعريف الصحابي ، قال البخاري: من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه ، وقال أحمد بن حنبل رح : كل من صحبه سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ما صحبه . وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر إليه (الكفاية) .

وقال ابن حزم : أما الصحابة فهو كل من جالس النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة ، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها ، أو شاهد منه عليه السلام أمرا يعيه ، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل نفاقهم واشتهر حتى ماتوا على ذلك، ولا مثل من نفاه عليه السلام باستحقاقه كحديث المخنث ومن جرى مجراه ، فمن كان كمن وصفنا أولا فهو صاحب (الإحكام في أصول الأحكام ص٨٦٦) .

وقال ابن الصلاح : وبلغنا عن أبي المظفر السمعاني المروزي أنه قال : أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه حديثا أو كلمة ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة ، وغير ذلك من أقوال العلماء ، وأولاها بالقبول ما قال ابن حجر العسقلاني في شرح النخبة والإصابة . فقد قال: واصح ما وقفت عليه

من ذلك أن الصاحبي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام ، فيدخل فيمن لقي من طالت مجالسته له أو قصرت ومن روى عنه أو لم يرو ومن غزا معه أو لم يغز ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه دون من لم يره كالعارض ، ويخرج بقيد الإيمان من لقيه كافراً ولو اسلم بعد ذلك إذا لم يجتمع به مرة أخرى ولو تخللت ردة في الأصح ، والصحابة كلهم عدول عند أهل السنة والجماعة ، ومن خالف هذه العقيدة فهو من المعتزلة أو الروافض والشيعة .

العدل لغة هو الذي لا يميل به الهوى فيجوز في الحكم ، والعدل من الناس لمرضى قوله وحكمه ، ورجل عدل رضي ومقنع في الشهادة (لسان العرب) .

وفي هذا المعنى نفسه استعملت كلمة العدل في كتاب الله قال تعالى : " واشهدوا ذوي عدل منكم" ٦٥/٢. قال الطبراني في تفسيره وهما اللذان يرضى دينهما وأمانتهما.

وقال تعالى : "ممن ترضون من الشهداء" ٢/٢٨٢. وفسره الطبراني يعني من العدول المرتضى دينهم وصلاحهم .

والعدالة في اصطلاح المحدثين : أن يكون الراوي مسلماً بالغاً سليماً من أسباب الفسق وخوارم المرؤة (تدريب الراوي ١٩٧) .

وسئل ابن المبارك عن العدل فقال من كان فيه خمس خصال يشهد الجماعة ولا يشرب هذا الشراب ولا تكون في دينه خربة ولا يكذب ولا يكون في عقله شئ (الكفاية ص ١٣٦) .

وقال الشيخ العلامة العثماني في مقدمة فتح الملهم شرح المسلم ، وقد فسر العدالة بأنها ملكة تمنع عن اقتراف الكبائر والإصرار على الصغائر ، وقال بعضهم هي ملكة تمنع عن اقتراف الكبائر وعن فعل صغيرة تشعر بالخسة كسرقة باقة بقل ، وقال بعضهم من كان الأغلب من أمره الطاعة والمروة قبلت شهادته وروايته ومن كان الأغلب من أمره المعصية وخلاف المروة ردت شهادته وروايته .

قال الغزالي في المستصفى : العدالة في الرواية والشهادة عبارة عن استقامة السيرة في الدين ويرجع حاصلها إلى هيئة راسخة في النفس ، تحمل على ملازمة التقوى والمروة جميعاً، حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه فلا ثقة بقول من لا يخاف تعالى خوفاً وازعاً عن الكذب ، ثم لا خلاف في أنه لا تشترط العصمة من جميع المعاصي ، ولا يكفي أيضاً اجتناب الكبائر بل من الصغائر ما يرويه كسرقة بصلة وتطنيف في حبة قصداً ، وبالجملة كل ما يدل على ركاكة دينه إلى حد يجترئ على الكذب للأغراض الدنيوية ، كيف وقد شرط في

العدالة التوقى عن بعض المباحات القادحة في المروة نحو الأكل في الطريق والبول في الشارع وصحبة الارذال والإفراط في المزاح .
وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : إذا كان الأغلب الطاعة فهو المعدل وإذا كان الأغلب المعصية فهو المجرح (الرسالة ص٤٩٣ والكفاية ص١٣٨) .

فجميع الأوصاف والصفات التي لا بد منها للعدالة موجود في أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه أتم وبدرجة أكمل ، فقد كانوا عدولاً مرضين عند الله وعند رسوله وعند المؤمنين ، ومظاهر لكمالات الرسول عليه السلام ومصاديق آيات الإيمان والهداية والتقوى على الأولية ، وبينات صادقات على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم اول المخاطبين و المؤمنين ، قد حملوا العلم والدين والهداية عن الرسول صلى الله عليه وسلم . فيجب أن يكونوا عدولاً .
فهنا نذكر الأدلة على عدالتهم من كتاب الله تعالى :

(١) قال تعالى : " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود " (فتح ٣٩) . أشير فيها إلى أمور منها أنه تعالى ذكر الصحابة أدلة على صدق رسوله

ومعرفته ، ومنها أنهم مظاهر للرسول صلى الله عليه وسلم حيث ذكر والذين معه فهذه المعية صفة ثمينة تشير إلى سراية كمالات الرسول عليه السلام إليهم .

ومنها أنهم كامل الإيمان أشداء على الأعداء والرحماء بين المؤمنين ، ففي جميع المشاجرات والاختلافات فيما بينهم لا يكون هذا من عداوة أو حسد أو بغض .

منها أنهم عاملين دائماً ليسوا كالمنافقين ، ومنها أنهم يبتغون رضوان الله تعالى في جميع حالاتهم وأفعالهم ، بحيث لا يكون مطمح نظرهم الا الله ، لا الدنيا والمال ، وأيضاً لا يكون عن الحسد والعداوة فهذه الأمور تنادي بصوت أعلى بأن الأصحاب عدول مرضيون عند الله .

(٢) والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه و أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ابداً ذلك الفوز العظيم (التوبة ١٠٠) .

ففي هذه الآية جعل الله تعالى رضوانه لجميع المهاجرين والأنصار ، الذين من السابقين الأولين من المؤمنين ، ولجميع من

اتبعوهم بالإحسان إلى يوم القيامة من المتأخرين ، فالصحابة كلهم مرضيون عند الله وعدول .

(٣) للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرن الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف الرحيم .(الحشر ٨-٩-١٠) .

ففي هذه الآيات قسم الله تعالى أمة حبيبه صلى الله عليه وسلم ثلاثة أصناف ، صنف المهاجرون الذين هاجروا ابتغاء رضوان الله تعالى ونصروا الله ورسوله ، فوصف الله لهم بأنهم هم الصادقون ــ وصنف الأنصار الذين جعلوا الدار والإيمان مبوأ ومبينا يحيطهم بجوانب بين بأنهم يحبون المهاجرين ويؤثرونهم على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وينصرون الله ورسوله ، وليس بهم شح الأنفس فيبذلون الأنفس والأموال في سبيل الله ، فأولئك هم المفلحون ، وصنف المؤمنون الذين

ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولكنهم صالحين وفي قلوبهم محبة للأولين ويستغفرون لهم ويدعون لأنفسهم بأن لا يجعل الله في قلوبهم غلا وبغضاً وعداوة لهم يبين بأن ربك عليهم رؤوف رحيم فيكونوا من الذين نالت الرافة والرحمة من ربهم بمحبتهم لإخوانهم من المهاجرين و الأنصار ــ أنظر كيف مدح الله تعالى المهاجرين والأنصار من الصحابة جعلهم صادقين مفلحين وجعل حبهم دليلاً الرافة والرحمة من ربهم فكيف لا يكون الصحابة عدولاً مرضيين عند الله تعالى .

(٤) لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (الفتح ١٨) .

أعلن الله تعالى في هذه الآية رضوانه لاصحاب بيعة الرضوان ويقول أنه يعلم ما في قلوبهم وهم مؤمنون فبهذه الشهادة تثبت عدالتهم صراحة .

(٥) لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم أنه بهم رؤوف رحيم (التوبة ١١٧) .

هذه الآية في غزوة تبوك في سنة ثمان من الهجرة وكان عدد الصحابة في هذه كثيراً كما قال كعب بن مالك : لا يجمعهم كتاب

حافظ يريد الديوان فما رجل يريد أن يتغيب الا ظن أن سيخفي لـه (البخاري) .

وفي كتب السير كان عدد الصحابة ثلاثون ألفا أو أربعون ألفاً. ففي هذه الآية مدح الله تعالى جميع الصحابة ونالت لهم الرأفة والرحمة فهذه شهادة بينة لعدالتهم كما لا يخفى.

(٦) فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا و أن تولوا فإنما هم في شقاق (البقرة ١٧٣) .

ففي هذه الآية جعل الله تعالى إيمان الصحابة ميزان للهداية فان لم يؤمن أحد مثل إيمان الصحابة فلن يقبل إيمانه بل هو في ضلال فثبتت منها العدالة صراحة .

(٧) ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً (النساء ١١٥) .

يقول الله تعالى بأنه من يتبع غير سبيل المؤمنين اعني سبيل الصحابة فهو من أهل الضلال والغواية ويصلى جهنم ويفعل هذا من يخالف الرسول ويشاققه فقط فهذا يدل على أن الصحابة عدول وميزان للهداية حقاً .

(٨) وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا انؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (البقرة ١٣).يقول الله

تعالى في حق المنافقين إذا قيل لهم آمنوا مثل إيمان الناس أي الصحابة أنكروا ذلك يظهر منه أن إيمان الصحابة ميزان صحيح للهداية والحق والإنكار منه نفاق فتثبت عدالة الصحابة قطعاً .

(٩) لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنة (الحديد١٠) .

يعلم منه بأن الصحابة الذين أنفقوا قبل فتح مكة وقاتلوا فهم أعظم درجة من الذين أنفقوا بعد وقاتلوا ومع ذلك يقول الله تعالى في حق كلهم وكلا وعد الله الحسنى ــ والحسنى هي الجنة باتفاق المفسرين فالصحابة كلهم من أهل الجنة وهم مرضيون عند الله تعالى فبهذه الشهادة القرآنية ظهرت عدالتهم بلا ريب .

(١٠) لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين (آل عمران ١٦٤) ففي هذه الآية الكريمة وفي أمثالها بين الله عزوجل فرائض الرسالة والنبوة بأن النبي صلى الله عليه وسلم يتلو على المؤمنين آياته تعالى كما أمر الله بتلاوته ولذا ترى سائر المؤمنين في العالم يتلون على نهج واحد لا على اللغة العادية فهذا يدل

بان الرسول صلى الله عليه وسلم علم التلاوة بالصحة والصحابة رضوان الله تعالى أخذوها حقاً كما أمروا وعلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم والى الآن بقيت التلاوة بتوسط علم التجويد والقراءة

فكما أن الصحابة في علم التجويد والقراءة ميزان صحيح فكذلك هم موازين للتزكية وتعليم الكتاب والحكمة ــ لأن التزكية والتعليم أيضاً من فرائض الرسالة وقد أدى الرسول صلى الله عليه وسلم فرائضه حق الأداء . فيلزم أن يتزكى الصحابة بتزكية الرسول صلى الله عليه وسلم كاملاً والا يلزم على الرسول صلى الله عليه وسلم النقص في آداء الفريضة فعلى ضوء هذه الآية تثبت تزكية الصحابة صراحة وبهذه تثبت العدالة قطعاً .

(١١) "وكلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس" ١٤٣/٢ ، ففي هذه الآية الكريمة خطاب للصحابة أولاً ولسائر المسلمين تبعاً ــ ويقول الله تعالى بأن الصحابة أمة وسط والوسط هو الذي يكون بين الإفراط والتفريط ويكون متوسطاً معتدلاً . وهذه صفة العدالة وأيضا قال أنهم شهداء والشهادة دليل العدالة فتثبت من هذه الآية عدالة الصحابة قطعاً .

(١٢) " كنتم خير أمة أخرجت للناس " ١١٠/٣ ،

لقب الله تعالى هذه الأمة بخير أمة وأول المخاطبين منهم هـم الصحابة فيكونون خير أمة ولا تثبت هذه الا بعد تسليم عدالتهم .

(١٣) ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان (حجرات ٧) خاطب الله تعالى فيها إلى الصحابة فلما حبب الله إليهم الإيمان وينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فيكونوا عدولاً قطعاً وهذه آية تنادي بصوت أعلى بعدالتهم .

(١٤) أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى (الحجرات ٣) . أشار الله تعالى إلى الصحابة بأنه تعالى امتحنهم للتقوى وهذه شهادة لهم على تقواهم فتثبت عدالتهم يقيناً لأن التقوى هو أصلها .

(١٥) والزمهم كلمة التقوى (الفتح ٢٦) لما الزم الله تعالى للصحابة التقوى فيكونوا عدولاً قطعاً إذ ملازمة التقوى وهي معنى العدالة .

(١٦) الذين أمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله أولئك هم الفائزون (البراءة ٢٠)

ذكر الله تعالى في هذه الآية بأن المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين في سبيل الله لهم اعظم درجة وهم الفائزون عند الله ،

فهي تشير إلى عدالتهم والا كيف يكونوا فائزين .

(١٧) لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرة وأولئك هم المفلحون (براءة ٨٨) وفي هذه الآية ذكرهم الله تعالى بأنهم هم المفلحون ، وذكر الله الفلاح للرسول وللصحابة معاً ، فتثبت العدالة والا يلزم أن ينكر عدالة الرسول أيضا .

(١٨) ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (أنبياء) قال ابن حزم هذه الآية نزلت في شان الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين وهم مبعدون عن النار وكتب لهم الحسنى في علم الله السابق فلما ذكر فيها ان الصحابة مبعدون عن النار فلزمت عدالتهم والا لم يكونوا مبعدين .

(١٩) يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، (أنفال ٦٤) يعلم من هذه الآية بأن الله تعالى يكفي للنبي ولمن يتبعه من المؤمنين للهداية والنجاة فلا يضلون قطعاً ، وهذه إشارة إلى معنى العدالة وأول المصاديق هم الصحابة ، فيكونون عدولاً .

(٢٠) "اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم "

ذكر في هذه الآية بان الصراط المستقيم هو صراط المنعمين الذين هم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وذكر مع النبيين ثلاثة أصناف من الأمة والصحابة هم أول مصاديقها فصراطهم هو الصراط المستقيم وقد أمر الله باتباع هذا الصراط فلو لم يكن الصحابة عدولا فكيف يكون طريقهم وصراطهم صراطاً مستقيماً .

اما من الأحاديث فهي كثيرة لأن الأحاديث في مناقب الصحابة جماعة أو واحدا فواحداً كلها يدل على فضائلهم وشرفهم عند الله ورسوله وهو يدل على عدالتهم فأذكر ههنا نبذة منها :

(١) عن أبي سعيد الخدري رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو ان أحدكم انفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصفه ترمذي ٢/٢٢٦ بخاري ١/٥١٨ .

(٢) عن عبد الله بن مغفل رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي فمن احبهم فبحبي احبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن أذاهم فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله ومن أذى الله يوشك أن يأخذه (ترمذي ٢/٢٢٦) .

(٣) عن بريدة رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أحد من أصحابي يموت بارض الله بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة (ترمذي ٢/٢٢٧) .

(٤) عن ابن عمر رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فقولوا لعنة الله على شركم (ترمذي ٢/٢٢٧) .

(٥) عن عبد الله بن مسعود رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس قرني ثم الذين يلوهم ثم الذين يلوهم (ترمذي ٢/٢٢٦ بخاري ١/٥١٥) .

(٦) عن جابر بن عبد الله رض يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا تمس النار مسلما رآني أو رأى من رآني (ترمذي ٢/٢٢٦) .

(٧) عن أنس بن مالك رض قال قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله انا نسب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً . فضائل الصحابة لإمام أحمد ١/٥٣.

(٨) عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفظني في أصحابي كنت له يوم القيامة حافظاً من سب أصحابي فعليه لعنة الله . (فضائل الصحابة ١/٥٤) .

(٩) عن ابن عمر رض يقول لا تسبوا أصحاب محمد لمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره (فضائل الصحابة ١/٥٧) وفي رواية خير من عبادة أحدكم أربعين سنة (٦١/١٢) .

(١٠) عن أبي موسى رض قال قال النجوم آمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم اتى السماء ما توعد ، وانا امنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى اصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي اتى أمتي ما يوعدون ـ (مسلم ٢/٣٠٨) .

(١١) عن الحسن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أصحابي في الناس كمثل الملح في الطعام وفي رواية قال الحسن وهل يطيب الطعام الا بالملح (فضائل الصحابة ١/٥٨).

(١٢) عن ابن عباس رض قال لا تسبوا أصحاب محمد فان الله عز وجل قد أمر بالاستغفار لهم وهو يعلم انهم سيقتلون (٥٩/فضائل الصحابة) .

(١٣) عن ميمون بن مهران قال ثلاث ارفضوهن سب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والنظر في النجوم والنظر في القدر (فضائل الصحابة ١/٦٠)

(١٤) عن ابن مسعود رض قال من كان مستنا فليستن بمن قد مات فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة ابرها قلوباً وأعمقها علماً واقلها تكلفاً اختارهم الله لصحبة نبيه ولاقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم رواه رزين .

(١٥) عن ابن عباس رض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مهما أو تيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحدكم في تركه فان لم يكن في كتاب الله فسنة مني ماضية فان لم يكن سنة مني ماضية فما قال أصحابي ان أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأيها أخذتم به اهتديتم واختلاف أصحابي لكم رحمة (مقدمة إصابة والكفاية) .

(١٦) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت ربي فيما اختلف فيه أصحابي من بعدي فأوحى الله إلى يا محمد أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشئ مما هم عليه من اختلافهم فهو عندي على هدى .(مقدمة إصابة)

(١٧) وحديث الإمام الشافعي بسنده إلى أنس بن مالك رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله اختارني واختار أصحابي فجعلهم أصهاري وجعلهم أنصاري وأنه سيجئ في آخر الزمان قوم ينتقصونهم الا فلا تناكحوهم الا فلا تنكحوا إليهم الا فلا تصلوا معهم الا فلا تصلوا عليهم حلت اللعنة . (مقدمة إصابة) .

(١٨) قال الإمام أبو زرعة إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه زنديق لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق والقرآن حق وانما ادى الينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله وانما يريدون ان يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة (الكفاية للخطيب البغدادي) .

(١٩) عن عويم بن ساعدة مرفوعاً ان الله اختارني واختار لي أصحابي وجعل لي فيهم وزراء وأنصاراً واصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً (أخرجه الطبراني والحاكم كذا في المرقاة ١١/٢٧٤) .

قال الإمام النووي : اعلم ان سب الصحابة حرام من أكبر الفواحش ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ، وقال بعض المالكية بقتل وقال القاضي عياض سب أحدهم من الكبائر .

وفي المرقاة وأصحابه كلهم عدول مطلقاً بظواهر الكتاب والسنة واجماع من يعتد به وأيضاً قال وأما معاوية فهو من العدول الفضلاء والصحابة الأخيار والحروب التي جرت بينهم كانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها وكلهم متاولون في حروبها ولم يخرج أحد منهم من العدالة لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل كما اختلف المجتهدون بعدهم في مسائل ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم ــ مرقاة ١١/٣٧٣ .

قال ابن عابدين في رسائله ١/٣٥٢ ان افضل الأمة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين نصروه وبذلوا مهجهم في مرضاته

وليس من مؤمن ولا مؤمنة الا ولهم في عنقه أعظم منة فيجب علينا تعظيمهم واحترامهم ويحرم سبهم والطعن فيهم ونسكت عما جرى بينهم من الحروب فانه كان عن اجتهاد هذا كله مذهب أهل الحق وهم أهل السنة والجماعة وهم الصحابة و التابعون و المجتهدون ومن خرج عن هذا الطريق فهو ضال أو مبتدع أو كافر .

وقال الخطيب والأخبار في هذا المعنى تتسع وكلها مطابقة لما في نص القرآن وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له إلى أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شئ مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأقوال وقتل الأبلء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم والاعتقاد لتراهتهم وانهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجتنبون من بعدهم أبد الآبدين (الكفاية ص ٤٩) .

وقال الحافظ ابن كثير الصحابة كلهم عدول عند أهل السنة والجماعة وقول المعتزلة الصحابة عدول الا من قاتل علياً قول باطل مرذول ومردود (الباعث اكثيث) .

الفائدة الخامسة عشرة :

في تحقيق المعجزات والآيات البينات :

لما كان محمد صلي الله عليه وسلم بعث رسولا إلي جميع الثقلين ، جنهم وانسهم عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ، كان من نعمة الله علي عباده ومن تمام حجته علي خلقه أن تكون آيات نبوته وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذين بعثه إليهم .

ومن عادة الله تعالي كلما يبعث نبيا أو رسولا يعطي معه آيات بينات التي تدل علي صدق نبوته ورسالته ، فالآيات والبراهين الدالة علي نبوة محمد صلي الله عليه وسلم كثيرة متنوعة ، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء عليهم السلام ، ويسميها من الناس معجزات ، وتسمي أيضاً دلائل النبوة وأعلام النبوة .

ولكن إذا سميت تلك بآيات الأنبياء كانت أدل علي المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات ، موجودا في الكتاب ، وإنما فيه لفظ الآية والبينات والبرهان كما قال تعالي في قصة موسى عليه السلام : فذانك برهانان من ربك ٢٨/٣٢ ، أي

صا وليد ، وقال تعالي في حق محمد صلي الله عليه وسلم: يا أيـــها
اس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا" ٤/١٧٤.
وأما لفظ الآيات فكثيرة في القران كقوله تعالي: ولقد أتينـــا
رسى تسع آيات تينات ١٠١/١٧. وقوله تعالي: هذه ناقة الله لكـــم
ة ٧/٧٣ ، قوله تعالي: ما تأتيهم من أية من الآيات ربهم إلا كـــانوا
نها معرضين ٦/٤ ، وغير ذلك من آيات التي ذكر فيـــها لفـــظ
برهان والبينة و الآية ، وكلها تدل علي صداقة النبوة والرسالة ،
وهذه الألفاظ أدل علي المقصود من لفظ المعجزات ، لأن لفظ
معجزة يدل علي أنه أعجز غيره ، كما قال تعالي وما هم بمعجزيـــن
٢٩/٥ ، وقال تعالي وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في الســـماء
٢٩/٢ ، وهذا اللفظ لا يدل علي كون ذلك أية ودليلا .
ولهذا كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزا إلا ما كـــان
لأنبياء فقط ، وما كان من الأولياء أن ثبت لهم خرق عادة سماهـا
كرامة ، والسلف كالإمام أحمد وغيره كانوا يسمون هذا معجـــزة
يقولون لخوارق الأولياء أيضاً أنها معجزات ، لأنه لم يكن في اللفـــظ
ا يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك ، بخلاف ما كان أية وبرهانـــا
على نبوة النبي فان هذا يجب اختصاصه .

وبالجملة لفظ المعجزة ضيق النطاق لأنه يطلق في عامـــ النظر بأنه أمر خارق للعادة يأتي به النبي المرسل من عند الله تعـالى ويتحدى به الناس أن يأتوا بمثله فيعجز ون عن ذلك ، فيكون هـذ دليلا علي أنه مرسل من عند الله حقا ، وليس هذا بدعوى كاذبة من عند نفسه .

فههنا من أهم المباحث بيان حقيقة المعجزات، لأن فيها خـرق العادة ونظام الفطرة وفي هذا الأمر اختلاف بين الحكماء والفلاسـفة وبين الإسلاميين ، ففرقة من الحكماء والفلاسفة ينكرون خرق العـادة ، لأنهم يقولون بأن نظام العالم مشدود بسلسلة العلل والأسباب مـن حيث الفطرة ، ولا يمكن هنا خلافه ، ولا يجوز نسخ نظام الفطـرة ، ولا يمكن أن يقع فيها تغير وتبديل .

ويقول الحكماء الإسلاميون مثل الفارابي وابن سـينا وابـن مسكوية وغيرهم بأنه لا يصدر أي شئ من الأشياء في العالم إلا بعلـة عادية أو بسبب طبعي ، ولا تتبدل وتتغير في سلسلة العلل والأسباب ، وأن المعجزات التي تكون خرق العادة ظاهراً إنما تكون هـي بنظـام طبعي وبسلسلة العلل والأسباب ، ولكن لا نعلم عللها و أسـبابها إلى الان .

ويقول المعتزلة بانا نعترف ان في العالم سلسلة العلل و الأسباب موجودة ولكن لا نسلم بأنه لا يمكن خرقها ، بل يمكن أن يخرق هـذا النظام المشاهد بعلة أخرى خفية التي لا نعلمها .

ويقول الاشاعرة بانا لا نقر هذا النظام الفطري مؤثراً بـالذات بل كل شئ يصدر ويظهر في العالم انما هو بخلق الله تعالى وإيجـاده ، وهذه العقيدة يسخر بها الفلاسفة والحكماء العقليـون ، وينكـرون الخوارق والمعجزات ، لعدم إمكان الخرق عندهم ، لكـن الحكمـاء الإسـلاميين يقولـون بـأن خـرق العـادة ممكـن بأسـباب ، ويستدلون بوجوه :

الأول : التأثيرات الفلكية: أن الحكماء اتفقوا بان التأثـيرات في تغيرات العالم إنما هي من تأثير حركات الأفلاك ودورانهم ، ولا نعلـم حدها وغايتها ، فيمكن أن يقع الخرق في نظام العـالم مـن تلـك التأثيرات .

والثاني : العلة الخفية: ان جميع الحوادث والتغيرات انمـا تقـع بسبب طبعي وعلة طبعية ، ولا يجب علينا أن نعلم جميعها و لا تحليلها ففي العالم ألوف من التغيرات لا نعلم أسرارها وحقائقها ولا أسبابها ، فيمكن أن يكون الخرق في نظام العالم بتلك الأسباب الخفية .

الثالث : القوة الكمالية: أن الإنسان خلق مختلف الطبائع فمنه
بليد وفطين جبان وشجاع ضعيف وقوي ، وهكذا في جميع الكمالات
الإنسانية ، فلا يبعدان تكون قوي بعض الخلق كاملة قوية توثر
نظام الخلق ، فتتصرف تصرفات غريبة ، بحيث تكون هي خرق العادة
في نظر عامة الناس .

الرابع : القوة النفسية: أن كل إنسان يحرك حركة بإرادة
النفس لها ، فكان قوة النفس تتسلط على سائر أعضاء الإنسان ، فلا
غرو بأن تكون القوي النفسانية لبعض الإنسان أقوى ، حتى تتصرف
في الأشياء ، وتخرق العادة العامة .

الخامس : التأثيرات النفسانية: انا نشاهد دائما بأن التأثيرات
النفسانية تؤثر في بدن الإنسان والجسم المادي ، مثلا رأى شيئاً مهيبا
بالليل وخاف منه خوفاً شديداً فتأثر في البدن حتى صار محموما
ومغشياً عليه ، فلا يبعد أن تكون لبعض الإنسان نفوس قد سيئة تؤثر
به على الأجسام المادية وتقع فيها التغيرات العجيبة ، وهذا كما يقال
اليوم التنويم المقناطسي أي هفتانزم أو مسمر يزم ، فالمعتزلة و الأشاعرة
كلهم يعترفون خرق العادة ، ولكن يختلفون بحسب النظرية بأن المعتزلة

قائلون بتأثير الأشياء بالعلة والسبب ، والأشاعرة لا يقولون به بل كل هذه بخلق الله تعالى فصارت عادة كذلك .

وفي هذا كلام جيد لعلامة العصر الشاه أنور الكشميري يقول: هل في الأشياء خواص مؤثرة أم لا ففيه مذاهب :

الأول : مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري : وهو أنه لا علاقة بين الأشياء وآثارها إلا بجري العادة الإلهية بخلق بعضها عقيب بعض ، كالإحراق عقيب مماسة النار ، فلا دخل للنار حقيقة في الإحراق ، فله أن يخلق الإحراق من غير نار وأن يخلق ناراً من غير أن تحرق .

والثاني : مذهب المعتزلة: وهو القول بالتوليد بأن خلق الأشياء وفيها خواص مؤثرة تتولد هذه من تلك الأشياء وجوباً من غير أن هناك دخل لقدرة الله في تأثيرها .

والثالث : مذهب الحكماء والفلاسفة : وهو القول بالإعداد بأن صدور الآثار من القابل باتمام الاستعداد من المبدأ الفياض ، فإذا تم الاستعداد حصل عقيب ذلك الاثار وجوباً عقلياً لا يمكن أن تتخلف عنه .

والرابع : مذهب أبي المنصور الماتريدي واتباعه: وهو القول بخلق التأثير في الأشياء بأن في الأشياء خواص مؤثرة مستندة إلى قدرة

الله تعالى وخلقه إياها ، ومع هذا يقدر أن يجردها عنها متى شاء ، وهذا المذهب هو الذي تخضع لها العقول السليمة وعليها تضافرت الأدلة السمعية، قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام أحيي الموتى بإذن الله ٣/٤٩ ، فنسب الأحياء إلى نفسه وعقبه بقوله "بإذن الله" إشارة إلى عدم استقلال قدرته في الخلق والاحياء ، ويمكن أن يأول قول الأشعرية بأن ذلك في عالم التقدير فوق عالم التكوين ، اقول بهذ التأويل صار قول الماتريدية و الأشعرية متحدة قولاً واحداً ، ويقال هو قول الاشاعرة كما بينا فيما سبق وظهر من التحقيق الأنيق بأن خرق العادة عند الأشاعرة ممكن بتًّا ومستند إلى قدرة الله تعالى وخلقه لا يمكن إنكاره .

فمن أنكر المعجزة من الحكماء الماديين انما انكرها لأنهم ينكرون وجود الصانع القادر المختار ، ولا يقولون إلا بسلسلة العلل والأسباب والخواص الطبعية والفطرية ، وأما حكماء الإسلام ولو أنهم يقرون المعجزة لكنهم تقلدوا في هذا أرسطو ، ولذا خبطوا خبط عشواء وتحيروا ، واختلفوا في الكلام .

وفي الحقيقة إن العلم بالعلل والأسباب والخواص والتأثرات . انما تثبت للإنسان بعد التجربة مرة بعد مرة ، وهذا لا يورث العلم

القطعي اليقيني ، بل يمكن أن تتخلف عن ذلك عقلاً ، فـــلا وجـــه لانكار المعجزات عقلاً ، ولكن نستبعد ذلك لعدم التجربة والمشـــاهدة كذلك ، ثم العلم بالتجربة يثبت بالشهادة والرواية والتاريخ ، فكثـــيراً ما نعتقد أمورا بالتاريخ والرواية وما جربنا مرة واحـــــدة، فكذلـــك المعجزات تثبت بالتاريخ والروايات الثابتة ، فلا وجه لانكار وقـــوع المعجزات على هذا الأصل .

ثم المعجزات دليل النبوة أم لا ففيه ايضاً اختلاف : فالمعتزلـــة يقولون بالنفي ، قال ابن رشد في كشف الأدلة: بأن المعجزة ليســـت دليل النبوة لأن المناسبة بين الدعوى والدليل لازمة ولا مناسبة بينهما ، والأشاعرة يقولون أنها دليل النبوة ، ويجيبون عما قال المعتزلة ، بـــأن النبوة جامعة لكمال العلمي والعملي ، وبالمعجزة يظهر هذا الكمال .

ثم من أي قسم الأدلة ففيه كلام قال ابن رشـــد في كشـــف الأدلة: أن المعجزة دليل من قسم الخطابيات ، معناه أن المعجزة لا تدل بالذات على النبوة ولكن إذا رأى احد تصرفات النبي في الكائنـــات ، يعتقد كماليته ويصدق دعواه ، وهذا يكفي في الخطابيـــات ، وقـــال البعض: أنها دليل من قسم الجدليات الـــتي تســـتدل علـــى الخصـــم بالمسلمات ، ولما ثبت بالتواريخ بأن ما جاء نبي ولا رسول إلا وقـــد

جاء بالخوارق والمعجزات ، فمن يدعي النبوة والرسالة يطالب منه تلك المعجزات ، فلما رأى احد معجزاته يتيقن بنبوته ورسالته ، فهذا دليل جدلي .

والمعتزلة ينكرون كونها دليلاً للنبوة ، وفي الأصل لا خلاف بينهم ، لأن الأشاعرة لا يقولون بالدليل المنطقي حتى يقال بعدم المناسبة بين الدليل والدعوي ، بل يقولون انها دليل دلالة عادية كما قال في شرح المواقف ، وهذه الدلالة ليست دلالة عقلية محضة كدلالة الفعل على وجود الفاعل ، ودلالة اتقانه على كون الفاعل عالماً بما صدر عنه ، فإن الأدلة العقلية ترتبط نفسها بمدلولاتها ، ولا يجوز تقديرها بأنها غير دالة عليها .

وليست المعجزة كذلك بل هي دلالة عادية ، كما أشار اليه بقوله وهي عندنا أي الأشاعرة أجرى الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيبه أي عقيب ظهور المعجزات ، وفي شرح العقائد النسفية : وعند ظهور المعجزة يحصل الجزم بصدقه بطريق جري العادة ، بأن الله تعالى يخلق العلم بالصدق عقيب ظهور المعجزة ، وإن كان عدم خلق العلم ممكناً في نفسه ، فعلم أن الجزم واليقين يحصل بعد ظهور المعجزات من النبي صلى الله عليه وسلم عادة .

لأن طرق تحصيل الجزم واليقين مختلفة :

(١) منها ما يحصل من البراهين المنطقية .

(٢) ومنها ما يحصل بالمسلمات .

(٣) ومنها ما يحصل بالخطابيات .

(٤) ومنها ما يحصل بالدلالة العادية .

(٥) ومنها ما يحصل بالرواية المعتبرة .

(٦) ومنها ما يحصل بصفة في نفس الرأي والمشاهد ، فمن هذه الطرق يمكن تحصيل الجزم واليقين .

وفي المعجزات عند ظهورها يحصل اليقين بطرق أربعة أخيرة ، لمن كان له قلب أو نظرة سليمة وقد يقرر في هذه المسألة ، بأن في العالم نظامان : نظام الفطرة ونظام القدرة ، فالعلل والأسباب التي نشاهدها وجربناها مرة بعد مرة سميناها نظام الفطرة بحيث لا تتبدل ولا تتغير بل تدوم على نهج واحد ونمط واحد ، وفوق ذلك نظام القدرة الذي من الله تعالى يجري على كل خلق على طور نظام الفطرة ، وتارة توثر على خلاف الفطرة تحت القدرة بنفسها .

فالخوارق والمعجزات كلها تحت نظام القدرة الإلهية ولا يمكن انكار هذا ، وأما الحكماء الماديون فانهم لما ينكرون الصانع القدير

المختار ، ينكرون نظام القدرة ، ولذا ينكرون الخوارق ، وأما الإسلاميون فلا يرون البعد فيه فافترقوا فعندهم لا يمكن التبديل وعند الإسلاميين يمكن فكلهم قالوا على أصولهم .

ويقول العبد الضعيف في تقرير هذا: بأن المعجزات أيضاً تحت عادة الله الخاصة ونظام العالم تحت العادة العامة ، فكون المعجزات خوارق بمعنى أنها خوارق للعادة العامة ، ولكنها جارية تحت العادة الخاصة ، لأن من عادة الله تعالى أنه إذا بعث نبياً ورسولاً يظهر على يده أموراً تحت قدرته تعالى بحيث يعلم الناس بأن النبي صادق في دعواه ، وهو نبي من الله تعالى ، ولذا أظهر الله على يديه ما يعجز الناس ظاهراً ، وهذا أيضا من العادة الإلهية ولكنها خاصة بالأنبياء والرسل ، فلذا يقال ان الخوارق في الحقيقة ليس بخوارق للعادة الخاصة ، بل هي مطابقة جارية لها وأما هي خوارق فهي للعادة العامة .

وقد يقال بان الخوارق هي آيات النبوة ، وأن الفطرة هي آيات الألوهية ، وفي الحقيقة أن آيات النبوة هي آيات الألوهية أيضا ، والفرق بينهما بأن آيات الألوهية تظهر في العالم بدون توسط النبي والرسول ، بل على قدرة الله تعالى بنفسها ، وأن آيات النبوة تظهر بتوسط النبي والرسول ، ولذا لا دخل للنبي والرسول في ظهور

الخوارق ، بل كلها تحت قدرة الله تعالى كما قال تعالى : "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " ٨/١٧ وقال:" قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم " ٢١/٦٩ وقال تعالى : وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني" ٥/١١٠ وغيرها من الآيات التي تدل على أن آيات النبوة ليست مستقلة ، بل هي صورة أخرى لظهور آيات الألوهية ، فإنكار المعجزات هي إنكار قدرة الله تعالى .

قال الإمام القرطبي قي مقدمة تفسيره في بيان شرائط المعجزات يقول :

الشرط الأول : أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه .

والثاني : هو أن تخرق العادة فمن قال آيتي مجيء الليل بعد النهار ، وإن كان لا يقدر عليه إلا الله تعالى لكنها ليست خارقة .

والثالث : أن يستشهد بها مدعى الرسالة على الله عز وجل . فيقول أيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتاً أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي .

الرابع : هو أن تقع على دعوى التحدي بها المستشهد بكونها معجزة له فلو نطقت الدابة كذب انه فليس بنبي .

الخامس : أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة .

وقال حكيم الأمة الشيخ اشرف علي التهانوي في البوادر والنوادر ج٢ ص٣٨٣ المعجزة هي التي لا دخل في صدورها لأسباب طبعية جلية كانت أو خفية ، ولا لقوة صاحب المعجزات ، ولا لقوة خارجية ، وهي تقع بمشية الله تعالى فقط بلا واسطة اسباب عادية ، كما يصدر الصادر الأول من غير واسطة عند الفلاسفة ، ثم لا يمكن تحليل أسباب الطبعيات للمعجزات لأنه إذا تكشف وتحلل أسبابها الخفية في زمان آخر يلزم منه تكذيب النبوة ، فإذن لا يحصل اليقين لنبوة الأنبياء وهذا كما ترى .

ولهذا ما اظهر أحد من أهل زمانه شبهات ببيان اسباب المعجزات الخفية ، ولا قاوم أحد صاحب المعجزات بإظهار مثلها ، ولو كانت قوة النبي سبباً للمعجزة إذن لا يخاف موسى عليه السلام عن معجزته ، ولا يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على طلب المعجزات من الكفار فان استطعت ان تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ، وعلى احتمال استناد الأسباب الخفية لا يكون فرق بين المعجزات وبين العجائب الطبعية ، وما قيل أن أخلاق النبي وكمالاته مع المعجزات دليل للنبوة فح إمكان الغلط في معرفة جهة تلك الأخلاق يكون اكثر من معرفة حقيقة المعجزة " ،

يظهر من هذا الكلام أن المعجزة لا تكون إضافية بل تكـــون دائماً ، فما قال بعضهم بأن أخلاق الرسول وكمالاته معجزة حقيقــة وأن المعجزات الحسية معجزة سطحية ليس بصواب ، إذ معرفة معجزة الأخلاق والكمالات نظرية لا يعرفها كل أحد

ويقول حجة الإسلام مولانا قاسم النانوتوي في كتابه "حجــة الإسلام" بأن المعجزة من ثمرات النبوة ، و ليست من مدارها تعطـــي للنبي بعد اعطاء النبوة ، بالجملة أن المعجزة أمر ممكن عقلاً وقعت على يد النبي ، فلا يمكن إنكاره وإلى ههنا بينا بعض الأمر علــــى أصـــول الحكمة القديمة .

وأما في العصر الراهن فتحيرت الفلسفة الجديدة أيضاً ، فإمكان المعجزات ووقوعها وجزمها ودوامها فأمر مبحوث عنه أن الفلســـفي هيوم فإنه كتب كتاباً " الفهم الانساني " وحرر تحت باب المعجـــزات أوراقًا أنكر فيها امكانها ووقوعها ، ويقول أن المعجزة اســـم لخـــرق قوانين الفطرة ، ولما كانت هذه القوانين مستحكمة ومجربة . فـللمعجزة مردودة من نفسها ، لأن التجربة أثبتت قوانين الفطرة بحيث لا يمكـــن خلافها، فخرقها مردود ومحال بأنفسها .

حاصله : ان الفلسفي هيوم استحال التغير والتبدل لقوانين الفطرة ، ونظام العالم كله مشدود بحبل الفطرة ، ولا يمكن انتقاضه ولكن الأستاذ "هكسلي" الذي هو فلسفي وحكيم ومعترف للفلسفي هيوم ، يقول أن في كلام هيوم تناقضاً، والذي قال في تعريف المعجز يعني خرق قوانين الفطرة فهو غلط ، لأن حقيقة المعجزة استعجاب الوقائع أشد الإستعجاب لا خرق قوانين الفطرة ، إذ قوانين الفطرة تثبت بالتجربة ، والإنسان لا يحيط جميع حالات الكائنات وخواصها .

فلو كان علم الإنسان محيطاً لسائر حالات الفطرة لجازان يقول بأن خرق قوانين الفطرة محال وغير ممكن ، ولكن ليس كذلك ، بل الفلسفة الجديدة أوجدت أشياء وأموراً في الطبعيات التي تثبت خرق قوانين الفطرة ، كما يقول الأستاذ " مادرن بليف " والأستاذ "برنغتن" وهم ينكرون وجوب قوانين الفطرة ، بل يقولون أنها قوانين العادة معناه أنها كانت العادة ، كذلك ولكن يمكن خلافها ، فهم يعترفون وقوع المعجزات وإمكانها .

وهكذا في علم النفسيات أيضاً ، كما في هفنا تزم يعني التنويم المقناطسي قد أثبت الأستاذ " وليم جيمس " محقق النفسيات واقعات عجيبة ، يقول : أن عامل التنويم يؤثر في معموله حين يعمل ، ويتيقن

بذلك المعمول أيضاً ، حتى يقع شئ بأمر العامل ما لا يمكن في العادة العامة ، وتارة يؤثر في المعمول بحيث يرى الكرسي أسداً والمكناسة امرأة حسنة ، وغير ذلك من الخوارق والعجائب .

ويقول الدكتور " البرت مول " والفلسفي " البرمين " بأن توجيه حقيقة المعجزات يسهل فهمها من توجيه التنويم ، فإن هذا يقارب الفهم ، والاستاذ " جيمس " جمع من نوع هذا التنويم والخوارق دفتراً عظيماً من واقعات الأنبياء والأولياء والخواص والعوام ، وأثبت من هذه كلها وقوع المستبعدات ظاهراً ، فلما تثبت الخوارق مع غاية الاستبعاد بالشهادات الخارجية ، فلا مانع عن حصول اليقين بعد ذلك عادة .

ولذا نقول أن اليقين بعد ظهور الخوارق يحصل قطعاً لمن رآه أو علمه ، وفي هذا كلام طويل ودقيق فمن شاء التفصيل فليراجع إلى المطولات .

وأما الآيات والدلائل لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكثيرة متنوعة فمن يخصص بنوع واحد فقد غلط ، بل هي أنواع كثيرة ، فقال الحافظ ابن تيمية في الجواب الصحيح الآيات نوعان : منها ما مضى وصار معلوماً بالخبر كمعجزات موسى عليه السلام .

ومنها : ما هو باق إلى اليوم كالقرآن الذي هو من اعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالعلم والإيمان فإنه من اعلام نبوته ، وكشريعته التي أتى بها ، فإنها أيضاً من إعلام نبوته وكالآيات يظهرها الله تعالى وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين ووقوع ما أخبر بوقوعه وغير ذلك ، بالجملة قسم الأيات بنوعين ، الآيات الماضية والآيات الباقية .

وقال مولانا السيد سليمان الندوى في سيرة النبي ص١٣١ ج٣ الآيات والدلائل قسمان ، قسم ظاهري ومادي ، وقسم باطني وروحاني فالآيات المادية هي التي يسموها معجزات ، عموما سطحية ، والآيات الباطنية والروحانية التي هي صفات النبي من صدقه وعصمه اوتعليمه وإرشاده وغير ذلك هي في الحقيقة دليل النبوة ، فهي أحق أن تسمى معجزات حقيقة .

وقال الحافظ ابن كثير في تاريخ البداية والنهاية : أن المعجزات قسمان حسية ومعنوية والمعنوية ليست هي معجزات حقيقة ، فقط بل حسية أيضا ، وهذه في غاية الأهمية ، ولذا ذكر الحافظ ابن كثير كلاماً طويلا في بيانها ، وتري في القران أيضا بأنها ذكرت

المعجزات الحسية مع بيان كل نبي ، فقول القائل بان المعجزة الحسية هي سطية ليس بسديد .

وقال حجة الإسلام مولانا قاسم النانوتوي : المعجزات قسمان علمية ، وعملية ، فالعلوم والكمالات النبوية هي معجزات علميه وأما الخوارق الظاهرة التي صدرت من يد النبي صلي الله عليه وسلم فهي معجزات عملية ، أقول كل هذه التقسيمات متقارب المعني والألفاظ مختلفة كما هو الظاهر عند الناظر الغاير .

وأما المعجزات من جهة خرق العادة أقسام :

منها الواقعة نفسها خارقة العادة ، مثل كون العصاحية وانشقاق القمر وأحياء الموتى وغيرها ، منها الواقعة ولو لم تكن نفسها خارقة ولكن صدورها في وقت خاص يكون خارقا ، مثل الطوفان والزلزلة والريح الحمراء وغيرها ، ومنها لم تكن نفس الواقعة خارقة و لم تكن صدورها خارقا بل تكون خارقة بحسب طور ظهورها ، مثلا نزول المطر ببركة دعاء النبي وشفاء الأمراض ودفع المصائب وغيرها ببركة دعاء النبي صلي الله عقيه والسلام ومنها لم تكن الواقعة خارقة ولا كيفية صدورها ، بل كونها معلومات قبل وقتها للنبي صلي الله عليه والسلام خارقا مثلا الاخبار بالمستقبل وغيره .

ففي كل هذه الأقسام تصدر المعجزات بإرادة الله ومشيته تعالي فقط لا بالعلل والأسباب ، لأن فيها جهة خاصة للخرق ، التي ليست بالعلل والأسباب ، وكذلك المعجزات بحسب النتائج والإفادات للكفار قسمان أية الهداية وآية الهلاك ، فالكفار اراهم الله تعالي أية الهدى ودعاهم إلي الإسلام والهداية فالذين فيهم صلاح يقبلون دعوة الإسلام والهداية والذين ليس لهم صلاح لا يقبلون الهداية فيترل عليهم آيات العذاب والهلاك ، فأراهم أية الهداية من الأنواع شي في زمان إقامته عليه السلام بمكة قبل الهجرة ، ولكنه أذوه والمؤمنين كثيرا ، ثم أمر الله تعالى بالهجرة فهاجر مع الصحابة ، فترلت عليهم أيات الهلاك فتواترت ومن ذلك غزوة بدر وغيرها .

وأما المعجزات من حيث إفادتها وتأثيرها للمؤمنين فهي أيضا قسمان ، علمية التي تفيد العلم واليقين فقط كالعصا ، ويعبر عنها بالآية والحجة والبرهان ، وعملية التي تفيد الناس ظاهرا مع إفادة اليقين ، وتسمي بالنصر والتائيد الإلهي ، ففي قسم الأول يحتاج إلي طلبها ، وليس كذلك في الثاني .

بالجملة حياة النبي صلي الله عليه وسلم مجموعة معجزات وآيات بينات ، فإحصاء معجزاتها وأياتها لا يقدر عليه أحد ، ولكن بعض

علماء عددها من بعض نواحيها ، قال البيهقي معجزات النبي صلـــي الله عليه وسلم تبلغ إلي ألف وقال النووي تزيد علي ألف ومـــأتين ، وقال البيهقي تبلغ إلي ثلاثة ألاف هكذا ذكره في فتـــح البـــاري ، وذكر الحافظ السيوطي في خصائص الكبرى نحوا من ألف معجزات ، حتى القران الكريم الذي عدده الناس معجزة واحدة ، ولكن عد فيـه معجزات كثيرة .

قال الحافظ ابن تيميه: إن الآيات المستفادة بالقران الكريم قـــد تجرد لها طوائف من المسلمين ، ذكروا من أنواعها وصفاها مــا هـــو مبسوط في غير هذا المواضع ، حتى بينوا أن ما في القران من الآيـــات يزيد علي عشرة آلاف من الآيات ، وأيضا قال أيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول صلي الله عليه وسلم وقبل مولده وبعد مماتـــه ، لا تختص بحياته فضلاً عن أن تختص بحال دعـــوى نبوتـــة أو حـــال التحدي كما ظنه بعض أهل الكلام وأيضا قال : ومحمد النبي صلي الله عليه وسلم جعلت له الآيات البينات قبل مبعثه أو حين مبعثـــه وفي حياته وبعد موته إلي يوم القيامة ، فآياته صلي الله عليه وســـلم قـــد استوعبت جميع الآيات الفعلية والخبرية ولا تحد ولا تحصى فـــهاهنا نذكر نبذة منها: منها القران الكريم وهو كلام الله تعالي وفيه الدعـــوة

والحجة فله اختصاص علي غيره ، كما في ما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن علي مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا إلي يوم القيامة .

وقد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم علماً متواتراً ، أنه الذي اتى بهذا القرآن وتواترت بذلك الأخبار اعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم ، وهو القرآن تحدي بنفسه بالمعارضة ، كما قال فليأتوا بحديث مثل إن كانوا صلدقين ، تم تحداهم بعشر سور مثله كما قال تعالى " قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، ثم تحداهم بسورة واحدة ، كما قال تعالى " قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين

فتحدى بهذه الآيات أن يأتوا بمثل القرآن ثم بعشر سور ثم بسورة واحدة ، وهذا التحدي كان بمكة ، ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة بقوله تعالى " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين " ، وهذا التحدي قد عم جميع الخلق معجزاً لهم قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا

كلهم لا يأتون بمثله ، وقد سمعه كل من سمع من القرآن وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ومن حين بعث والى اليوم .

وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال هذا الدعوى ، مجتهدين بكل طريق ممكن ، ومعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها ، بل يقولون أنه مجنون ، وتارة يقولون إنه ساحر ، وتارة يقولون إنه كاهن ، وتارة يقولون إنه شاعر ، وكل هذه الأقاويل افتراء عليه ، وهذا القدر يوجب علما بينا لكل أحد عن جميع أهل الأرض أنه يعجز عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة أو بغير حيلة ، وهذا ابلغ من الآيات التي يكرر جنسها كاحياء الموتى ، فان هذا لم يأت بنظيره .

وكون القرآن معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة أخباره بالغيب فقط ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ والنظم ، ومن جهة البلاغة والفصاحة في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أمر بها ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى

واسمائه وصفاته وملائكته ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ، ومن جهة ما أخبر بها عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والاقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة وغير ذلك .

وتفصيله أن نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليبه الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فانه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الرسائل ولا الخطابة ونظمه ليس من كلام الناس عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل يعرفه من له نظر وتدبر ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله تعالى وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر نبي ولا غير نبي وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وآدم وغير ذلك .

ونفس ما أمر به القرآن من الدين والشرائع كذلك ، ونفس ما أخبر به من الأمثال وبينة من الدلائل هو أيضاً كذلك ، ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء

تفاوتاً عظيماً ، ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه وبين سائر الفاظ العرب ونظمهم .

فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه وجميع عقلاء بني آدم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الاتيان بمثله .

واعلم في هذا المقام نقطة بأن كل نبي يأتي بمعجزة من جنس ما اشتهر به قومه ليكون التحري في الصميم ويكون تأثيرها اسمى في نفوس من تترل عليهم فقد كان المصريون بارعين في السحر وكانت كهنة المعابد الفرعونية متخصصين فيه يستخدمونه ليبهروا به أعين الناس ، ومن ثم يستعبدوهم للفرعون للآلهة المزعومة التي يقوم أولئك الكهنة أو السحرة .

ولذلك أرسل الله تعالى موسى عليه السلام بمعجزة من جنس ما اشتهر به اولئك السحرة يبطل سحرهم ، و يتبدي الفرق بين صنع الناس وصنع الله تعالى ، كما ذكر في سورة الأعراف آيات كثيرة في هذا الموضوع ، ولقد كان السحرة أدرى الناس بحقيقة السحر وحدوده ، ولذلك صاروا أول من تبين لهم الحقيقة ، وأن موسى ما

١٥

يصنعه فهو ليس بسحر، إنما هو شئ فوق طاقة البشر ، فلذلك خروا ساجدين اعترافاً بالآية التي تثبت أن موسى رسول من عند الله تعالى .

وكذلك أرسل عيسى عليه السلام في قوم برعوا في الطب ، وكانوا يأتون فيه بما يبهر عين الناس فناسب ان تكون المعجزة التي يرسل بها عيسى عليه السلام خارقة في نفس الميدان الذي برع فيه هؤلاء ليتبينوا هم أولاً ، ويتبين الناس من وراءهم ، أن المعجزة شيء آخر غير ما يصنعون هم ، فلا بد أن يكون آتياً من مصدر غير بشري أي من عند الله ، فكان من معجزاته معهم إبراء الأكمه والأبرص بغير دواء ولا علاج ، وهو أمر يخالف صنع البشر ، ثم زاد على ذلك في نفس الاتجاه معجزة إحياء الموتى ، فهم قد يعالجون المرضى بأي وسيلة فيتحقق الشفاء على أيديهم ، أما إحياء الموتى فلا يقدر عليه إلا الله ، أو إنسان مرسل من عند الله بالمعجزة .

ولقد أرسل الله تعالى الرسول المعظم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب ، وهم أهل فصاحة وبيان ، يتباهون بفصاحتهم بها على الأمم ، حتى يسمون غيرهم عجما ، أي ان لسانهم غير مبين ، فهم أشبه بالعجماوات التي لا تنطق ، ولذلك ناسب أن تكون معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم معجزة بيانية من نوع ما برعوا فيه ،

ولكن على مستوى يدركون هم أنفسهم وهم أهل الصنعة ، أنها فوق مستوى البشر ، ويقرون بأنها لا بد أن تكون من عند الله .

ثم كانت معجزات الرسل كلهم من قبل معجزات حسية وكونية ، متعلقة بالسنن الجارية في الكون وتخرقها ، فمعجزة نوح عليه السلام طوفان مدمر يغرق المكذبين ، وينجو منه المؤمنون ، ومعجزة هود عليه السلام ريح صرصر عاتية تهلك المكذبين ، وينجو منها المؤمنون ، ومعجزة صالح عليه السلام الناقة المرسلة آية لهم ، فلما عقر قومه الناقة جاءتهم زلزلة عظيمة قتلتهم في ديارهم ونجا هو ومن معه من المؤمنين ومعجزة لوط عليه السلام نار نزلت من السماء فأهلكت القوم الفاسقين ، ونجا منها لوط والذين معه ، وكذلك معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التي اشرنا غليها انفاً أشياء خارقة للسنن الكونية .

وأما معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فهي معجزة عقلية معنوية جامعة ، وليست معجزة حسية وكونية فقط ، كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر وغيرها لكن المعجزة الكبرى التي وقع بها التحدي ، والتي بقيت على الزمن وخوطبت به البشرية كلها هي

القرآن الكريم ، ولذا اختص القرآن بالحفظ وعدم التحريف دون الكتب السابقة كلها .

ومنها : سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته أي أخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته كل ذلك من آياته ، وكذا أمته ودينهم وكرامات صالح أمته من آياته وذلك يظهر عن تدبر سيرته من حين ولد إلى ان بعث ومنه إلى ان مات وتدبر نسبه وبلده واصله وفضله ، فانه كان من أشرف الأرض نسباً من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله ذريته النبوة والكتاب .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ولم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن كفر به أو آمن به بعد النبوة ولا يعرف له شئ يعاب لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرت عليه كذبه قط ولا ظلم ولا فاحشة وكان خلقه وصورته من أكمل الصورة وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على إكماله وكان من قوم أميين ولم يقرأ شيئا من علوم الناس ولا جالس أهلها إلى أن أكمل الله له أربعين سنة فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم

يكن في بلده وقومه من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده ولا في مصر من الأمصار ولا في عصر من الإعصار ولا من ظهر كظهوره ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعته أكمل من شريعته ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره .

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ويخبرهم بما يحرم عليهم الخبائث ويشرع الشريعة شيئا بعد شئ حتى أكمل الله دينه الذي بعث به وجاءت شريعته اكمل شريعة وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخير عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه وأخبر بأشياء طيب في هذا الكتب .

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع .

وكذا أمته أكمل الأمم في كل قضية ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم وأن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكارة في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً

وأشجع قلوباً فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوه عن نبيهم ومعلوم ان كل كمال في الفرع المتعلم فهو من الأصل المعلم وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله انى رسول الله إليكم جميعاً ولم يكن كاذباً مفترياً .

ومنها : ومن آياته اخباره عن الغيب الماضي والحاضر والمستقبل بأمور باهرة التي لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله فضلاً عن غير النبيين ففي القرآن من اخباره عن الغيوب كثيرة كما قال تعالى : الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين " ٣٠/١-٤ وكان كما أخبر .

وقال تعالى

لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله " ١٧/٨٨ وكان كما أخبر وقال تعالى خطاباً لليهود قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ٢/٩٤. فكان كما أخبر ما تمنى اليهود الموت أبداً وقال تعالى تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ١١١/١ . فكان كما أخبر مات ابو لهب كافراً .

ابو لهب كافراً . وهكذا آيات كثيرة في القرآن وكذلك في الأحاديث مما أخبر بوقوعه فكان كما أخبر فكثير لا يسعها المقام فليراجع إليها.

ومنها : آياته صلى الله عليه وسلم المعلقة بالقدرة والفعل والتاثير أنواع كما في العالم العلوي من انشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب ومعراجه إلى السماء فقد ذكر الله تعالى انشقاق القمر وبين ان الله تعالى فعله واخبر به لحكمتين عظيمتين احداهما كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية فاراهم انشقاق القمر والثانية أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات .

وكذلك ليلة المعراج إلى فوق السماوات وهذا مما تواترت به الأحاديث وأخبر به القرآن اخبر بسراه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وبيت المقدس وفي موضع آخر بصعوده إلى السماوات وفي واقعة المعراج كثير من الآيات والمعجزات كما هي مذكورة في الأحاديث الصحاح والحسان وغيرها مفصلة وكل ذلك من آيات النبوة .

ومنها: الآيات في الجو، كاستسقائه صلى الله عليه وسلم واستصحائه وطاعة السحاب في حصوله وذهابه بدعائه ونزول المطر بدعائه كما هي مذكورة في الأحاديث .

ومنها : آياته من البركة فوق العادة في الماء والطعام والثمار وفيها أيضاً كثير من الوقائع مذكورة في الأحاديث .

ومنها : آياته من تأثيره في الأحجار وتصرفه فيها وتسخيرها له كما روي اثبت أحد فإن عليك نبي وصديق وشهيدان وأيضاً قال إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث أني لأعرفه الآن وهكذا كثيرة في الأحاديث .

ومنها : تأييد الله له بملائكته كما في بدر واحد .

ومنها : كفاية الله أعداءه وعصمته له من الناس .

ومنها آيات في اجابة دعوته فمنها ما تكون اجابته معتادة كالأغنياء والعافية ومنها ما يكون المدعوبه من خوارق العادات كتكثير الطعام والشراب كثرة خارجة عن العادة واطعام النخل مرتين في العلم الواحد ورد بصر الذي عمي ونحو ذلك ومعلوم أن من عوده الله إجابة دعائه لا يكون إلا من صلاحه ودينه ومن ادعى النبوة لا يكون إلا من أبر الناس إن كان صادقاً أو من أفجرهم إن كان كاذباً و إذا عوده الله

إجابة دعائه لم يكن إلا براً و إذا لم يكن مع دعوى النبوة إلا براً تعين أن يكون نبياً صادقاً فهذا يمتنع أن يتعمد النبي الكذب ومن نوع هذه الآية وقائع كثيرة مذكورة في الأحاديث .

ومنها : آياته التي تتعلق بالأخبار عن اشراط الساعة خاصة بظهور الإمام المهدي ونزول سيدنا عيسى عليه السلام وخروج الدجال الأكبر كما وردت تلك الأخبار عي الأحاديث .

ومنها : آياته التي تتعلق بالمغيبات في الآخرة بالأخبار عن الجنة والنار والحشر والنشر والحساب والميزان وغيرها .

ومنها آياته التي تتعلق قبل مولده وحين مولده وبعده وقبل بعثه من الواقعات والعجائب التي هي مذكورة في كتب السير والأحاديث.

قال الشيخ ولي الله في حجة الله البالغة : ذكره إبراهيم عليه السلام في دعائه وبشر بفخامة أمره وبشر به موسى وعيسى عليهما السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم ورأت أمه كان نوراً خرج منها فأضاء الأرض فعبرت بوجود ولد مبارك يظهر دينه شرقاً وغرباً وهتفت الجن وأخبرت الكهان والمنجمون بوجوده وعلو أمره ودلت الواقعات الجوية كانكسار شرفات كسرى على شرفه وأحاطت به دلائل النبوة كما أخبر هرقل قيصر الروم ورأو آثار البركة عند مولده

وارضاعه . وظهرت الملائكة فشقت عن قلبه فملأته إيماناً وحكمةً و لم يكن الشق عن القلب أهلاكاً وقد بقي منه اثر المخيط ولما خرج به أبو طالب إلى الشام فرآه الراهب شهد بنبوته لآيات رآها فيه ولما شب ظهرت مناسبة الملائكة بالهتف به والتمثل له ، وغير ذلك من أمور كثيرة التي تعد معجزات وآيات للنبوة .

وأما طرق معرفة الآيات بحيث تفيد العلم فكثيرة :

فمنها : ما هو في القرآن فهو يفيد العلم بنص القاطع .

ومنها : ما هو ثابت بالتواتر العام بحيث يعلم العامة والخاصة كنبع الماء من أصابعه وتكثير الطعام وحنين الجذع ونحو ذلك فإن كلاً من ذلك تواترت به الأخبار واستفاضت ونقلته الأمة جيلاً بعد جيل وخلفاً من سلف فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها ينقلها اكثر ممن ينقل كثيراً من القرآن وذلك ان آيات الرسول كان كثيراً منها يكون بمشهد عظيم من الخلق فيشاهدون تلك الآيات .

كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمس مائة نبع الماء بين أصابعه وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لما نزحوها وكما شاهد أهل خيبر وهم ألف وخمس مائة الطعام الذي كان كربضة الشاة فأشبع

الجيش كلهم وكما شاهد الجيش العظيم وهم نحو ثلاثين ألفاً في تبوك العين لما كانت قليلة الماء فكثر ماءها وهكذا في كثير من الآيات التي شاهدوها جم غفير من الصحابة وتواترت بينهم واتفقت نقلتها فالآيات التي كان حالها هكذا فهي تفيد العلم قطعاً .

ومنها: ما هو ثابت بالتواتر الخاص بحيث أنها متواترة عند أهل العلم بالسير وأخبار الناس والتواريخ وظهور هذه الأيات التي هي دلائل النبوة وأعلامها مشهورة بين الأمة عامتها وخاصتها فهي أحق أن تسمي متواترة من هذه الجهة ونقلة هذه الأيات خاصة أهل العلم وكتب الحديث والتفسير والمغازي والسير أي المعتبرات التي توجد فيها هذه الأخبار صح نقلا باتفاق أهل العلم والعقل .

فأهل العلم بحديث النبي صلي الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله وسيرته وأسباب نزول القران وغير ذلك لهم بهذا من العلم وعندهم به من اليقين مالا يوجد عند غيرهم كما أن الأطباء عندهم من كلام بقراط وجالينوس ومحمد ابن زكريا وأمثالهم ما يقطعون به وغير هم لا يعلمون ذلك وكما أن أهل الهيئة عندهم من كلام بطليموس وثابت ابن قرة وغيرهم ما يعلمونه وغيرهم لا يعلمون ذلك وأهل العلم بالنحو يعلمون حال سيبويه والأخفش والمبرد والزجاج والفراء

والكسائي ما لا يعلمه غير هم وكذلك القراء يعلمون من قـــراءة أبي عمرو وابن كثير وحمزة والكسائ وابن عامر مالا يعلمه غيرهم فـــإذا كان أحاد أهل العلم من أهل الطب والهيئة والنحو والقـــراء ة يعلـــم الخاصة بأمورهم مالا يعلمه عيرهم ويقطعون بذلك فكيف بمن هو عند أتباعه أعلي قدرا من كل عالم وارفع منزلة من كل ملك حـــتى قـــد ضنفوا الكتب الكثيرة في هذه الأخبار وذكرا فيها أحوال نقلتها فذلك يفيد العلم عندهم يقينا .

ومنها ما هو ثابت بالتواتر المعنوي وهذا مما اتفق علي معرفته عامـــة طوائف فأن الناس قد يسمون أخبارا متفرقـــة بحكايـــات يشـــترك مجموعها في أمر واحد كما سمعوا أخبارا متفرقة تتضمن شجاعة عـــترة وخالد ابن الوليد وأمثالهما وتتضمن سخاء حاتم ومعن بـــن زائـــدة وأمثالهما وتتضمن شعر امرؤ القيس والنابغة ولبيد وأمثـــالهم وهكـــذا فيحصل بمجموع الأخبار علم ضرري بان الشخص موصوف بذلـــك النعت وإن كان كلهم من أخبار لو تجرد وحده لم يفد العلم وان كان كل من الحكايات ليست منقولة بالتواتر هكذا كثير من الآيات الـــتي كانت تجرى علي يدي النبي صلي الله عليه وســـلم مـــن الخـــوارق والعجائب مالا تعرف عن أحد من الناس ولو كانت كلها وحدهـــا

أخبار حاد ولكن يحصل بمجموعها العلم الضروري بأنها ثابتة من النبي صلي الله عليه وسلم .

ومنها ما هو ثابت بتواتر الاستفاضة وهكذا مما تكون بمحضر من الخلق الكثيرة كتكثير الطعام يوم الخندق ونبع الماء من بين أصابعه يوم الحديبية وتكثيرا الماء والطعام يوم الخيبر وغيرها وكان بعض من حضر هذه المشاهد ينقل هذه الأيات قدام أخرين فيذهب أولئك فيخبرون بها ويصدق بعضهم بعضا ويحكي هذا مثل ما يحكي هذا واتفقوا علي الإقرار علي ذلك من غير إنكار حد منهم علم قطعا أن القوم كانوا متفقين علي نقل هذا كما متفقون علي نقل هذا القران والشريعة المتواتر فهذا أيضا يفيد العلم اليقيني .

ومنها ما ثبت بالأخبار والاحاد رواه العدد واليسير ولم يشتهر اشتهار التواتر والاستفاضة ولكن إذا يسبر علي ميزان الصحة والضعف علي طور أصول الجرح والتعديل وأصول دراية الحديث يعلم منه ما هو صحيح وما هو ضعيف وما هو موضوع وأكاذيب وقد صنفت كتب كثيرة في ذكر الأيات والمعجزات مثل كتاب دلائل النبوة للفقيه الحافظ أبي بكر البيهقي وقبله دلائل النبوة لأبي نعيم الاصبهاني وقبله دلائل النبوة لأبي السيخ الاصبهاني ولأبي القاسم

الطبري وقبلهما دلائل النبوة لأبي زرعة الرازى ولأبي بكر عبد الله ابن أبي الدنيا ولأبي إسحاق الحربي و لأبي جعفر الفريابي وما صنفه الشيخ ابن الجوزي المسمى بالوفا في فضائل المصطفي والحافظ أبو عبـــد الله المقدسي في دلائل النبوة وهؤلاء وعيرهم من المتـــأخرين أيضـــا مـــا يذكرون بالأسانيد المعروفة والطرق المتعددة ومنهم مـــن يميـــز بـــين الصحيح و الضعيف والموضوع والأكاذيب وأما الأحاديث الضعـــاف فهي مقبولة في بيان المعجزات وفضائل الأعمال عند علماء المحققـــين والموضوعات والأكاذيب فكلها مردودة .

قال الملا علي القاري : قال السيوطي وأطبق علماء الحديـــث علي أنه لا يحل رواية الموضوع في أي معني كان إلا مقرونـــا ببيـــان وضعه بخلاف الضعيف فإنه يجوز روايته في غير الأحكام والعقائد قـــلل وممن جزم بذلك النووى وابن جماعة والطيبي والبيهقي والعراقي ،

وقال عمرو ابن الصلاح يجوز عند أهل الحديـــث وغـــيرهم التساهل في أسانيد وروايته ما سوى الموضوع من أنواع الأحـــاديث الضعيفة ، من غير اهتمام ببيان ضعفها فيمـــا ســـوي صفـــات الله وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما كـــالمواعظ والقصـــص

وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب وسائر مالا تعلق له بالأحكام والعقائد

وقال الحافظ ابن كثير وهذا سياق حسن عليه البهاء والنور وسيماء والصدق وإن كان في رجاله من هو متكلم فيه بالجملة أن الأيات والدلائل علي نبوة محمد صلي الله عليه وسلم قد استوعبت جميع أنواع الأيات الفعلية والخبرية والكونية الحسية العلمية المعنوية ، في الجو والكواكب والأرض والسماء وفي الحيوانات والجمادات والأشجار والنباتات والموتي والأحياء في الأخبار عن الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل وقبل مولده وقبل بعثه وبعد بعثه وفي حياته وبعد مماته وتعرف كل ذلك بالتواترات والأخبار الآحاد بحيث من كان عنده عقل سليم وهو خال عن العناد والأعراض لا مجال له أن ينكر صدق النبوة وجزمها وهو يعلم أنه صادق في دعوى النبوة بجريان عادة الله تعالي .

.أما الفرق بين المعجزات وسائر الخوارق

الفرق بين المعجزة وما سوى ذلك من الكرامات والسحر والمعونة والإرهاص والإهانة حسب ما يلي ، قال في شرح المقاصد : السحر أمر خارق للعادة في نفس شريرة خبيثة بمباشرة

أعمال مخصوصة يري فيها التعلم والتلمذ وبهذين الاعتبارين تفارق المعجزة والكرامة وبأنه لا يكون بحسب اقتراح المعترضين وبأنه يختص بالأزمنة والأمكنة والشرائط وبأنه يتصدى لمعارضته ويبذل الجهد في الإتيان بمثله وبأنه صاحبه ربما يتعلق بالفسق ويتصف بالرجس في الظاهر والباطن و الخذي في الدنيا والآخرة إلي غير ذلك من وجوه مفارقة .

وقال في الفتاوى الحديثية : وأما الفرق بين الكرامة والسحر فهو أن الخارق الغير المقترن بتحدي النبوة ان ظهر علي يد صالح وهو القائم بحقوق الله تعالي وحقوق خلقه فهو الكرامة أو علي يد من ليس كذلك فهو السحر والاستدراج قال إمام الحرمين وليس ذلك مقتضى العقل ولكنه متلقي من إجماع العلماء وتمييز الصالح المذكور من غيره بين لإخفاء فيه إذ ليست السيماء كالسيماء ولا الاداب كالآداب وغير الصالح لو لبس ما عسى أن يلبس لا بد أن يرشح من نتن فعله أو قوله ما يميزه عن الصالح ومن ثمة ناظر صوفي برهميا وللبرهمية قوة تظهر لهم خوارق لمزيد الرياضات فطار البرهمي في الجو فارتفعت إليه نعل وتضرب رأسه وتصفعه حتى وقع على الأرض منكسا على رأسه بين يدي الشيخ والناس ينظرون .

وفي " الزواجر عن اقتران الكبائر" ثم السحر على أقسام :
القسم الأول : سحر عبدة الكواكب وهم ثلاث فرق الأولى الذين يزعمون أن الأفلاك والكواكب واجبة الوجود لذواتها وانها غنية عن موجد ومدبر وهي المدبرة لعالم الكون والفساد وهم الصابئية الدهرية .

والثانية : القائلون بهيئة الأفلاك زاعمون أنها هي المؤثرة للحوادث باستدارتها وتحركها فعبدوها وعظموها واتخذوا لكل واحد منها هيكلاً مخصوصاً وصنماً معيناً واشتغلوا بخدمتها وهذا دين عبدة الأصنام والأوثان .

والثالثة : أثبتوا لهذه النجوم والأفلاك فاعلاً مختاراً أوجدها بعد العلوم إلا أنه تعالى أعطاها قوة غالية نافذة في هذا العالم وفوض تدبيره إليها .

القسم الثاني : سحر أصحاب أهل الأوهام والنفوس القوية أي الذين يزعمون أن الأنبياء تبلغ روحه بالتصفية في القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الإيجاد والإعدام والإحياء والأمانة البينة والشكل .
الثالث : الاستعانة بالأرواح الأرضية أي المسمى بالعزائم وتسخير الجن .

ط٥

الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون .

الخامس : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآيات على النصب الهندسية مثل صورة فرس في يدبوق إذا مضت ساعة من النهار صوت البوق دون أن يمسه أحد .

السادس : والاستعانة بخواص الأدوية المبادة والمزيلة للعقل ونحوها .

السابع : تعليق القلب وهو ان يدعى إنسان انه يعرف الاسم الأعظم وأن الجن تطبعه ويتقادون له فإذا كان السامع ضعيف العقل قليل التميز اعتقد أنه حق تعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والخوف فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء وانكر المعتزلة الأنواع الثلاثة الأول قيل لعلهم كفروا من قال بها وبوجودها وأما أهل السنة فجوزوا الكل وقدرة الساحر على ان يطير في الهواء وأن يقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً وغير ذلك من أنواع الشعوبذة .

بالجملة كل من المعجزة والكرامة والسحر أمور خارقة للعادة وانما الفرق بينها من حيث النسبة إلى من ظهرت على يديه فان ظهر ذلك الخارق ممن هو افضل الناس نشأ وشرفاً وخلقاً وخلقاً وصدقاً

وأدباً وأمانة وزهادة واشفاقاً ورفقاً وبعد عن الدناءة والكذب والتمويه وكان له أصحاب في غاية العلم والديانة كان ذلك الخارق معجزة مصدقة لدعواه وان ظهر على يدي متبع لنبي مقتف لهداية مواظب على الطاعات معرض عن المخالفات يدعوا إلى تصحيح العقائد والى إقامة الشريعة والأذكار والعبادات كان ذلك الخارق كرامة له أكرمه الله تعالى بها لا بقراءة رقى ولا بتدخين وان ظهر على يدي ذي نفس شريرة خبيثة كان سحراً وهذا فرق باعتبار الظاهر وثم فرق باعتبار الباطن ونفس الأمر وهو أن السحر كالسيما والهيميا يكون بخواص أرضية أو سماوية وكالظلمات يكون بنقش أسماء خاصة لها تعلق بالأفلاك والكواكب على زعمهم وكالعزائم والاستخدامات يكون بتلاوة أسماء خاصة تعظمها ملوك الجن مع تبخيرات وهيئات معلومات غالبها مكفرة .

وكل ذلك أسباب مادية جرت ع

مسبباتها عليها لكنها خفية لم تظهر إلا لقليل من الناس فهي في الحقيقة ليس فيها شئ خارق للعادة إلا من حيث الظاهر أما في نفس الأمر فلا لارتباطها بأسبابها الخفية كالحشائش التي يعمل منها النفط التي تخرق الحصون وكالدهن الذي من ادهن به لم يقطع فيه حديد ولا يؤثر فيه

وكالدهن الذي من ادهن به لم يقطع فيه حديد ولا يؤثر فيه النار ونحو ذلك بخلاف المعجزة والكرامة فإنه ليس في الحشائش و الادهان وغيرها ما يقدر فيه الإنسان على قطع المسافة البعيدة في زمن يسير أو على المشي على وجه الماء أو على إحياء الموتى.وفلق البحر ونحو ذلك مما هو معجزة أو كرامة تظهر بمجرد خلق الله تعالى بلا استعمال أسباب معدة لذلك .

وقال المحقق التفتازاني في شرح المقاصد الولي هو العارف بالله تعالى وصفاته المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات وكرامته ظهور أمر خارق للعادة من قبله غير مقرون بدعوى النبوة وبهذا يمتاز عن المعجزة وبمقارنة الاعتقاد والعمل الصالح والتزام متابعة النبي صلى الله عليه وسلم عن الاستدراج وعن مؤكدات تكذيب الكذابين .

كما روي ان مسيلمة الكذاب دعا لا عور أن تصير عينه العوراء صحيحة فصارت عينه الصحيحة عوراء وبصق في بئر لتزداد حلاوة مائها فصار ملحاً أجاجاً ومسح على رأس يتيم فصار أقرع

وهذا يسمى إهانة كما امتازت بكونها على يد ولي عما يسمى معونة وهي الخوارق الظاهرة على أيدي عوام المسلمين تخليصاً لهم من المحن والمكارة .

وبهذا ظهر أن الخوارق أربعة : معجزة وكرامة وإهانة ومعونة وزاد بعض المتأخرين والإرهاص أي التأسيس وهو ما يكون قبل دعوة النبوة كتسليم الحجر و إظلال الغمام قبل البعثة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستدراج وهو ما يظهر على يد ظاهر الفسق وهي طبق دعواه بلا سبب كما وقع لفرعون السحر والشعبذة وهو ما يكون كأكل الحيات وهي تلدغه ولا يتأثر لها .

ويقول المحققون أن كل خارق ظهر على يد أحد من العارفين فهو ذو جهتين جهة كرامة من حيث ظهوره على ذلك العارف ، وجهة معجزة للرسول من حيث أن الذي ظهرت هذه الكرامة على يد واحد من أمته ، لأنه لا يظهره بتلك الكرامة الآتي بها ولي ألا هو محق في ديانته وهي التصديق والإقرار برسالة ذلك الرسول مع الإطاعة

لأوامره و نواهيه ، حتى لو ادعى هذا الولي الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة لم يكن ولياً و لم يظهر ذلك على يده .

فالخارق بالنسبة إلى النبي لا يكون إلا معجزة ، سواء ظهر من قبله فقط أو من قبل آحاد أمته ، وبالنسبة إلى الولي لا يكون إلا كرامة لخلوه عن دعوى النبوة والله أعلم .

إليك هذا الكلام الموجز في تحقيق المعجزات والآيات البينات وفيه بسط وتفصيل لا يسعه المقام ، ومن شاء فليراجع إلى المطولات خاصة إلى الجواب الصحيح للحافظ ابن تيمية والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير والشفاء للقاضي عياض وغيرها .

الفائدة السادسة عشر :
في تحقيق حديث افتراق الأمة سندا ومتناً

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلل : تفرقت اليهود على احدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة ، والنصلوى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، رواه الترمذي ج٢ ص ٨٩ .

وقال الإمام الترمذي هذا حديث حسن صحيح ، وكذا اخرجه عن عبد الله بن عمرو رض ، وقال هذا غريب اسناداً ، وقال أيضا : وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص وعوف بن مالك ، وكذا صحح رواية أبي هريرة السخاوي في المقاصد الحسنة والشاطبي في الاعتصام،

وقال ، الذهبي أنه على شرط مسلم ، وزاد شارح سفر السعادة على هؤلاء الأربعة أحد عشر صحابياً آخرين وهم أنس وجابر وأبو امامة وابن مسعود وعلي وعمرو بن عوف وعويمر وأبو الدرداء وأبو معاوية وابن عمر وواثلة رضي الله عنهم ، فبلغ جميع الرواة من الصحابة خمسة عشر نفرا ، وقد علمت ان رواية أبي هريرة

صححها الترمذي والسخاوي والشاطبي والذهبي، وكذا صححها حاكم وكذا رواية أبي معاوية أو معاوية ، والاغلب أن يكون معاوية صححها حاكم ، وقال هذه اسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث ، والذهبي أيضا سلم ، هذا .

وكذلك رواية عوف بن مالك في المستدرك للحاكم ، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، وسكت الذهبي على تصحيح الحاكم ، ولم يتكلم فيه بشئ فكأنه سلم قول الحاكم ، وكذلك رواية أبي أمامة رواه ابن ماجة والترمذي باختصار ، ورواه الطبراني ورجاله ثقات ، فتلك الروايات الأربعة اعني رواية أبي هريرة ومعاوية وعوف بن مالك وأبي أمامة قد وجد التصحيح والتوثيق من أئمة الحديث مصرحا ، وأما رواية أنس وعبد الله بن عمرو وعمرو بن عوف وابن عمر لا تخلو عن الحسن أيضا .

واما رواية ابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وأبي الدرداء وواثلة وعلي رضي الله عنهم قد رويت بأسانيد ضعاف وأما رواية جابر وعويمر رضي الله عنهم فلم يتكلم فيهما أحد من الأئمة ، فعلى هذا التفصيل يصح لنا أن نقول : بأن حديث افتراق الأمة ثابت قطعاً ، لأن بعض الروايات صححه كثير من الأئمة ، وبعضها ولو كان

ضعيفاً لكنه بتعدد الطرق وتعاضد الروايات الأخر يكون قوياً بل يرتقي إلى درجة الحسن ، فالحديث ثابت لا يمكن إنكاره على قواعد أصول الحديث .

فما قال العلامة مجد الدين الفيروزآبادي في خاتمة سفر السعادة : لم يثبت فيه شئ وأيضاً ما قال ابن حزم تحت بيان الكلام فيمن يكفر ومن لا يكفر هذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد ليس بصواب بل لا يعتبر قولهما أصلا على جنب هؤلاء الأئمة الكبار كما مر سابقاً والله اعلم .

الفائدة السابعة عشر :
في تشريح لفظ الاختلاف والتفرق والافتراق

اعلم ان هذه الألفاظ الثلاثة متقاربة المعنى ، لأن كل شيء او حال إذا وجد له ما يخالفه ويقابله يقال بينهما اختلاف وتفرق فعلى هذا يقال بان العالم مركز الاختلاف من العرش الى الثري يوجد فيه مثلاً اختلاف الليل والنهار والشهور والسيئين والفصول والمواسم وكذا اختلاف الألوان و الأشكال و الأجناس والصفات واللغات والألسنة واليه أشار قوله تعالى " و اختلاف الليل والنهار ٥/٤٥ ، واختلاف ألسنكم و الوانكم " ٣٠/٢٢

وكذلك يوجد فيه اختلاف الحق والباطل واختلاف الهداية والضلالة من سالف الزمان واليه أشار قوله تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم (هود ١١٨/١١) قال عطاء وجماعة من المفسرين : المراد بالاختلاف في هذه الآية هو اليهودية والنصرانية والمجوسية والحنيفية ، والمراد بالمرحوم هو الأمة المحمدية وهم الأمة المرحومة، والأمم السابقة هم

المختلفون ، ولا يطلق الاختلاف على من رحمه الرب تعالى ، وكذا حال الاختلاف بين أهل الحق والباطل ، فان أهل الحق داخل تحت قوله الا من رحم ربك ، فظهر انه من كان من أهل الاختلاف لا يكون داخلاً تحت الرحمة ، بل هو منحرف عن سبيل الحق ، واليه أشار قوله تعالى: وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (الأنعام ٦/١٥٣) ،

وكذلك وضح بان سبيل النجاة واحد ، وللضلالة سبل متفرقة فثبت من آية سورة الهود والأنعام أربعة أمور، أحدها ان الصراط المستقيم واحد ، وثانيها: والسبل المتفرقة كثيرة ، وثالثها: ان النجلة للجماعة المرحومة فقط .

ورابعها: ان لا نجاة لاهل الاختلاف ، وحديث الافتراق ورد على هذه الأمور الأربعة ، واعلم ان الله تعالى يبعث الرسول لمحق الاختلاف والتفرق ، لأن يجمع الناس على دين واحد وشريعة واحدة ، كما قال الله تعالى: ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شئ (الأنعام ٦/١٥٩) .

فمن فرق في الأمة فهو مختلف ومفترق لا تعلق له بالشريعة ، وان الاختلاف له أنواع ، قد يكون بحسب الدين معناه : ان جماعة

من الناس تتبع الدين السماوي والاخرى تنكره ، فهذا هو اختلاف الملة والدين .

وقد يكون الاختلاف بين متبعي دين واحد ، بعد ان تكون الأصول والكليات متحدة ، ويكون الاختلاف في الجزئيات فقط ، ولا يكون ذلك سبباً للمنافرة ، وهذا النوع من الاختلاف ليس من ذلك الاختلاف المذموم،

وهنا نوع آخر بأن يكون الاختلاف في الأصول والكليات ، ولكن كلهم تحت ملة واحدة ، كاختلاف المعتزلة والمرجئة والجهمية والقدرية ، وهذا النوع من الاختلاف صار سبباً للبغض والعداوة والتفاخر والمنافرة ، فهو داخل في الاختلاف المذموم أيضا ، بالجملة ان كان الاتفاق في الأصول والكليات المقررة من الشرع، والاختلاف في الجزئيات والفروع فقط فلا يقال ذلك اختلاف الذي ذمه القرآن ، كما قال تعالى: وشرع لكم من الدين ما وصى به ونوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (شورى ٤٢/١٣) .

فظهر ان الشرائع السماوية فيما بينها ولو كان فرق ظاهر مع
نه ما سمى القرآن ذلك اختلافاً لأن أصول كلها متحدة متفقة ، ثم
ال ولا تتفرقوا فيه فيعلم من ذلك ان التفرقة تكون في الكليات
والأصول دون الجزئيات والفروع ، فحينئذ يقال بأن الاجتهاد
والاستنباط في النوازل المسكوت عنها ، الذي له أصل ثابت من
لشرع لا يعد اختلافاً ، لأنه لم يكن في الأصول والكليات ، بل اجلز
ذلك الشارع بأن يجتهد في تخريج الأحكام الجزئية،وكذا حال
لاختلاف بين الصحابة ، فانه لم يكن بينهم في الأصول والكليات وفي
لمسائل الدقيقة ، بل لم يكن لهم سوال من الفروع والمسائل الجزئيات
، ولذا قد ترى بعض الصحابة يرفع اليدين ويجهر البسلمة والتأمين ،
وبعضهم ليس كذلك ومع ذلك يصلون في مسجد واحد ، ويقتدي
عض خلف بعض ، وليس بينهم تباغض وتحاسد ، ولا بينهم جدال
وخصومة ، بل كلهم يعمل بالاجتهاد بما رأى النبي صلى الله عليه
وسلم أنه يفعل كذلك ، فلذا اختلاف الصحابة فيما بينهم ليس من
لاختلاف الذي ذمة القرآن ، وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى "الا من

رحم ربك " فان أهل الحق ليس فيهم اختلاف ، فمجاهد كانه قال ليس هو من الاختلاف ، وقال الحسن البصري فان أهل رحمة الله لا يختلفون اختلافاً يضرهم ، فهذا كأنه عده اختلافاً، ولكن ليس هو من الاختلاف المضر الذي ذمه القرآن ، وإذا وجد نحو هذا الاختلاف فالقرآن قد أقام أصلاً لدفع هذا فقال: فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله ورسوله " فيعلم من هذا ان بعد الاختلاف أيضا يبقى سبيل الاتحاد والاتفاق ، فالمجتهدون كلهم متفقون في الرد لا اختلاف في ذلك ، انما كان ذلك في الفهم والاجتهاد ، وقد أجاز ذلك الشارع فكيف بعد ذلك اختلافاً . والله اعلم

الفائدة الثامنة عشر :

في بيان تعيين الفرق الباطلة ومعرفة علاماتها

قد علمت مما سبق من رواية الترمذي عن أبي هريرة رض ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تفرقت اليهود على احدى وسبعين او اثنين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة الخ .

بان الحديث صحيح ، وقد صححه الترمذي والسخاوي والشاطبي ، وعلمت بأن الفرق ثلاث وسبعون فرقة كلهم في النار الا فرقة واحدة . فالمراد بالأمة في الحديث أمة الاجابة دون الدعوة ، لأن هذا مشابه بافتراق اليهود والنصارى ، كما أنهم افترقوا مع كونهم يهودياً ونصرانياً،

كذلك أمة الإجابة تفترق بتلك الفرق كلها مع الادعاء بأنهم مسلمين ، فتفرقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، وان كانت تبعده العقول وتتحير فيه ، خاصة من هو مؤرخ فقط ، فلوعد جميع الاختلافات فرقة مستقلة فإذا تكون الفرق أكثر من ذلك العدد بكثير وان عد ما يورث الكفر فقط فرقة ، فيكون اقل من العدد المذكور في الحديث ، لهذا قال بعض الناس الحديث ليس بثابت بل موضوع حاشا

لله ، ولكن المحدث والفقيه الذي هو عالم بتعبيرات كلام النبوة ، وعارف برموز اشارات الشارع ، لا يتعجب منه بل يؤمن به ويطمئن عليه ، لأنه من كلام صاحب النبوة خاصة اذا كان متعلقاً بالمستقبل ، ومن سلسلة الفتن ، وأمثال هذه الأخبار تكون مجملة أغلبها ، والمقصود منها التنبيه والحذر،

ولذا ترى كثيراً من الصحابة لا يتصدون بتفصيل هذه الاخبلو وجزئياتها ، ههنا ايضا لم يوجد في الاحاديث بيان تلك الفرق مفصلا ، فصار تعيين الفرق مشكلا وصعبا ، لكن العلماء الراسخين عينوا تلك الفرق الباطلة على ضوء تلك الأثار والعلامات التي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم دليلاً على البطلان والضلالة ، ونبه الامة منها وحذرها عليها .

فالآن نذكر نبذة من تلك العلامات التي تدل على الفرق الباطلة حتى يسهل تعيينها ، أحدها البغض والنفاق ، بأن أهل الحق مع ما بينهم من الاختلاف في الجزئيات والفروعات ليس فيهم اختلاف حقيقة ، ولا يورث ذلك بغضاً ونفاقاً فيما بينهم ، ولذا ترى أنهم يكونوا غير متعصبين ، ولكن أهل الباطل الذين يختلفون مع أهل الحق ، يكونوا متعصبين ومتعاندين ، وفيهم يسرى البغض والنفاق اشد

سراية ، ولذا قال مجاهد : أهل الحق ليس فيهم اختلاف واليه أشار قوله تعالى : ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ،

وقال عكرمة : المختلفون هم أهل الأهواء ومصداق الا من رحم ربك هم أهل السنة والجماعة ، وكذا قال عمر بن عبد العزيز ومالك : بأن أهل الرحمة لا يختلفون (الاعتصام) ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ،

وكذلك إذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة في أمر مختلفون يسخط ، وترى كثيراً من الصحابة يمنعون الناس من الاختلاف وينهونهم عنه ، كما قال عمر رض يوماً للصحابة ان اختلفتم فمن بعدكم يختلفون كثيراً ، وكتب علي رض إلى القضاة : اقضوا كما كنتم تقضون قبل فاني لا احب الاختلاف .

وقال عليه الصلاة والسلام : ان الأمم من كانت قبلكم قد هلكوا باختلافهم على الأنبياء ، بالجملة أهل الحق لا يختلفون بمعنى أنهم لا تباغض بينهم ولا تشاجر كما يكون ذلك في أهل الأهواء .

وثانيها: اتباع المتشابهات ، قال الله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات — وفي اللغة يقال : الام هو الأصل الذي يرجع إليه جوانبه واطرافه ، ولذا

يقال أم القرى مكة وأم القرآن الفاتحة بمعنى ان معاني القرآن ترجع إلى معاني الفاتحة ، فكذلك الآيات المحكمات هن أم الكتاب، بمعنى أن المتشابهات تحوم حول المحكمات وترجع اليهن ،

فيقول الله تعالى : والراسخون في العلم يقولون آمنا بالله والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ٣/٧ ، علم منه بأن أهل الزيغ والطغيان يبحثون في المتشابهات كما يبحثون في المحكمات ، والحال أن الآيات المتشابهات غير واضحة المراد والمعنى ، ولم يأمر الله تعالى بها فلا وجه للبحث في تلك الآيات ، فمن يكون في قلبه زيغ فهو يتبع لها ،

والأصل أن المحكم له معنيان خاص وعام ، فالمعنى الخاص هو مقابل المنسوخ ، فالذي ليس بمنسوخ هو محكم، والمنسوخ هو المتشابه ، والمعنى العام هو الذي يضح معناه، فالمتشابه الذي لا يضح معناه سواء يعلم معناه من البحث والتحقيق أو لم يعلم ، فعلى هذا يكون المتشابه قسمين حقيقي واضافي ، فالحقيقي هو الذي لا سبيل لنا إلى حله ولم يبين الشارع بنفسه هذا القسم نادر في القرآن .

وأمر علينا ان نؤمن به فقط وهو المراد في الآية ، والاضافي هو الذي بينه القرآن بنفسه في مقام آخر، مثل تخصيص العام أو تقييد

المطلق ، ولكن أهل الزيغ والهوى لا ينظرون إلى سياق الآية وسياقها ، فيختلفون في معناها ،

مثلاً سأل رجل عن جابر الجعفي معنى الآية فلن ابـوح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ١٢/٨٠ ، فقال جابر الجعفي : لم يظهر مصداق الآية إلى اليوم، فقال سفيان كذب ، فقال الحميدي ما قال جابر ومراده فقال سفيان انه كان يرى الرفض وان علياً في السماء مخفي ، فاذا يقرب آن الظهور يظهر مع أولاده في السماء ، فالروافض يطبقون الآية على رأيهم معاذ الله ، والحال ان الآية من سياقها وسباقها تدل على أنها نزلت في واقعة يوسف عليه السلام مع اخوته ،

وكذلك الخوارج يقولون : أن الحكم الا لله ، فتحكم علي رض رجلاً من الصحابة خروج عن معنى الآية ، والحال ان الله تعالى أجاز تحكيم الإنسان في القرآن أيضاً ، كما في آية التحكيم بين الزوجين ، وكذلك الجبرية لما رأوا الاية والله خلقكم وما تعملون ، يقولون ان العباد مجبورون في افعالهم ، ليس لهم كسب واختيار، ولكنهم لم يروا الى قوله تعالى: جزاء بما كانوا يكسبون، وغيرها من الآيات ، ــ بالجملة كانت عادات أهل الأهواء بأن يتعينون معاني من

رأيهم أولا ، ثم يتفتشون مخارجها من القرآن ، فيطبقــون مـــا أرادوه على ما في القرآن ، هذا اسلوب باطل يقيناً والحق في هذا الموضــــوع بأن المتشابه الحقيقي لا سبيل إلى حله وكشفه ، ويجب على النـــاس أن يؤمن به، ولا يعلم تأويله الا الله .

وفي المتشابه الاضافي يشتبه معناه بنقص العلم وقلة الفهم، فإذا يراه أهل العلم الكثير، وينظر إلى سياقه وسباقه ، والى مواضع القــرآن الأخر، يفهم المراد صحيحاً، فاتباع المتشابه الحقيقي علامـــة الزيـــغ والضلال مطلقاً ، واتباع المتشابه الاضافي علامة الزيغ والهوى لأهـــل قليل الفهم والعلم الناقص .

وثالثها : اتباع الهوى وقد مر البحث عنه سابقاً ، وأما الفـــرق بين هذه العلامات الثلاثة بأن الاولى يعرفها كل ناس ، والثانية يعرفــها العلماء الراسخون في العلم فقط، فاهم واقفون على الفرق بين المحكـم والمتشابه، والثالثة انما يقضيه كل انسان بنفسه ، لأن الفرق بين الــذي في قلبه اتباع الحق ، وبين الذي في قلبه اتباع الهوى، يعلم ظـــاهراً ، وعلى ضوء هذه العلامات الثلاث تعرف الفرق الباطلة ، ومع ذلك لا ينسد البحث ولا ينقطع الكلام في هذا المجال ، والسبيل الا قوم الــذي ذهب اليه جميع الصحابة ، بأهم لم يتصدوا بتعيين الفرق الباطلة ، بــل

تصدوا بتحقيق الفرقة الحقة الناجية ، حيث سألوا : وما هي يا رسول الله ، فانهم يعلمون ان إدراك الصراط المستقيم لا يمكن الا من صاحب الوحي ، ولم يترك الله تعالى لتحقيق ذلك الى عقول الناس ، والا لا ضرورة إلى النبي والرسول ، فكان الأنسب أن يعين صاحب الرسالة ما هو سبيل الحق والصراط المستقيم من لسانه ، واما تعيين السبل المنحرفة ففوضه إلى الأمة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم " ما أنا عليه وأصحابي ، " هو سبيل الحق والصراط المستقيم .

ثم في قوله عليه السلام : كلهم في النار الا ملة واحدة ، يقال لما كان أكثرهم في النار فكيف تكون هذه الأمة مرحومة، أجيب أولاً بأن هذا غلط حسب القاعدة، لأن الرحمة تكون بحسب الحق وفضل الله تعالى، لا بحسب العدد ، وثانياً لما تدخل هذه الأمة في الجنة فح ترى أنه أكثر بحسب الأمم الآخرين فيها .

وقال بعض العلماء ان قوله عليه السلام كلهم في النار، محمول على مقتضى المحاورة والاصطلاح ، يعني ليس المراد أنهم في النار حقيقة ، بل المراد أنهم على الغلط غير مقبولين عند الله ، كما يقال تشديداً القوه في التنور وهذا ما قال البعض ليس بصحيح ، لأنه جاء صراحة في رواية أخرى ، وواحدة في الجنة ، فلا مساغ لهذا المعنى

، والراجح ما قال الإمام الغزالي والشاه عبد العزيز رحمه الله : بأن فرقة تدخل الجنة بدون عذاب، وهم الذين ليس في عقــائدهم وأعمــالهم البدع والرسوم ، وما صدر منها شيئ بحسب الطبيعة البشرية، فبفضل الله تعالى وكرمه يعفو ويغفر، وهم ينجون عن شدائد القبر والمحشــر ، ويدخلون الجنة من أول الأمر، وعلى خلافهم الفرق الباطلة ، فــهم بسبب الافتراق والتشتت معذبون في النار ثم يدخلون الجنة ، ويمكــن ان يكون هذا هو المراد من حديث ابن عمر رض مــا مــن أمــة الا وبعضها في النار وبعضها في الجنة الا أمتي فإنها كلــها في الجنــة رواه الطبراني في المعجم الأوسط والصغير،

وقال صاحب جمع الفوائد إسناده ضعيف ومعناه صحيح ، ولا يلزم ان يكون مدار النجاة التوحيد فقط ، والعصيان غــير موجــب للعذاب كما هو عند المرجية وهذا مخالف لأهــل الســنة والجماعــة بالجملة ان المراد بهذه الفرقة الناجية هي التي تعمل بالسنن حرفاً حرفــا وتحترز عن البدعات كلها اعتقادية كانت او عملية وهذه الفرقة تدخل الجنة من غير عذاب، وهذا هو المعنى بقوله "ما أنا عليه وأصحــابي " فلا اشكال .

وأما قوله عليه السلام "اختلاف امتي رحمة " فقال صاحب مقاصد الحسنة رواه البيهقي في ضمن حديث طويل مرفوعا ، وروى الطبراني والديلمي والضحاك منقطعاً،

وقال العراقي حديث ضعيف مرسل ، وكذا يعلم من كلام الخطابي بأن له أصلا ، وقال العلي القاري في تذكرة الموضوعات : زعم كثير من الائمة انه لا اصل له لكن ذكره القرطبي في غريب الحديث مستطرداً وأظن بأن له أصلاً عنده ،

وقال الزركشي أخرجه نصر المقدس في كتاب الحجة مرفوعاً ، والبيهقي في المدخل عن القاسم بن محمد قوله ، وفي حاشية البيضاوي رواه السبكي وغيره ، ولكن ما كان عند المحدثين مشهوراً ، وعن عمر بن عبد العزيز قال ما يسرني لو أن أصحاب محمد لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم يكن رخصة ، قال السيوطي ، وهذا يدل على أن المراد اختلافهم في الاحكام ، وفي مسند الفردوس من طريق جويبر عن الصحابة عن ابن عباس مرفوعاً "اختلاف أصحابي رحمة"

بالجملة هذا حديث ليس هو موضوع اصلاً بل له اصل ، ولكن سنده ضعيف ، في شرح معناه أقوال ذكرها العلماء ، كما في الاعتصام والموافقات .

والخلاصة بان الصحابة قد فهموا الدين والشريعة من صاحب الرسالة اصالة ، وكانوا وافقين باسرار الشريعة وأغراضها فيما لم ينص ، فكثرت صور الاعمال واشكالها، فوقع المساغ واتسع للأمة ، وان لم يختلفوا يخشى ان ينحصر العمل في صورة واحدة، فحينئذ يكون الضيق على الامة ، فلما اختلفوا وقع سهل للعمل ، بأن يختار أحد بأي أقوال وجدت فيهتدي ، وليس المراد ان يختار كل واحد بما تقتضيه النفس وتشتهيه ، بل المراد اذا كان الاختلاف في غير المنصوص يختار قول واحد بحسب اجتهاده ، فبذلك ثبت الاجتهاد لمن بعدهم وصار ذلك أسوة للمجتهدين وحجة لهم ، وبهذا التوجيه ظهر معنى كون اختلاف الصحابة رحمة للامة والله أعلم .

الفائدة التاسعة عشر :

في بيان أسباب الاختلاف والتفرق بين أهل الحق والفرق الباطلة

قد ذكرنا فيما قبل ان المراد من الاختلاف والتفرق هو الـذي يكون في الأصول والكليات ففي الإسلام قد نشأت الفـرق الضالـة الباطلة وبالاستقراء التام والامعان الغائر وجدنا لذلك أسبابا ثلاثة :

أحدها : العلم الناقص والسطحي ، وثانيها: اتباع الهوى والنفـس ، وثالثها: اتباع الرسوم والعادات .

فأما السبب الأول فلان القوم العربي الذين لقبـهم الله تعـالى بالأميين لما بعث فيهم رسولاً منهم تعلموا العلم منه ولكن ليس طريقه كما في زماننا بحيث يتعلم أحد عند معلم ملقب بألقاب عديدة وعنده كتب مطبوعة فيقرأ عنده بل كان طريق تحصيل علومهم عند الرسـول صلى الله عليه وسلم بحيث يحفظون ما يسمعون مـن في رسـول الله صلى الله عليه وسلم ويعملون ما يعلمون لا يشكون فيه ولا يتفكرون

فينظرون إلى حركاته وسكناته ونطقه وضحكه وقيامه وقعـوده وطعامه وشرابه ولباسه ومشيه ويقظه ونومه فيتبعـون مـا ينظـرون ويقتدون ما يبصرون ويجهدون في الاعمال مبلغ جهودهم ويتبعـون مرضاة الله غاية بغيتهم فتأثرت صحبته في قلوبهم تأثيراً بليغاً وأحسـوا

في بواطنهم نورا ورسوخا عظيما حتى صار واميزانا للأعمال لمن بعدهم ومعيارا للحق وأسوة لمن خلفهم وأيضا لما نزل القرآن بين أيديهم وهم يعلمون التفسير الصحيح من رسولهم فتجمع عنده علوم كثيرة من غير كلفة وتحوي حقائق غزيرة من غير مشقة فلا بتصور فيهم نقص العلم وقلة الفهم .

ولكن لما فقدوا النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي هو أسوة وقرآن عمليا أعني توفي النبي صلى الله عليه وسلم وكانت جماعة الصحابة عكوس ومظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم في العلم والعمل فوصل العلم الخالص الصحيح منهم إلى من بعدهم من التابعين وحينئذ انتشر الإسلام في انحاء البلاد وخرج من العرب إلى العجم فتبدل طريق التعليم والتعلم وتغير نهج الافهام والتفهيم واختلطت العلوم الرسمية بالعلوم العملية فانتشرت اذهان الناس وافكارهم وتشتتت أحوال الجمع وشئوهم فالذي وصل منهم إلى من بعدهم فهو الفاظ العلوم وسطحها وتعبيرات المعاني وجهها وفتحت ابواب العقل والنظر فقال ناس ما شاؤوا بالعقل والفكر وعلى حنب هذا فتش أهل الحق علوم الصحابة وعلوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ان جاء زمان الخلافة الرابعة فخرجت فرقة كان في أيديهم قرآن وفي جبهاهم آثار السجود

وقد بعث على علي رض وكانت تقول ان علياً قد كفر لأن الحكم لا يكون الا لله وان علياً قد رضي بحكم الإنسان وخالف القرآن فصار كافرا العياذ بالله .

وفي الأصل ليس لهم درك في المقاصد وفهم المعاني في القرآن وما كانت لهم قوة الاستنباط وصلاحية الاجتهاد لهم عقول ظاهرة وعلوم سطحية فما فهموا معاني القرآن ومقاصده إليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم فانهم كانوا يقرؤون القرآن ولا يفهمون ولذا لما ذهب ابن عباس رض إليهم ليناظر معهم فقال : إني جئتكم من هؤلاء الذين انزل القرآن بين أيديهم وهم قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم ما رأيتم النبي ولا نزول القرآن " وكان غرضه من هذا انكم تقرؤون القرآن ولكن لا تفهمون معانيه ولا تبلغون إلى حقيقة العلم فلا يجوز لكم الاختلاف مع علي رضي الله عنه .

وكذلك قال ابن عباس لما سأله عمر رض كيف يكون الاختلاف في الأمة والحال ان النبي واحد والقبلة واحدة والكتاب واحد ، فقال ابن عباس يا أمير المؤمنين قد أنزل القرآن بين ايدينا فعلمنا موارد النزول واضحاً ولكن سيجئ أقوام يقرؤون القرآن لا

يعلمون موارد النزول صحيحاً فيقولون برايهم وظنهم فلذا اختلفوا حتى تقاتلوا فلم يتفق عمر بقوله ثم اتفق بما قال ابن عباس (الاعتصام ص١٥٧) .

فعند ابن عباس سبب الاختلاف قلة الفهم ونقص العلم الحقيقي وأنت قد رأيت ما ذا فعل الخوارج ؟ قد خرجوا على علي رض بقصور علمهم وقلة فهمهم ولذا قال الاوزاعي لتلميذه بقية: يا بقية العلم ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما لم يجئ عنهم فليس بعلم (جامع بيان العلم ج٢) .

وقال الشعبي : ما حدثوك عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ به وما قالوا فيه برايهم قيل عليه (جامع بيان العلم) .
وقال ابن مسعود رض : لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل أكابرهم فإذا اتاهم من قبل اصاغوهم هلكوا . وقال ابن المبارك : المراد بالاصاغر الذي يقولون برايهم وقال أبو عبيدة المراد الذين جاءوا بعد الصحابة ويرجح علومهم على علوم الصحابة (جامع بيان العلم)
فقد علمت مما ذكرنا كيف كانت علوم الصحابة وان لم يكن في علومهم طول وعرض قدر ما يعلمه المتأخرون ولكن في علومهم عمق

ورسوخ بحيث ليس عندهم شك وريب فيما علموا من صاحب النبوة ألف ألف صلاة وتحية .

قال ابن مسعود من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا في آثارهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

وكتب صاحب الموافقات في ديباجة كتابه ثلاث عشرة مقدمات وقال في الثانية عشر ما هو أهم من الكل وحاصله قال ينبغي ان يتعلم العلم من الراسخين ويحصل الفهم من المحققين لأن صحبتهم مؤثرة تاثيراً عظيماً في الفهم والرسوخ ولذا ترى الصحابي الذي قرأ عند النبي صلى الله عليه وسلم سورة الإخلاص مرة فانه قد فهم التوحيد والرسالة بأحسن وجه ما لم يفهمه أحد يحفظ القرآن جميعاً وما ذلك الا بأنه كان تعلم عند النبي صلى الله عليه وسلم واختار الصحبة ولا يكفي للعلم النظر في الألفاظ فقط فان فيها اشتراكاً وترادفاً وحقيقة ومجازاً وعموماً وخصوصاً والمعلم يبين .

خلاصة الكلام بحسب التحقيق بحيث ينشأ منه في المتعلم قوة وملكة يدرك بها الحقائق قبل تفصيلها وشرحها كما في وقعة عمر رض وافقني ربي في ثلاث وكما في واقعة صلح الحديبية حين أنكره عمر رض ولما قرا النبي صلى الله عليه وسلم انا فتحنا لك فتحاً مبيناً الخ .سكن قلبه واطمأن جاشه .

وكذا في الواقعة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اضطربت القلوب وتحيرت الخواطر حتى قام عمر رض بالسيف وقال من يقول ان محمدا قد مات اقتله فلما قرأ أبو بكر رض وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل الخ . سكن عمر واطمأن والاصل ان العلم إذا صار ملكة راسخة في القلب فهو ليس من علم لفظي بل هو حكمة وعلم حقيقة واليه أشار قوله تعالى يعلمهم الكتاب والحكمة ــ ففي تفسير الحكمة ولو قال بعض المفسرين أنها سنة ولكن فيها أقوال أخر ومنها هذا أيضا يعني الذي ينشأ في القلب بعد صحبة المعلم من الفهم والفراسة والملكة .

ولذا قال الإمام مالك رح : الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء وأيضا كان يقول لتلاميذه لا تكتبوا ما أقول لكم في المسائل بالاجتهاد يمكن ان يتبدل رأيي بل تحفظون وتفهمون حتى تستنير

قلوبكم ثم لا تحتاجون إلى الكتابة وأيضا قال ليس العلم بكثرة الرواية ولكنه نور يجعله الله في القلوب ولكن عليه علامة ظاهرة وهو التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود وذلك لا يحصل الا بحسن العقيدة والاتباع .

وإذا حصل الرسوخ في العلم ويتضح نوره في القلب فيحث صاحبه إلى العمل لأن العلم الصحيح لا يبقى الا من العمل والعلم يجبر صاحبه على ذلك قال صاحب الموافقات في كتابه : قال الحسن البصري العالم هو الذي يعمل بعلمه والذي يخالف عمله من علمه فهو ليس بعالم وقال سفيان الثوري العلماء هم الذين إذا تعلموا العلم يعملون انهمكوا فيه وإذا انهمكوا فيه فلا يرون في العوام وإذا لا يرونه في العوام يطلبون وإذا يطلبون يفرون من الخلق .

وقال الحسن البصري تعلمنا العلم للدنيا فصيرنا للآخرة ، وقال معمر إن الذين يتعلم للدنيا فعلمه يجذبه إلى ربه تعالى . وقال حبيب بن أبي ثابت انا تعلمنا العلم على غير حسن النية وإذا جاء العلم فإذا حسنت النية بالجملة ان العلم نور من الله تعالى يلقى في قلوب العلماء وهو يحصل بثلاثة أمور الصحبة عند العلماء الراسخين وبحسن العقيدة لهم وباتباع العمل وهذه الامور الثلاث كلها توجد بطريق الاكمل في

علوم الصحابة رضي الله عنهم ولذا ترى علومهم ليست سطحية بل على الحقيقة وكانت نوراً كاملاً فلهذا لا افتراق بينهم واما الذين بعدهم فهم ليسوا كذلك فلذا اختلفوا افترقوا وسببه كان هذا العلم الناقص والسطحي .

أما السبب الثاني : يعني اتباع الهوى والنفس فلأن الإنسان ابتلي باحد السبيلين سبيل الهدى وسبيل الهوى فسبيل الهدى هو الدين الالهي الذي فيه الحكم والفصل لله الواحد القهار والإنسان يكون فيه محكوماً لله تعالى ويتبع فيما أمربه وثمرته الجنة وسبيل الهوى هي جزبات النفس ومقتضياهًا والنفس تكون فيها حاكمة ويتبع الإنسان حسب ما اقتضته النفس وثمرته النار .

فهما متضادان في نظر القرآن فمن اتبع الهوى فهو ليس بمتبع الهدى والذي يتبع الهوى فهو ليس بمتبع الهدى

كما قال الله تعالى: " ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون " ١٨/٤٥ ، ولما كان سبب الهوى هو نفس الإنسان ومقتضياته سارية في سائر الجسم فإذا ينظر الهوى في صورة الهدى فلا يتوب عنه بل لا تسهل له التوبة واليه أشار قوله تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه

وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعـــد الله افـــلا تذكـــرون ٤٥/٢٣ " .

وكذا قال تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهـــم واتبعـــوا أهوائهم " ٤٧/١٦ ، وكذا قال عليه الصلاة والسلام وانه سيخرج في أمتي اقوام تتجارئ بهم تلك الأهواء كما يتجارئ الكلب لصاحبـــه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله فمتبع الهوى لا يجـــد لـــذة الا في اتباع الهوى كما لا يجد متبع الهدى لذة الا في العبادة لأنه جعل هـــواه الهه ورأى الهوى هداه فيضله عن سبيل الله كما قال الله تعـــالى " يـــا داؤد انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبـــع الهوى فيضلك عن سبيل الله ٣٨/٢٦ .

ويعلم من هذه الآية ان الخلافة تنافي اتباع الهوى فالخليفة لـــو يتبع الهوى يكون ضالاً فكيف يهدى الناس وأيضا اتباع الهوى تضر في الشريعة والسياسة كما قال تعالى : ولو اتبع الحق أهواءهم لفســـدت السموات والارض " ٢٣/٧١ .

وذم اتباع الهوى ثابت بالقرآن والحديث وأقوال السلف كمـــا روى سفيان الثوري قال رجل لابن عباس انا على هواك فقال : الهوى كله ضلالة والقرآن متى يذكر الهوى يذكر في سلسلة المذمة فـلنظر إلى

هذه الآيات التالية يقول الله تعالى : " ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس " ٥٣/٢٣ ، جعل فيه التخمين والهوى من نوع واحد وكذا قال الله تعالى : أمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم (محمد ١٤/٤٧) .

وقال أيضا " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى ٧٩/٤١ ، يظهر منها ان الاحتراز عن الهوى موجب للخوف والخشية بخلاف الهوى وكذا قال تعالى وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى " ٥٣/٤ ، الظاهر منها التقابل بين الهوى والوحي وليس فيه نوع ثالث وقد نفي الله تعالى نطق الهوى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فتحقق الوحي بالجملة ان نتائج اتباع الهوى أمور:-

الأول : يلزم له الضلال . الثاني يظهر منه الفساد في الدين ونظام المعيشة والسياسة والثالث لا تتيسر له التوبة ولذا قال ابن مسعود رض من احب ان يكرم دينه فليعتزل مخالطة الشيطان ومجالسة أصحاب الأهواء فان مجالستهم الصق من الحرب " وكذا يروى في بعض الطرق لحديث افتراق الأمة الذين يقيسون الأمور برايهم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال " قال ابن معين ان هذه الزيادة لا اصل لها

ولكن قال بعض المحدثين انها رويت من الثقة والاسناد صحيح فهو ثابت تقبل الحاصل ان الافتراق والاختلاف في الأمة قد تكون باتباع الهوى .

وأما السبب الثالث : الذي هو اتباع الرسوم والعادات فان الفطرة الانسانية تميل بطبعها إلى العادات القومية والملوكية والى الرسومات الحسبية والنسبية وكثيرا ما يقبل الإنسان قوانين وضوابط بحسب العادات القومية والنسبية فلذا ترى الشريعة أيضا تلحظ العادات القومية في بعض الاحيان .

وهذا اصل عظيم للقانون الالهي ولكن قد يكون في القوم من هو فاسد الخيال ظالم يتعدى في الأمور يفعل افعالاً شنيعة بجهله وقوته والذين لا قوة لهم فهم يصبرون مظلومين مقهورين لا يستطيعون المنع فيغضون ويسكتون ويمر على ذلك طول الدهر و لم توجد قوة سماوية أو ارضية للاصلاح والتغيير فيكون ذلك عادة عامة حتى يعد تارة جزءاً من الدين والمذهب .

كشرب البينح عند المزارات والقبور والعزلة والرهبانية وغيرها وكذلك بعض الرسوم والعادات يعد من المذهبيات و الدينيات مثلاً يقاد السرج ليلة البراءة والعرس وغير ذلك من الرسومات السيئة حتى

رسخت في قلوب الجهلاء بحيث لو منعوا عن ذلك يكون بينهم جدال وقتال وهذا القسم من اتباع الرسوم والعادات على خلاف الحق تقليد أعمى الذي هو من العادات الجاهلية وقد ذمها القرآن شديداً كما قال الله تعالى : وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة و أنا على آثارهم مقتدون " ليس معناه أن تقليد الآباء والأجداد غلط مطلقاً بل إذا كان على خلاف الحق والهدى كما قال تعالى : قل ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون " وكذا قال : قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه أباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون (زخرف) .

فظهر أن اتباع الآباء والأجداد من غير بينة من الحق ومن غير ثبوت من الشرع مذموم وهو تقليد أعمى والعجب من هؤلاء الحمقاء السفهاء الذين يقولون أن تقليد القرآن تقليد أعمى وأن تقليد الفلاسفة الاربيين تقليد الحق وحرية الخيال .

وفي الأصل أن تحقيقاتهم غير كافية وأكثرها غير حق بل فيها فحش وبذاء وضرر للمعاش والمعاد وسبب لفساد نظام العالم والسياسة بخلاف علوم الأنبياء والقرآن قال الله تعالى : فمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم " أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه " أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى "

فظهر من هذه الآيات أن الأنبياء عليهم السلام يدعون الناس ال سبيل الحق المبرهن بالبنية ومن خالفهم ليس لهم دليل ولا بينة وأن الأنبياء على نور وضياء ومن خالفهم فهم على ظلمة وحجاب وكذلك هم على بصيرة واصابة الرأي ومن خالفهم فهم على العميلن والضلالة وعلى ابصارهم غشاوة فعلى ضوء القرآن تقليد الفلاسفة الاروبيين هو تقليد أعمى وفي الحقيقة أنهم لخبث بواطنهم وفساد قلوبهم يظنون الضلال رشدا والنور ظلمة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ففذلكة الكلام أنه أسباب الافتراق والاختلاف ثلاثة وقد يوجد كلها في مقام واحد وتارة أحد دون الآخر كيف ما كان أن الأمة تفترق على فرق كثيرة ولكن الدعوى ان علوم تلك الفرقة ناقصة أوانهم متبعو الهوى أو متبعوا الرسوم ليس بسهل لأن كل واحد من الفرق الباطلة يدعون بأنهم على علم صحيح ومتبعو الهدى ومتبعو الإسلام فلذا يحكم به العقل الصحيح والقلب السليم على ضوء القرآن والحديث وعلى ميزان عقائد الصحابة وجمهور التابعين والأسلاف الصالحين ليعلم أن في بقاء الاختلاف سر عظيم لبقاء الدنيا كما قال تعالى : ولذلك خلقهم والله أعلم.

الفائدة العشرون :

في أسباب الاختلاف بين الصحابة والتابعين في الفروع

اعلم أن هذا الموضوع من أهم الموضوعات والكلام عليه ليس بوسعنا ولا ينبغي له إلا لمن كان نظره في الحدبث وأحوال الصحابة وسيعاً وعلمه بعلوم الصحابة والتابعين محيطاً ، وهذا ليس في قدرتنا وطاقتنا ، فلذا أذكر في هنا من كلام البارعين في هذا الميدان ونبين مختصراً حسب ما فهمنا من كلامهم .

قال الشيخ الإمام الحافظ الحجة الشاه ولى الله الدهلوي في الأنصاف: أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدونا ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل هؤلاء الفقهاء حيث يبينون بأقصى جهدهم الأركان والشروط والآداب كل شيء ممتازاً عن الآخر بدليله ويفرضون الصور من صنائعهم ويتكلمون على تلك الصور الفروضة ويحدون ما يقبل الحد ويحصرون ما يقبل الحصر إلى غير ذلك .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتوضأ فيرى أصحابه وضوءه فيأخذون به من غير أن يبين أن هذه ركن وذلك أدب ..

وكان يصلي فيرون صلواته فيصلون كما رأوه يصلي ، وحج فرمق الناس حجه ففعلوا كما فعل وهذا كان غالب حاله صلى الله عليه وسلم ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة و لم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة أو الفساد إلا ما شاء الله .

وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء عن أبن عباس رضى الله عنه قال ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة حتى قبض كلهن في القرآن منهن يسألونك عن الشهر الحرام تتال فيه ويسألونك عن المحيض قال ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم .

وكان يستفيه الناس في الوقائع فيفنيهم وترفع إليه القضايا فيقضي فيها ويرى الناس يفعلون معروفاً فيمدحه أو منكراً فينكر عليه وما كل ما أفتي به مستفتيا عنه أو قضي به في قضيه أو أنكر وعلى فاعله كان في الاجتماعات ولذلك كان الشيخان أبو بكر وعمر إذا لم يكن لهما علم في المسألة يسألان الناس عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو بكر رضى الله عليه وسلم ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها شيئاً يعني الجدة وسأل الناس فلما صلى الظهر قال أيكم يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الجدة شيئاً فقال المغيرة بن شعبة انا قال ما ذا ؟ قال اعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم سدساً قال ايعلم ذلك أحد غيرك فقال محمد بن مسلمة صدق فأعطاها أبو بكر السدس (رواه الترمذي و أبو داود) .

وقصة سؤال عمر الناس في الغرة ثم رجوعه إلى خبر المغيرة (رواه البخاري والمسلم) وسؤاله أياهم في الوباء ثم رجوعه إلى خبر عبد الرحمن بن عوف (رواه البخاري) وكذا رجوعه في قصة المجوس إلى خبره (رواه البخاري) وسرور عبد الله بن مسعود بخبر معقل بن يسار لما وافق رايه (رواه البخاري) وقصة رجوع أبي موسى عن باب عمر وسواله عن الحديث وشهادة أبي سعيد له (رواه البخاري) ، وأمثال ذلك كثيرة مروية في الصحيحين والسنن .

بالجملة فهذه كانت عادته الكريمة فرأى كل صحابي ما يسره الله له من عباداته وفتواه واقضيته فحفظها وفعلها وعرف لكل شيء وجها من قبل حقوق القرائن به فحمل بعضها على الاباحة وبعضها على الاستحباب وبعضها على النسخ لامارات وقرائن كانت كافية

عنده و لم يكن العمدة عندهم الا وجدان الاطمينان والثلج من غير التفات إلى طرق الاستدلال ، كما ترى الأعراب يفهمون مقصود الكلام فيما بينهم وتثلج صدورهم بالتصريح والتلويح الايماء من حيث لا يشعرون فانقضى عصره الكريم وهم على ذلك .

ثم انهم تفرقوا في البلاد وصار كل واحد معتدي ناحية من النواحي فكثرت الوقائع ودارت المسائل فاستفتوا فيها فاجاب كل واحد حسب ما حفظه أو استنبطه وان لم يجد فيها حفظه أو استنبطه ما يصلح للجواب اجتهد برايه وعرف العلة التي ادار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها الحكم في منصوصاته فطرد الحكم حيثما وجدها لا يألوا جهداً في موافقة غرضه عليه الصلوات والسلام فعند ذلك وقع الاختلاف بينهم على صروب منها ان صحابياً سمع حكماً في قضية أو فتوى و لم يسمعه الآخر فاجتهد برأيه في ذلك وهذا على وجوه :-

أحدها : أن يقع اجتهاده موافق الحديث مثاله ما رواه النسائي وغيره ان ابن مسعود رض سئل عن امرأة مات عنها زوجها و لم يفرض لها فقال لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي في ذلك فاختلفوا عليه شهراً و الحوا فاجتهد برأيه وقضى بان لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار

فشهد بأنه صلى الله عليه وسلم قضى بمثل ذلك في امرأة منهم ففرح بذلك ابن مسعود فرحة لم يفرح مثلها قط بعد الإسلام .

ثانيها : أن يقع بينهما المناظرة ويظهر الحديث بالوجه الذي يقع به غالب الظن فيرجع عن اجتهاده إلى المسموع ، مثاله ما رواه الأئمة ان أبا هريرة رض كان من مذهبه أنه من اصبح جنبا فلا صوم له حتى أخبرته بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف مذهبه فرجع .

وثالثها : أن يبلغه الحديث ولكن لا على الوجه الذي غالب الظن فلم يترك اجتهاده بل طعن في الحديث ، مثاله ما رواه أصحاب الأصول من ان فاطمة بنت قيس شهدت عند عمر بن الخطاب بأنها كانت مطلقة الثلاث فلم يجعل لها رسول الله نفقة ولا سكنى فرد عمر شهادتها وقال لا نترك كتاب الله الا تتقي الله يعنى في قولها لا نفقة ولا سكنى .

ورابعها : ان لا يصل الحديث أصلا مثاله ما أخرج مسلم أن ابن عمر كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقض رؤوسهن فسمعت عائشة رض بذلك فقالت يا عجباً لابن عمر هذا يأمر النساء ان

ينقضن رؤوسهن من إناء واحد وما أزيد على ان افرغ على رأسي ثلاث افراغات .

(١) ومن تلك الضوب أن يرو رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل فعلاً فحمله بعضهم على القربة وبعضهم على الإباحة مثاله ما رواه أصحاب الأصول في قصة التحصيب أي الترول بالابطح عند النفر من عرفات نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم به فذهب أبو هريرة وابن عمر إلى أنه على وجه القربة فجعلوه من سنن الحج وذهبت عائشة وابن عباس إلى أنه كان على وجه الاتفاق وليس من السنن .

(٢) ومنها اختلاف الوهم : مثاله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حج فرآه الناس فذهب بعضهم إلى انه كان متمتعاً وبعضهم إلى انه كان قارناً وبعضهم إلى أنه كان مفرداً .

(٣) ومنها اختلاف السهو النسيان: مثاله ما روي ان ابن عمر كان يقول اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرة في رجب فسمعت بذلك عائشة فقضت عليه بالسهو .

(٤) ومنها اختلاف الضبط : مثاله ما روى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم من ان الميت يعذب ببكاء أهله عليه فقضت عائشة

عليه بأنه وهم بأخذ الحديث على هذا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية يبكي عليها أهلها فقال أنهم يبكون عليها وانها تعذب في قبرها فظن أن العذاب معلول للبكاء وظن ان الحكم عاماً على كل بيت.

(٥) ومنها اختلافهم في علة الحكم : مثاله القيام للجنازة فقال قائل لتعظيم الملائكة فيعم المؤمن والكافر وقال قائل لهول الميت فيعمها وقال قائل مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة يهودي فقام لها كراهة ان تعلو فوق رأسه فيخص الكافر .

(٦) ومنها اختلافهم في الجمع بين المختلفين : مثاله رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتعة عام خيبر ثم نهى عنها ثم رخص فيها عام أوطاس ثم نهى عنها فقال ابن عباس كانت الرخصة للضرورة والنهي لانقضاء الضرورة والحكم باق على ذلك وقال الجمهور كانت الرخصة إباحة والنهي نسخاً لها .

بالجملة فاختلفت مذاهب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهم التابعون كل واحد ما تيسر له فحفظ ما سمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب الصحابة وعقلها وجمع المختلف

على ما تيسر له ورجح بعض الأقوال على بعض واضمحل في نظرهم بعض الأقوال وان كان مأثورا عن كبار الصحابة كالمذهب المأثور عن عمر وابن مسعود في تيمم الجنب اضمحل عندهم لما استفاض من الأحاديث عن عمار وعمران بن حصين وغيرهما.

فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله وانتصب في كل بلد إمام مثل سعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله بن عمر في المدينة وبعدهما الزهري والقاضي يحيى بن سعيد ربيعة بن عبد الرحمن فيها وعطاء بن أبي رباح بمكة إبراهيم النخعي والشعبي بالكوفة والحسن البصري بالبصرة وطارس بن كيسان باليمن ومكحول بالشام ، فاظمأ الله اكباداً إلى علومهم فرغبوا فيها وأخذوا عنهم الحديث وفتاوى الصحابة واقاويلهم ومذاهب هؤلاء العلماء وتحقيقاتهم من عند أنفسهم استفتى منهم المستفتون ودارث المسائل بينهم وفعت إليهم الاقضية.

وكان سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وأمثالهما جمعوا ابواب الفقه اجمعها وكان لهم في كل باب أصول تلقوها من السلف ، وكان سعيد وأصحابه يذهبون إلى ان أهل الحرمين اثبت الناس في الفقه واصل مذهبهم فتاوى عمر وعثمان وقضاياهما وفتاوى عبد الله

بن عمر وعائشة وابن عباس وقضايا قضاة المدينة فجمعوا من ذلك ما يسره الله لهم ثم نظروا فيها نظر اعتبار وتفتيش فما كان منها مجمعاً عليه بين علماء المدينة فاهم يأخذون عليه بنوا جذهم وما كان فيه اختلاف عندهم فاهم يأخذون بأقواها وأرجحها اما لكثرة من ذهب اليه منهم أو لموافقته لقياس قوي أو تخريج صريح من الكتاب والسنة أو نحو ذلك وإذا لم يجدوا فيها حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتتبعوا الايماء والاقتضاء فحصل لهم مسائل مثيرة في كل باب باب .وكان إبراهيم وأصحابه يرون ان عبد الله بن مسعود وأصحابه اثبت الناس في الفقه كما قال علقمة لمسروق هل أحد منهم أثبت من عبد الله وقول أبي حنيفة رض للأوزاعي إبراهيم أفقه من سالم ولولا فضل الصحبة لقلت ان علقمة أفقه من عبد الله بن عمر وعبد الله هو عبد الله وأصل مذهبه فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا على رضي الله عنه وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة فجمع من ذلك ما يسره الله ثم صنع في آثارهم كما صنع أهل المدينة في آثار أهل المدينة وخرج كما خرجوا فتلخص له مسائل الفقه في كل باب باب.

وكان سعيد بن المسيب لسان فقهاء المدينة وكان أحفظهم لقضايا عمرو ولحديث أبي هريرة وإبراهيم لسان فقهاء الكوفة فإذا تكلما بشئ ولم ينسباه إلى احد فانه في الأكثر منسوب إلى أحد من السلف صريحاً أو ايماء ونحو ذلك فاجتمع عليهما فقها بلدهما وأخذوا عنهما وعقوله وخرجوا عليه .. والله اعلم .

الفائدة الحادية والعشرون :
في بيان أسباب الاختلاف بين الفقهاء والمجتهدين .

اعلم ان هذا الموضوع من أهم الموضوعات في الحياة العلمية والعملية لكل مسلم لأنه يوقف المسلم على براعة أئمة الدين في طرق استنباطهم من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ويورث سكنية وطمانينة في اتباع الأئمة المجتهدين الذين اسلمهم زمام أمره في العبادات والمعادلات والأخلاق والسلوك وجعلهم واسطة بينه وبين ربه تعالى في فهم دينه المبين وامتثال أمره الشريف وهذا السكينة إنما تحصل له بعد بعد الاطلاع على اسباب اختلافهم بقدر ما تيسر له وانهم اختلفوا لا بتغائهم الحق والحقيقة بعد أصول اصلوها وقواعد قعدوها .

ولا ضيرعليهم في ذلك لأنهم طلاب الحق ورواد الدليل لا يخالف غيره عصبية أو تكابراً إنما دعاهم إليه الدخيل الذي بين يدي كل منهم . فكلهم يريدون اتباع الحق والصراط المستقيم لا الزيغ والضلال وكلهم مجتهدون وفقهم الله تعالى للاستنباط والاجتهاد لابقاء الشريعة الغراء يسيرا من الله تعالى على الأمة المرحومة فهذا الاختلاف

ليس من الاختلاف المذموم الذي ذمه الله تعالى في القرآن الكريم بل هو من الرحمة والوسعة التي ترحمها على الأمة لذلك هذا الموضوع في غاية الأهمية في الدين . وهاهنا أذكر نبذة منه نموذجاً لفهم الموضوع ، ولا أقدر التفصيل في هذا المختصر من شاء فليطالع المطولات .

ولا شك ان الأئمة في نفوسهم مترلة عظيمة للحديث والسنة والرغبة الاكيدة على العمل بها كما قال الإمام أبو حنيفة لم تزل الناس في صلاح مادام فيهم من يطلب الحديث فإذا طلبوا العلم بلا حديث فسدوا الميزان الكبرى ج١ ص ٥١ .

وأيضاً قال إياكم والقول في دين الله تعالى بالرواي وعليكم باتباع السنة فمن خرج عنها ضل الميزان ج١ ص٥٠ .

وقال الإمام الشافعي أي سماء تظلني واي ارض تقلني إذا رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً وقلت بغيره (رواه التقي السبكي) وقال مالك رحمه الله السنن سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق (قاله السيوطي في مفتاح الجنة) .

وقال احمد رح من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلاكة قاله ابن الجوزي.

بالجملة ان الأئمة الكرام يعتنون بالسنة اشد اعتناء لا يصرفون إلى الرأي والقياس مهما يبذلون جهودهم في الاستنباط من السنة المشرفة مع ذلك انهم يختلفون فيما بينهم في استنباط المسائل وأسباب الاختلاف فيما فحصنا عنها أربعة :

الأول : الاختلاف في صلاحية الحديث للعمل .

والثاني : الاختلاف في فهم الحديث الشريف .

والثالث : الاختلاف أمام المتعارض من السنة .

والرابع : الاختلاف في سعة الاطلاع على السنة ففي هذا المقام الحض الكلام على كل سبب.

الكلام على السبب الأول أي متى يصلح الحديث للعمل :

وهو يتناول أربع نقاط : ثنتان منها يتعلق بالسند وثنتان بالمتن وهي :

(١) الاختلاف في بعض شروط صحة الحديث .

(٢) هل تشترط صحة الحديث ليعمل به .

(٣) اثبات لفظ الحديث

(٤) اثبات ضبط اللفظ من حيث العربية .

ففي الأول اتفق العلماء على ان شروط الحديث الصحيح خمسة اتصل السند وثبوت عدالة الراوي وثبوت ضبطه وسلامة السند والمتن من الشذوذ ومن العلة القادحة وفي تفصيل هذه الشروط اختلاف بين العلماء كما في ثبوت الاتصال عند المعاصرة وقبول المرسل لاحتجاج وثبوت عدالة الراوي عند قوم دون قوم ووقت دون وقت وثبوت ضبط الراوي استمرارا من التحمل إلى الاداء أو وقت الاداء فقط وغير ذلك .

فللاختلاف في هذه الأمور يكون الحديث صحيحاً متصلا عند قوم وضعيفاً عند قوم مثلاً الحديث المرسل ضعيف غير حجة عند جماهير المحدثين وحجة يعمل به عند جمهور الفقهاء مثل أبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه .

وفي النقطة الثانية اتفق العلماء على ان الحديث إذا بلغ رتبة الصحة أو الحسن كان صالحاً للعمل والاحتجاج واما الحديث الضعيف تذهب الجمهور إلى العمل به في الفضائل ولكن ذهب البعض إلى العمل في الأحكام الشريعة أيضا حتى انهم قدموه على القياس كما هو مذهب الأئمة الثلاثة من أبي حنيفة ومالك أحمد وهو مذهب

جماعة من المحدثين أيضا كأبي داود والنسائي وابن أبي حاكم لكن بشرط ان لا يشتد ضعفه وان لا يوجد في المسألة غيره .

قال الإمام احمد يسأل صاحب حديث ولا يسأل صاحب رأي ضعيف الحديث أقوى من الرأي وهكذا قال الإمام الأعظم أبو حنيفة في مسائل .

وفي النقطة الثالثة أي في ثبوت لفظ الحديث إذا ورد بلفظين يترتب على أحدهما حكم غير الآخر وهذا لأن رواية الحديث بالمعنى جائزة عند جماهير المحدثين بشرائط .

مثاله : روي عن أبي هريرة رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على جنازة في المسجد فلا شيئ عليه وفي بعض الروايات فلا شئ له فمن أخذ بالرواية الاولى اجاز الصلاة في المسجد من غير كراهة وهو مذهب الشافعي ومن أخذ بالرواية الثانية كره الصلاة في المسجد وهو مذهب أبي حنيفة .

وكما روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ما ادركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا وفي رواية ما فاتكم فاقضوا فعلى اختلاف اللفظين اختلف الحكم فعلى الأول الركعة التي ادركها مع

الإمام فهي اول ركعة للمسبوق وعلى الثاني ليست من أول الركعة فاختلفت كيفية أداء صلاة المسبوق كما في الفقه .

وأما النقطة الرابعة . أي اثبات ضبطه من حيث العربية معناه كيف نطق النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة أو نحو ذلك ، فلاختلاف هذه اختلفت الأحكام .

مثاله : ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زكاة الجنين زكاة أمه قال ابن الأثير في النهاية ج٢ ص١٦٤ يروى هذا الحديث بالرفع والنصب ، فمن رفعه جعله خبر المبتدأ الذي هو زكاة الجنين فتكون زكاة الام هي زكاة الجنين فلا يحتاج إلى ذبح مستأنف ومن نصب كان التقدير زكاة الجنين زكاة كزكاة أمه فلما حذف الجار نصب المجرور أو على تقدير يزكي تزكية مثل زكاة أمه فلما حذف المصدر وصفته وأقام المضاف إليه مقامه فلا بد عنده من ذبح الجنين إذا خرج حياً . انتهى وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة .

فعند الاختلاف في هذه النقاط الاربع يظهر الاختلاف بين المجتهدين من حيث الاستدلال والاستنباط .

أما الكلام على السبب الثاني : أي الاختلاف في فهم الحديث الخ

اعلم ان اختلاف الأئمة في فهم الحديث ينشأ من أمرين :

(١) اختلافهم في مداركهم ومواهبهم العقلية .

(٢) كون اللفظ يحتمل أكثر من معنى واحد فالأمر الأول : لا بشك فيه عاقل لأن الناس متفاوتون في مواهبهم العقلية وسعة مداركهم وقوة ملاحظتهم ، وهذا التفاوت قد يكون خلقي وفطري وقد يكون كسبي واستعدادي نتيجة الرحلات العلمية أو مجالسة العلماء أو التجارب وممارسة الناس أو تعاطي بعض الأمور الدنياوية كالتجارة مثلاً .

وقد يهب الله تعالى بفضله لبعض الناس أسباب ذلك [illegible] كله فيجعلهم في فطرتهم ويهب لهم الأسباب الكسبية لذلك أيضاً [illegible] ترنة على فهم وهذا [illegible] نشاهد [illegible] تعالى ذلك لأن الإسلام قاطبة درجة استثناء ولكن لا يلزم من ذلك أن يكونوا كلهم سواء وبذلك ينشأ عن تفاوتهم في هذا الجانب بعض الاختلاف

كما أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله كان عند الأعمش التابعي الشهير إذ سئل الإمام عن مسألة فقال الإمام أقول كذا وكذا فقال الأعمش من أين لك هذا فقال الإمام أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة وعن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود وعن أبي اياس

عن أبي مسعود الأنصاري وكذا وكذا حدث روايات عنه فقال الاعمش حسبك ما حدثتك في مائة يوم حدثتني في ساعة ما علمت انك تعمل بهذه الأحاديث يا معشر الفقهاء انتم الاطباء ونحن الصيادلة وأنت أيها الرجل أخذت بكلا الطرفين مختصراً الجواهر المطيئة ج١ ص٤٨٤.

وكذا قال الإمام احمد للشافعي ما تقول في مسألة كذا وكذا فأجابه فيها فقال أحمد من أين قلت هل فيه حديث أو كتاب قال أحمد فترع الشافعي في ذلك حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم وهو حديث نص رواة السبكي في كتابه معنى قول الإمام المطلبي ص٩٩ .

وكما روي الخطيب في تاريخ بغداد ١١/١٥٨ ، في ترجمة عيسى بن ابان أحد رجال الحديث والفقه الحنفي عن محمد بن سماعة أنه قال قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني يوماً يا بني ما الذي رأيتنا نخالفه من الحديث لا تشهد علينا حتى تسمع منا .

فسأله يومئذ عن خمسة وعشرين باباً من الحديث فجعل محمد بن الحسن يجيبه عنها ويخبره بما فيها من المنسوخ ويأتي بالشواهد والدلائل فالتفت عيسى بن ابان اليّ بعد ما خرجنا فقال كان بيني وبين النور ستر فارتفع عني ما ظننت ان في ملك الله مثل هذا الرجل يظهره

للناس ولزم محمد بن الحسن لزوماً شديداً حتى تفقه به وغير ذلك من الاخبار التي تدل على قوة مداركهم .

وأما الأمر الثاني الذي ينشأ عنه احتلاف الأئمة بسبب الفهم فهو كون الحديث تحتمل الفاظه أكثر من معنى واحد وهذا أمر واقع مشهود أيضا ، ويشترط لصحة هذه المفاهيم المختلفة .

(١) أن تكون مقبولة سائغة من حيث العربية ولا تنافي معها أولا يكون فيها تعسف وتكلف.

(٢) وان لا تتنافي مع أحكام أخرى ثابتة في نصوص أخرى فح يرجح الأئمة أحد المعاني المختلفة بالقرائن والشواهد مثاله ما قد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم المتبائعان بالخيار ما لم يتفرق فاختلف العلماء في معنى التفرق هل هو بالابدان أو بالأقوال والى الأول ذهب الإمام الشافعي وغيره واحتجوا على صحة قولهم بالأثر والعقل والى الثاني ذهب الإمام أبو حنيفة وغيره وهم أيضا احتجوا بالآثار والنظر وكل هذه موجودة في كتب شروح الحديث وهذا المثال كما يصلح مثالاً للثاني يصلح مثالاً للأول أيضا .

وليتنبه ان هذه الأحكام الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة هي من الدين منسوبة إلى الكتاب والسنة وليست أجنبية عنهما وكما أن الكتاب والسنة هم مصدران الأساسيان للإسلام ففقههما المستنبط منهما تابع لهما في المكانة لا يجوز فصله عنهما الا ما يدخل تحت قول الإمام الاوزاعي من أخذ بنوادر العلماء خرج عن الإسلام كما في تذكرة الحفاظ صـ١٨٠ .

ومثله قول سليمان التميمي في التذكرة صـ١٥١ لو أخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله . وقد نبه إلى هذا المعنى الإمام عبد الله بن المبارك بقوله لا تقولوا رأي أبي حنيفة ولكن قولوا أنه تفسير الحديث كما في الجواهر المضيئة ج٤ ص٤٦٠ . وكذا روي عن الإمام الشافعي جميع ما تفوله الأئمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن كذا في الموافقات .

وقال الحافظ أنور الكشميري في الفيض ج١ ص ٣٦٩ ، الفقه لا يتم بدون الحديث لأن المرأ إذا مر بالحديث وجل نظره فيه وفهم مداركه ومعانيه استقر على الفقه وسكن قلبه حيث لم يجده رايا محضا غير مستند إلى دليل سماوي وكذلك الحديث لا يستقر مراده ولا

ينقطع بمجملاته بدون المراجعة إلى أقوال الفقهاء ومذاهب الأئمة فـإذا ادرأها وامعن النظر فيها تبين له الوجوه ولم يبق له فيما سواها مساغ.

فالفقه محتاج إلى الحديث في نفسه والحديث محتاج إليه للعمل ، ففقه الفقهاء أبي حنيفة وغيره من أئمة الإسلام في عشرات آلاف المسائل الفقهيه إنما هو تفسير لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وليس هو بدخيل على الإسلام ولا برأي لهم تابع من مخترعات عقولهم غير معتمد على مصدر تشريعي أصيل

أما الكلام على السبب الثالث أي اختلاف مسالكهم امام المتعارض من السنة لا يخفى على المبتدي بالعلم الشريف انه كثيراما ترد في المسألة الواحدة احاديث مختلفة في مدلولها على الحكم وقد يكون اختلافها على اكثر من معنيين فكيف الحل لهذا الأمر المشكل فيستفاد لهذا من علمين عظيمين علم الحديث وعلم أصول الفقه لأن الاطلاع على أحاديث المسألة وما فيها من أثار التي تتعلق بها بصلة قريبة أو بعيدة وكذا الاستفادة من قواعده وأحكامه المقررة على ضوء نصوص أخرى من الكتاب والسنة لازم للباحث الفقيه وإلا لم يمكن التكلم في هذا الموضوع .

فللعلماء في هذا مسالك : (١) الجمع بين المتعارضين وتاويلهما والتوفيق بين معانهما (٢) فان لم يمكن الجمع سلكو مسلك دعوي النسخ أي نسخ أحدهما للآخر (٣) فان لم يمكن ذلك و لم تساعد القرائن عليه سلكو مسلك الترجيح فيرجحوا أحدهما على الآخر وبعضهم قدم الثالث على الثاني جمع فترجيح فنسخ وبعضهم قدم الترجيح على الجمع لأن النفس تميل إلى ما هو راجح وعند الشيخ الحافظ الكشميري النسخ ثم الترجيح ثم الجمع ثم التوقف وعند العبد الضعيف هذا هو الراجح وأما دعوي النسخ فلا بدله من قرائن وتسمى معرفات النسخ وهي أربعة :

١- أولها ما يعرف بصريح رسول الله صلى الله عليه وسلم كحديث مسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها .

٢- ما يعرف بقول الصحابي كحديث النسائي عن جابر بن عبد الله كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار .

٣- ما يعرف نسخه بالتاريخ كحديث شداد بن اوس افطر الحاجم والمحجوم وفي بعض رواية ان ذلك كان سنة ثمان من الهجرة نسخة حديث ابن عباس احتجم النبي صلى الله عليه وسلم وهو محرم

صائم وفي بعض رواية ان ذلك في حجة الوداع ستة عشر . وقد يعرف النسخ من القرآن المشيرة إليه كان يكون صحابي هذا الحديث متأخر الإسلام وصرح بسماعه للحديث فيكون ناسخاً لحديث رواه آخر متقدم الإسلام وقد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم حين إسلامه وغير ذلك من القرائن .

٤- ما يعرف نسخه بانعقاد الإجماع على خلافه فإن لم يمكن دعوى النسخ ينتقل الناظر إلى الترجيح بين الحديثين فانه متى يعلم نسخه لا يعمل به ومتى يعلم أحدهما راجحاً فلا يترل إلى غير الراجح بل يعمل بالراجح وموضوع الترجيح بين الحديثين أمر صعب وشاق لأنه يتطلب دراية ورواية فالدراية تحتاج إلى فهم المعنى ونظر ثاقب والرواية تحتاج إلى اطلاع على كل كلية وجزئية تتصل بأحاديث المسألة الواحدة بأسانيدها تاريخهم وأوصافهم وألفاظها ومتونها ومشاكلها .

وقد تعب علماء الأصول في تحقيق وجوه الترجيح بين المتعارضين وقد تعرض الحازمي لهذا في كتابه الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الاثار فذكر خمسين وجها من وجوه الترجيح وجاء الحافظ العراقي فزاد على تلك الخمسين التي عدها الحازمي وسرد

وجوه الترجيحات مائة وجه وعشرة وجوه وقال في آخر كلامه وثم وجوه آخر للترجيح في بعضا نظر (حاشية على ابن الصلاح ص٢٥٠) .

ومن هنا ندرك جهل بعض من قال حديث الصحيحين راجح على غيرهما دون أي وجه من هذه الوجوه الكثيرة لأن الحافظ العراقي لما ذكر هذه الوجوه مرتبة متتالية ذكر هذا الوجه أي ان الوجه الثاني بعد المائة كون الحديث المروي في الصحيحين راجحاً على حديث آخر غير مروي فيهما .

بالجملة يرجح أحد المتعارضين بأصول الترجيحات ، وأما ان لم يمكن الترجيح فيجمع بين المتعارضين وفي هذا المقام للفهم حظ اوفر فلو يدعي بعض العلماء تعذر الجمع فيفتح الله تعالى لبعض آخر وجهاً للجمع ولذلك اكد العلماء ضرورة التثبت والثاني في دعوى تعذر الجمع وإذا تعذر الجمع وتعذر حل التعارض من أي سبيل فيتوقف على الحديثين ولا يحكم بهما شيئاً وهذا نادر جداً عن أئمة المجتهدين .

ولأئمة السابقين عناية كبرى بجمع الأحاديث المختلفة ظاهراً على صعيد واحد ثم النظر فيها فالف الإمام الشافعي كتاب اختلاف الحديث ولابن قتيبة تأويل مختلف الحديث ولابن جرير الطبري تهذيب

الآثار ولامام الطحاوي كتابان عظيمان في هذا الصدد : أحدهما شرح معاني الآثار ، وثانيهما شرح مشكل الآثار وغير ذلك من مولفات خاصة وأبحاث وأقوال متفرقة في الكتب .

أما الكلام في السبب الرابع أي الاختلاف في سعة الاطلاع على السنة قال الإمام الشافعي في الرسالة صـ٤٢ لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيئ فلا يمكن لاحد ان يدعي لنفسه أو ان يدعي له غيره جمع السنة كاملة فيه وليس معنى التفاوت في حفظ السنة والاطلاع عليها ان يكون الاكثر اطلاعا هو المقدم على الجميع في حقية تقليده مثلاً فقد يكون لذا من الترجيح على غيره كثرة اطلاعه ولكن يكون لغيره من الترجيح عليه علو كعبه في الفقاهة والاستنباط .

والشرط في الأصل سعة اطلاعه على السنة ، ان الحديث الشريف تحمل وسماع من جهة ورواية وأداء من جهة أخرى فالمحدث يتلقى الحديث من شيوخه أولا وهذا يسمونه بالتحمل ثم يرويه على الناس وهذا يمونه بالأداء فإذا توفر على الرواية ظهرت للناس مرويات له تكون عنواناً على كثرة تحمله أو قلة تحمله وإذا شغل بغير الرواية لم يكن ما يرويه دليلاً على نسبة تحمله قليلاً أو كثيراً .

فأبو بكر الصديق أول الرجال اسلاماً وألزمهم للنبي صلى الله عليه وسلم صحبة واعلم الصحابة كما شهدوا له بذلك مع ذلك لم ينقل الينا من مروياته الا القليل جداً وكذا حال عمر بن الخطاب وعلي وعثمان رضوان الله عنهم أجمعين وكذا وكذا عدد وفير من التابعين واتباعهم وكذا حال الإمام مالك كما عبر عنه الإمام الشافعي إذا جاء الأمر فمالك النجم وهو الذي قال كتبت بيدي مائة ألف حديث كما في ترتيب المدارك ج١ /١٢١ .

وكذا حال الإمام الشافعي أيضا فليس في كتبهما من وفرة الحديث وعذرهما في ذلك أنهما تفرغا الفقه والتفقيه والاجتهاد والاستنباط وتأصيل أصول الفقه أكثر مما تفرغوا للرواية لا انهما قليل المعرفة والاطلاع على الحديث بل انهما كثير التحمل قليل الاداء وهكذا حال امامنا الأعظم أبي حنيفة كان كثير التحمل وقليل الاداء يدل على ذلك لصراحة عدة أخبار.

ومنها قال الزبيدي في عقود الجواهر المنيفة صـ٣٢ روي يحيى بن نصر قال دخلت على أبي حنيفة في بيت مملوء كتباً فقلت ما هذه قال هذه أحديث كلها وما حدثت به الا اليسير الذي ينتفع به وتقل على القاري عن محمد بن سماعة ان اباحنيفة ذكر في تصانيفه نيفاً

وسبعين ألف حديث وانتحب الآثار من أربعين ألف حديث ، وروي عن الإمام احمد رحمه الله ان من حفظ اربع مائة ألف حديث قد يصلح للاجتهاد والفتوى .

وقد اعترف الأئمة المعاصرون ومن بعدهم لأبي حنيفة بالفقه والاجتهاد بل ان الناس كلهم عيال في الفقه على مائدته ، وفي الخيرات الحسان صـ٢٣ ، عن الرز نجري قال أمر الإمام أبو حفص الكبير بعد مشايخ الإمام أبي حنيفة فبلغوا أربعة آلاف من التابعين وهذا عدد كبير لا يكاد يذكر لغيره من الأئمة المتفرعين للحديث وكذا في الخيرات الحسان صـ ٢٥ .

قال أبو يوسف ما رايت أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة وكان أبصر بالحديث الصحيح مني ، والإمام أبو يوسف هو الذي قال في حقه يحيى بن معين : ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث ولا احفظ ولا اصح رواية من أبي يوسف كما حكاه الذهبي في مناقبه صـ٤٠ وفيه أيضاً صـ٦١ عن أبي يوسف قوله كان أبو حنيفة إذا صمم على قول درت على مشايخ الكوفة هل أجد في تقوية قوله حديثاً أو اثراً فربما وجدت الحديثين والثلاثة فاتيته بها فمنها ما يقول

فيه هذا غير صحيح أو غير معروف فأقول له وما علمك بذلك مع أنه يوافق قولك فيقول انا عالم بعلم أهل الكوفة .

والكوفة نزل فيها من الصحابة ألف وخمس مائة صحابي فملؤها علماً بل ملأها ابن مسعود وحده علماً بشهادة على رضي الله عنه بذلك ، والى جنب هذا ضم ما قال الحاكم في كتابه معرفة علوم الحديث ص ٢٤٠ ، نوعاً خاصاً هو النوع التاسع والأربعون قال في أوله هذا النوع من العلوم معرفة الأئمة الثقات المشهورين من التابعين وأتباعهم ممن يجمع حديثهم للحفظ والمذاكرة والتبرك بهم وبذكرهم من الشرق والغرب .

فذكر من أهل المدينة ٤٠ راوياً ومن أهل مكة المكرمة ٢١ راوياً وذكر من أهل كوفة ٢٠١ راوياً وعد من بينهم الإمام أبا حنيفة ولم يقتصر علمه على حديث بلده بل له اطلاع قام على حديث الحجاز بين أيضا وذلك في أيام مقامه بمكة المكرمة حين غادر الكوفة إلى مكة نتيجة الحاح يزيد بن عمر بن هبيرة عليه ان يلي القضاء وهو يأبى وكان سنة ثلاثين ومائة ولم يرجع إلى الكوفة حتى تولى السلطة

أبو جعفر المنصور سنة ست وثلاثين ومائة كما في عقود الجمان صـ ٣١٢ .

وهذه فترة في حياة الإمام ليست بقصيرة أقام فيها بمكة المكرمة موئل العالم الإسلامي ، فلذا تجد في مشايخهم كثيرة من المكيين والمدنيين وبلاد أخرى كثيرة ، بالجملة مع ذلك فكلنا يقر بأن أبا حنيفة بانفراده لم يجمع السنة كلها وان الشافعي بانفراده لم يجمع السنة كلها وهكذا القول في مالك وأحمد والثوري والليث بن سعد والأوزاعي وفيه دلائل وشواهد لا يسعها هذا المختصر ولا بأس أن اذكر أمثلة على فوت بعض لسير من السنة لبعض الأئمة :

(١) قال عيسى بن ابان لما قدم أبو يوسف بغداد كان على قول أبي حنيفة في جواز بيع الاوقاف حتى حدثه إسماعيل بن علية عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر في صدقة عمر لسهامه من خيبر فقال أبو يوسف هذا ما لا يسع خلافه ولو تناهي هذا إلى أبي حنيفة لقال به ولما خالفه .

(٢) في تقدمة الجرح والتكميل لابن أبي حاتم صـ ٣١ روي بسنده قال ابن وهب سمعت مالكاً سئل عن تخليل اصابع الرجلين في الوضوء فقال ليس ذلك على الناس قال ابن وهب فتركته حتى

خف الناس فقلت له عندنا في ذلك سنة فقال ما هي قلت حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحن الحبلي عن المستورد بن شداد القرشي قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يد لك بخصره ما بين أسابع رجليه قال مالك ان هذا الحديث حسن وما سمعت به قط الا الساعة ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيامر بتخليل الاصابع .

(٣) روى البيهقي في مناقب الشافعي ج١ صـ٥٢٨ ، عن الإمام احمد بن حنبل قال قال لنا الشافعي انتم اعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث الصحيح فاعلموني ان شاء يكون كوفياً أو بصرياً أو شامياً حتى اذهب إليه إذا كان صحيحاً .

(٤) وفي كتاب الروح لابن القيم ص١٣ ان احمد بن حنبل يقول ان القراءة عند القبر بدعة ولما اخبره محمد بن قدامة عن مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له احمد فارجع وقل الرجل يقرأ وغير ذلك من الاخبار التي تدل على فوات حديث لإمام من الأئمة و استدركها عليهم بعض اصحابهم في حال حياتهم أو بعد مماتهم ولا غضاضة عليهم

في ذلك مع ملاحظة ندرتها فلا يحيط بالسنة النبوية أحد والكمال لله ولهذا السبب اختلف الأئمة في استنباط المسائل ـ فبعضهم اطلع على حديث و لم يطلع به غيره فاختلفوا . فههنا شبهة قوية يقول قائل إذا كنت أقمت الدليل على ان الأئمة قد فاتهم بعض الشئ يمكن أن يفوتهم غيره في المسائل الأخر أيضا فكيف الطمانينة في مذهبه ؟

فالجواب بأنه إذا فات الإمام منهم بعض الحديث اليسير فقد اشتركه أصحابه واستقر مذهبه على التمام من قبل مجموعة كبيرة من أصحابه كأبي يوسف ومحمد من أصحاب أبي حنيفة والمزني والبويطي من أصحاب الشافعي واشهب وابن القاسم من أصحاب مالك وحوهم من أصحاب أحمد .

وإذا كان قد فاته هذا الشئ الذي لا يذكر وهو الإمام المجتهد في العصر الذهبي للإسلام فلأن يفوت المقتدي المتأخر في آخر الصفوف أشياء و أشياء من الامهات من باب أولى والذي فات الإمام جزء يسير تتعذر الأمثلة عليه لندرته فليس من منطق العقل والعلم ان نسحب حكم النادر على الكل بل المنطق يقضي بسحب الكل على النادر أي لا نقول لم يطالع الإمام على هذا حديث فحكم بكذا في

مسألة كذا فمن المحتمل أنه لم يطالع على هذا الحديث أيضا لذلك حكم بهذا الحكم في مسألة كذا وهكذا ينسحب هذا الاحتمال في أحكام الإمام كلها .

بل نقول لقد اطلع الإمام على دليل مسألة كذا فحكم بمقتضاه واطلع على دليل المسألة الثانية فقال به وهكذا آلاف من المسائل اما هذه المسألة بعينها وهي مسألة واحدة من آلاف المسائل فلم يطلع على دليلها فيقف حكمنا عندها ولا يتجاوزها لجزمنا باطلاعه على أدلة غيرها وهو كثير جداً لا يحصى .

يقال ان اقل ما قيل في عدد المسائل التقديرية في فقه الإمام أبي حنيفة ثلاث وثمانون ألف مسألة فما نسبة المسائل التي خفي دليلها على الإمام وقول بعض الناس ان كتب السنة اليوم كثيرة وتوافرها للباحثين ميسور اكثر من توافرها للسابقين فمن السهل ان يعتمد عليها ويوخذ بالثابت منها ويترك غيره ويسهل تثبت الأحكام الفقهية التي دل الدليل عليها وتنقيح الفقه مما لا دليل عليه فالجواب من ذلك بوجوه :

(١) ان اوسع كتب السنة اليوم هو كنز العمال للمتقي الهندي وفيه اكثر من ستة وأربعين ألف حديث لا ان الاستفادة منه على النحو

الذي أراد القائل غيرتيسرة إذ ان كثراً من مصادره غير متيسر للرجوع إليه وتحقيق أسانيده وحينئذ يبقى الأمر معلق على البت في اسانيده .

(٣) ان عدد احاديث كتر العمال يقل كثراً عما ينقل عن الأئمة المجتهدين من الأحاديث التي تحملوها وسمعوها وقد تقدم ان عدد الأحاديث التي ذكرها الإمام أبو حنيفة في تصانيفه نيف وسبعون ألف حديث فضلا عما لم يذكره وانه انتخب الآثار فقط من أربعين ألف حديث وروى عن ابن الهياب ان مالكاً روى مائة ألف حديث فضلاً عما تحمله ولم يروه ومشهور ان الإمام احمد انتقى مسنده من نحو خمسين الفاً وسبعمائة ألف حديث .

(٤) ولو فرضنا أيضا ان الأحاديث الموجودة كافية للاجتهاد فان توافر الأحاديث وحدها غير كاف للاجتهاد فأين الشروط الأخرى للاجتهاد من كونه اماماً في كافة علوم الإسلام اماماً في أصول الدين والتفسير والفقه وأصوله واما ما في العربية بمختلف فنونها نحوها وصرفها ولغتها واستقاقها وعلوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع مع تحليه بالعمل الصالح والعبادة والتقوى والورع والزهد وتهذيب النفس واتصافه بكمالات الإسلام فيكون اماماً في

هذا الجانب فاتضح من ذه بأن لا مجال الانكار عن تسليم مذهب إمام من الأئمة المتبوعة .

وقال الشيخ ولي الله رحمه الله في الإنصاف كلاماً جملا وغامضاً حاصله ان الله تعالى أنشا قوما مجتهدين بعد عصر التابعين كان صنيعهم في اخذ الدين من ثلاثة وجوه :

(١) ان يتمسك بالمسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرسل ويستدل باقوال الصحابة والتابعين علما منهم انها اما احاديث منقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم اختصروها فجعلوها موقوفة أو يكون استنباطا منهم من النصوص أو اجتهادا منهم باراءهم وهم احسن صنيعاً في كل ذلك ممن يحيى بعدهم واكثر اصابة واقدم زماناً واوعى علماً فتعين العمل بها الا إذا اختلفوا وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف قولهم مخالفة ظاهرة .

(٢) انه إذا اختلفت احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة رجعوا إلى أقوال الصحابة فان قالوا بنسخ بعضها أو بصرفه عن ظاهره أو لم يصرحا بذلك ولكن اتفقوا على تركه وعدم

القول بموجبه فانه كابداء علة فيه أو الحكم بنسخه أو تاويله اتبعوهم في كل ذلك .

(٣) وانه إذا اختلفت مذاهب الصاحبة والتابعين في مسالة فالمختار عند كل عالم مذهب أهل بلده وشيوخه لأنه اعرف بصحيح اقاويلهم من السقيم واوعى للأصول المناسبة لها وقلبه أميل الى فضلهم وتعهجرهم فان اتفق أهل البلد على شئ أخذوا عليه بالنواجذ وان اختلفوا أخذوا بأقواها وارجحها أما كثرة القائلين به أو لموافقته فقياس قوي أو تخريج من الكتاب والسنة فان لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم وتتبعوا الايماء والاقتضاء .

وقال الشيخ في صـ ٥٠ كان عندهم انه إذا في المسألة قرآن ناطق فلا يجوز التحول منه إلى غيره وإذا كان القرآن محتملا لوجوه فالسنة قاضية عليه فإذا لم يجدوا في كتاب الله أخذوا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كان مستفيضاً دائراً بين الفقهاء أو يكون مختصا بأهل بلد أوَ أهل بيت أو بطرق خاصة وسواء عمل به الصحابة والفقهاء أو لم يعملوا به .

ومتى كان في المسألة حديث فلا يتبع فيها خلافه اثراً من الآثار ولا اجتهاد أحد من المجتهدين وإذا افرغوا جهدهم في تتبع الأحـــاديث ولم يجدوا في المسألة حديثاً أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتـابعين ولا يتقيدون بقوم دون قوم ولا بلد دون بلد كما كان يفعـــل مـــن قبلهم.

فان اتفق جمهور الخلفاء والفقهاء على شئ فـــهو المتبـــع وان اختلفوا اخذوا بحديث أعلمهم علماً أو اورعهم ورعـــاً أو أكـــثرهم ضبطاً أو ما اشتهر عنهم فان وجدوا شيئاً يستوي فيه قـــولان فـــهي مسألة ذات قولين فان عجزوا عن ذلك تاملوا في عمومات الكتـــاب والسنة وايماءاتها واقتضاءاتها وحملوا نظير المسألة عليها في الجـــواب إذا كانتا متقاربين بادي الرأي لا يعتمدون في ذلك علـــى قواعـــد مـــن الأصول ولكن على ما يخلص إلى الفهم ويثلج به الصدر كما انه ليـس ميزان التواتر عدد الرواة ولا حلهم ولكن اليقين الذي يعقبه في قلـــوب الناس انتهى.

إنما ذكرنا في هذا الموضوع هذه الكلمات نموذجاً لفهم الموضوع والله اعلم .

الفائدة الثانية والعشرون :

في بيان فتنة إنكار الحديث النبوي صلى الله عليه وسلم

اعلم أن هذه الفتنة فتنة عظيمة تتزلزل منها أصول الدين جملة ويسرى أثرها في جميع أبوابه والحق أنها استيصال للدين بتة وكانت الأحاديث الصحاح من عهد نزول الوحي إلى اختتام المائة الأولى مقبولة ومحتجة عند جماهير الأمة من غير شك وشبهة سواء كانت في العقائد أو الأعمال أو الأخلاق والمعاملات أو غيرها إلى أن الفرقة المعتزلة التي رأسها واصل بن عطاء المتوفى سنة ٨٠ أحدثوا فتنة حديثة في الإسلام وقالوا أن ميزان قبول الأحاديث ومعيار صحتها العقل فما يبعده العقل لا يصح بل يترك و إنما قالوا هذا بسبب تغلب الفلسفة على عقولهم ولذلك أنكروا عذاب القبر والحشر بالأجساد ورؤية الباري والصراط والميزان ووجود الجنة والنار حالاً وغير ذلك من الحقائق الثابتة والأمور الحقة التي يقصر العقل عن إدراكها ظاهراً لكن تثبت بنصوص القرآن والحديث قطعاً ثم اتسعت تلك الفتنة حتى أنكر بعضهم حجية الحديث مطلقاً وبعضهم اعترفوا التواتر حجة ولكن أنكروا العزيز والغريب يعني أخبار الآحاد وقالوا أنها ليست حجة مطلقاً .

ونشأت فرق كثيرة في ذلك إلى عهدنا هذا وأول من نبه على ذلك وتصدي برده هو الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في الجزء السابع من كتابه " الأم" ثم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى صنف رسالة مستقلة على وجوب إطاعة الرسول ورد على من أنكره رداً بليغاً وقد نقل حصة منها الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين ، ثم استأصل ذاك وفصل حق التفصيل الحافظ أبو عمرو بن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم والعلماء" .

وكذلك بين ذلك الإمام الحاكم في كتابه " الأحكام " ثم الإمام الغزالي في كتابه " المستصفي" ثم الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير اليماني في " الروض الباسم " وكذلك ذكره الحافظ السيوطي في كتابه مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة " حتى إلى عهدنا قد صنفت رسائل كثيرة على رد تلك الفتنة واستحسنا أن نذكر أقوال جماعة من هؤلاء المنكرين مع الرد عليهم الذين نشئوا في شبه قارة الهند فمنهم عبد الله الجكر الوى المؤسس لفرقة أهل القرآن يقول أقوالاً خبيثة في شأن الأحاديث أذكر نبذة منها:

(١) يقول في ترجمة القرآن بآيات القرآن صـ٩٧ تحت قوله تعالى وما كان للمشركين الخ أن تقديم أقوال الأنبياء والمرسلين و

أفعالهم في جنب كتاب الله يعني تقديم الأحاديث قولية كانت أو فعلية أو تقريرية في جنب كتاب الله مرض قديم والذين قابلوا الرسول عليه السلام وخاطبهم الرسول فهم كانوا أهل حديث قطعاً ويقيناً .

- : **المناقشة** : -

كيف قال هذا القول ؟ لأنه يظهر منه أن الذين خالفوا الرسول وقابلوه من الكفار والمشركين مثل أبي جهل وأبي لهب وعتبة وشيبة وأمية بن خلف ووليد بن المغيرة وغيرهم أنهم كانوا أهل حديث وحفاظاً لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهل يقال بأن أهل الحديث الذين احتجوا باحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم هم كفار ومشركون مثل هؤلاء الكفار نعوذ بالله.

(٢) وكذا يقول في ترجمة القرآن صـ٩٨ـ المراد بالإشراك لكتاب الله أنه كما يعتمد على أحكام القرآن كذلك يعتمد في دين الإسلام لكتاب آخر أو يقول شخص آخر أو فعله سواء كانت تلك الأقوال والأفعال للأنبياء أو الرسل فكما أن الشرك موجب للعذاب فكذلك حسب الآيات من قوله تعالى " ان الحكم الا الله وقوله تعالى : الا له الحكم وقوله : ولا يشرك في

حكمه أحداً ، إن الشرك في الحكم أعني تسليم أحكام غير الله في المسائل الدينية مبطل الأعمال وموجب العذاب الدائمي والأسف بأن أكثر الناس مبتلون في ذلك الشرك بالحكم .

الرد والمناقشة :

كيف قال هذا الجاهل بأن حكم النبي شرك والله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء عليهم السلام ليحكموا بين الناس بما أراهم الله يقول الله تعالى " يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ٣٧/٢٦ وقال تعالى : إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . وقال الله تعالى " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " ٢٤/٤٥ ، وقال تعالى " من يطع الرسول فقد أطاع الله " ٤/٨٠ ، وقال تعالى " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى " ٥٣/٤ ، وغيرها من الآيات التي تدل على أن أحكام الرسول في المسائل الدينية ليست من الشرك في الحكم كما هو الظاهر .

(٣) وكذا يقول في ترجمة القرآن صـ٤٢ لم يثبت في أي موضع أنه نزل على الرسول مع القرآن شئ آخر فلو حكم أحد في مسألة من دين الإسلام بشئ آخر سوى القرآن فهو حسب الآيات من قوله تعالى : " من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الكافرون"٥/٤٤ ، وفي آية أخرى "هم الفاسـقون" ٥/٤٧ ، وفي آية أخرى " هم الظالمون " ٥/٤٥ كافر ، فاسق ، ظالم .

الرد والمناقشة : -

هذا الذي قاله الجاهل لا يعلم حقيقة الشئ لأن الله تعالى يقول : وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وقال قتادة الحكمة أي السنة وقال الإمام الشافعي في كتاب الرسالة : وسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة سنة رسول الله صلة الله عليه وسلم وقال تعالى : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" ٥٣/٤ ، الوحي هو الحديث الذي نزل على الرسول صلى لله عليه وسلم وحياً خفياً وما يقضي الرسول ويحكمه فهو في الحقيقة حكم الله تعالى وقضاءه كما قال تعالى : إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله والذي أراه الله تعالى للرسول من الحكم فهو الحديث الموحي اليه بل الله تعالى قال فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ٤/٦٥. فظهر من هذه الآية الكريمة ان الذي لا يرضى بقضاء الرسول وحكمه ولا يسلمه فهو ليس بمؤمن .

هكذا تفوه عبد الله الجكرالوي كثيرا من التفوهات في أمور الدين وكل ذلك من نتيجة فكر إنكار حجية الحديث أعاذنا الله .

ومنهم الحافظ أسلم الجيراجبوري أستاذ غلام أحمد فرويز وكان أبوه مولانا سلامة الله البهوفالي منكر للتقليد الشخصي ومن نتيجته صار ابنه أسلم منكرا لحجية الحديث فتفوه بتفوهات باطلة :

(١) يقول أسلم في كتابه " مقام حديث " (ص١٦٩ ج١) ليس إيماننا على الحديث وما أمرنا على الإيمان به وليس إيماننا على راوي الحديث وما أمرنا بالإيمان به وليس إيماننا على رجال السند للحديث . وما أمرنا بالإيمان به فما أعجب أن نسلم لهذه الأمور التي هي غير يقينية وغير إيمانية مثل القرآن حجة .

-: الرد والمناقشة : -

كيف قال أنه لم يؤمر بالإيمان على الحديث لأنه حكم الرسول صلى الله عليه وسلم وقضاءه قولا أو فعلا أو تقريرا وقد قال الله سبحانه وتعالى " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (نساء ٤/٦٥) .

لو لم يكن قضاء الرسول وحكمه حجة ملزمة لم يقـــل الله تعـــالى حكموك في مكان يحكموا القرآن و لم يقل قضيت في محل قضى القرآن أشار بأنه هو الإيمان المأموربه فما قال الأسلم فهو ليس بسديد .

٢) وكذا قال في مقام حديث ص١٥٧ ج١ وهو يفسر قوله تعالى " ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علـــم لقمان ٦/٣١) .

يقول : الذي يشتري الاشتغال بالحديث ليضل الناس عن ســـبيل الله غير علم فهو مراد الله تعالى من هذه الآية .

رد والمناقشة : -

كيف قال ؟ هذا تحريف في معنى القرآن ، لأنه قد فسر لهـــو حديث بالغناء عبد الله بن مسعود وابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد ن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شـــعيب والحســـن البصـــري غيرهم وهذا القائل لا يعلم أنه كان أبوه سلامة الله أهل حديث فعلي له كان أبوه ضالا عن الهداية فيا للعجب .

(٣) وكذا قال في مقام حديث ج١ صـــ١٥٥ أينما أمر في ران بإطاعة الله ورسوله فمراده إطاعة إمام وقته أعني مركـــز الملـــة تى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودا في الأمة فاطاعتـــه

كانت إطاعة الله وبعده إطاعة خلفاءه الأحياء تكون إطاعة الله ورسوله والإطاعة في اللغة العربية امتثال الحي وليست إطاعة الرسول بأن نمتثل بعده كل شئ ينسب إليه باسمه بعده .

الرد والمناقشة :

هذا الذي قاله فهو أولاً : تحريف في معاني القرآن لان تفسير الآية أطيعوا الله أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم بأن المراد منها إطاعة مركز الملة ما فسرها المفسرون فهو تفسير بالرأي.

وثانياً : لوكان المراد مركز الملة وامام الوقت فما ذا المعنى بقوله بعده و أولي الأمر منكم .

وثالثاً : يلزم له أن يفسر الآية بالقرآن وليس هذا المعنى ثابت بآيات القرآن فهذا قول على خلاف أصوله .

ورابعاً : أن الخلافة كانت متحدة في اوائل الوقت وفي آخرها تفرقت وانقسمت فلم تكن مركز الملة واحدة و لم يلتزموا بإطاعة مركز الملة وجم غفير من الصحابة كانوا موجودين فهل يقال أنهم كانوا منحرفين عن إطاعة الرسول وصار كافرين ومرتدين ؟ والعياذ بالله

خامساً : لو كانت إطاعة الرسول مختصة بحياة الرسول فقط فبعد وفاته تنعدم الإطاعة إلى يوم القيامة فكيف تكون رسالة الرسول باقية دائمة حتى تثبت ختمها فلم تثبت خاتمية الرسول العياذ بالله —

وسادساً : الإطاعة لغة الامتثال مطلقاً سواء كان لحي أو لميت كما في موطأ مالك صـ ١٦٥ قصة الامرأة المخزومة قيل لها أن الذي نهاك (أي عمر) قد مات فاخرجي فقالت ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً وغير ذلك من المناقشات والردود عليه فما قال أسلم كله باطل .

ومنهم : علام أحمد برويز هذا تلمذ على اسلم الجيراجبوري . وادعى باقاويل باطلة يقول :

(١) في شأن الأحاديث في الجريدة طلوع الإسلام ٢٩ اكتوبر ١٩٤٩م كتب الأحاديث التي عندنا موجودة لا يقال بأن حديثاً واحداً منها أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ، بل كله من الرواية بالمعنى وكذا قال في مقام حديث ج١ صـ٥١ كتب الأحاديث التي بأيدينا فألفاظها لم تكن من رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه كلها من الروايات بالمعنى .

الرد والمناقشة : الذي قاله غلام أحمد فهو سفسطة وقول باطل .

أولاً : انظر إلى أحوال الصحابة والتابعين والحفاظ المحدثين كيف احتاطوا في رواية الحديث وتيقظوا في حفظ الألفاظ وما فيه شك يقولون بالشك ، فادعاه بأنه لم يكن حديث واحد من لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم فهو باطل قطعاً .

وثانياً : لو كان بعض الأحاديث بالرواية بالمعنى فهو أقل قليل نبه عليه المحدثون أيضاً ببحث وتحقيق فعلى هذا أيضاً الادعاء بأن كلها رواية بالمعنى باطل .

وثالثاً : اختلف العلماء في قبول الرواية بالمعنى والحق أنها جائزة بشرائط وكلها معلومة عند جماعة الصحابة ثم في حفاظ التابعين ومن هم بعد فالأحاديث التي صرح الحفاظ المحدثون بأنها من ألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم فيعتمد عليها باليقين وإلا لم يثبت الدين والعياذ بالله .

(٢) وكذا يقول أن الأمور الظنية لا تصلح ان تكون آساسا للدين القطعي يقول في طلوع إسلام أكتوبر سـ١٩٤٩م صـ٣٤ "لما لم تكن الأحاديث يقينية بل هي ظنية فلذا لا تكون دينا وحيثيتها حيثية التاريخ والتاريخ لا يكون أعلى من التنقيد" وكذا قال في حديث صـ٣٧ الدين ينبغي أن يكون يقيناً والظني لا يكون ديناً . وأيضاً قال

فيه صـــ٣٩ الدين هو الذي يكون يقيناً ولا يكون ظنيــاً وقياســياً " وأيضاً قال فيه صـــ٥٦ تفكر كيف ابطل القــــرآن ســائر الكتــب السماوية التي قبله لكونها ظنية وقياسية وجعلها بحيث لا يعتمد عليــها وغير ذلك من التفوهات والأقاويل الباطلة .

الرد والمناقشة :-

قال ما قال فهو خداع وسفطة بأن القرآن الكريم منع عـــن اتباع الظن كما في قوله تعالى وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظــن لا يغني من الحق شيئاً ١٠/٣٦ ، وفي قوله تعالى " ان تتبعون إلا الظـــن وان أنتم إلا تخرصون " ٦/١٤٨ وفي قوله تعالى ان يتبعون إلا الظـــن وإن هم إلا يخرصون ٦/١١٦ ، وجعل الأحاديث باسرها ظنية فعلـى ضوء القرآن يمنع أتباع الأحاديث والعياذ بالله هذا في الأصل خـــداع لان الظن تستعمل في معان ثلاثة :

(١) الحرض والتخمين من غير دليل وبرهان .

(٢) غالب الظن الذي يثبت بالقرائن والشواهد .

(٣) العلم النظري والاستدلالي الذي يحصل بالبراهين والدلائل وعلى هذا المعنى الثالث قوله تعالى يظنون أنهم ملقوا ربهم وأنهم إليـــه

راجعون ٤٦/٣. وقوله تعالى قال الذين يظنون أنهم ملقوا الله " ٢٤٩/٢. وقوله تعالى " إني ظننت أني ملاق حسابية ٦٩/٢٠.

فالقرآن يمنع اتباع الظن . بالمعنى الأول والأحاديث ليست ظنية بهذا المعنى بل أنها ظنية بالمعنى الثاني أو بالمعنى الثالث في بعض المواضع قال الحافظ ابن حجر وقد يقع فيها أي في أخبار الآحاد المنقسمة إلى مشهور وعزيز وغريب ما يفيد العلم النظري بالقرائن على المختار . فالأحاديث التي تفيد العلم اليقيني والاستدلالي فهي واجبة الأتباع ظاهراً .

وأما الأحاديث التي تفيد غلبة الظن فجعلتها الشريعة مترلة اليقين وواجب الاتباع كما في شهادة ثقة عدول مع كونها ظنية تعتمد عليها في الحكم والقضاء فعلى هذه النقطة الأحاديث ظنية واجب الاتباع أيضا وليس لأحد ان يعيش في الحياة الدنيوية إلا ان يمشي على هذا الأصل كما هو مشاهد في الأفعال والأعمال الإنسانية فقول القائل بأن الأحاديث ظنية فلا تعتبر غير سديد بل هو من تفوهات الملحدين الذين أرادوا هدم الإسلام والدين أعاذنا الله سبحانه منه وهدانا إلى سبيل الحق واليقين .

الفائدة الثالثة والعشرون
في حجية الحديث ومكانة السنة على ضوء القران

اعلم أن السنة اصل ثان للتشريع الإسلامي فكما أن القران له حيثية تشريعية فكذلك للسنة أيضا حيثية تشريعية في الإحلال والتحريم إذ السنة ليست بخارجة عن القران بل هي شارحة ومبينة لمعانيه فكما أن الأحكام تثبت بالقران فكذلك تثبت بالسنة أيضاً وهذه العقيدة ثابتة من عهد الصحابة إلى يومنا باتفاق من يعتد به من الأمة لا ينكرها إلا المكابر والمعاند .

فالذي يقول بان السنة ليست لها حيثية تشريعية بل لها حيثية تاريخية للرسول صلى الله عليه وسلم فهو جاهل سفيه من سفهاء الأمة بل من الاعداء للسنة والعياذ بالله .

وهذا ثابت من القرآن والحديث وأقوال الصحابة فنذكر هذه المسئلة في ثلاث فوائد مستقلة علاحدة ونعنون هذا بعنوان حجية الحديث وهو المراد من تشريع السنة فنذكر أولاً حجية الحديث على ضوء القرآن ونبين صفات الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم كئ تظهر حجية الحديث بداهة .

يستدل على ذلك من وجوه وأنواع .

منها : أن الله تعالى كما أنزل كلامه المترل بواسطة الملك وبارســـاله كذلك يوحي إلى الرسول وحياً بدون ارسال الرسول ويخبر أخبـــارا وأحكاما وهذا هو الوحي الحديثي كما قال الله عز وجل :

(١) ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجـاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ٤٢/٥١ ، ففي هذا الآية ذكر الوحـــي على مقابلة أو يرسل رسولاً فيكون هو الوحي الحديثي .

(٢) " ما جعلنا القبلة التي كنت عليها " ١٤٣/البقرة ، يعلـــم من هذه الآية بأن استقبال البيت المقدس كان من أمر الله ولكنه غـــير مذكور في القران فيكون ثابتاً بالوحي الحديثي قطعاً .

(٣) " علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ١٨٧/البقرة ، ففي هذه الآية بين الله تعالى بأن الجماع في ليالي رمضان كان محرماً ولـــو جامع أحد فيها تكون خيانة فرخص الله فيها ولكن هذه الحرمة غـــير مذكورة في القران فلا جرم ان يكون ثبوتها من الوحي الحديثي .

(٤) إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبـــأك هذا قال نبأني العليم الخبير (التحريم ٣) ففي هذه الآية ذكر الله تعـــالى

صراحة بأن العليم الخبير نبأ الرسول بالخبر وليس في القرآن بيانه فيكون ذلك من الوحي الحديثي قطعاً .

(٥) إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين (الأنفال ٩) ذكر الله تعالى في هذه الآية إجابة الدعاء وإمداد بألف من الملائكة ولكن ليس في القران ذكر هذا فيكون هذا من الوحي الحديثي .

(٦) ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله (الحشر ٥) ذكر الله تعالى في هذه الآية بان ما فعل الرسول والمؤمنون في واقعة بني النضير بأنهم قطعوا الأشجار فإنما كان ذلك باذن الله . ولكن ليس في القرآن ذكر الأمر بالقطع فيكون الأمر بالوحي الحديثي يقيناً .

(٧) إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم (الأنفال ٧) ذكر الله تعالى في هذه الآية وعد إحدى الطائفتين ولكن ليس لهذا الوعد ذكر في القرآن فيكون من الوحي الحديثي يقيناً .

(٨) فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً (الأحزاب ٣٧)

ذكر الله في هذه الآية بأن نكاح زينب بنت جحش بعد ما طلقها زيد بن حارثة كان من أمر الله تعالى ولكن ليس في القران ذكـــر الأمـــر بالنكاح كذلك فلا جرم أن يكون هذا من الوحي الحديثي.

(٩) لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحـرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مـــا لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً (الفتح ٢٧) .

يعلم من هذه الآية بان الله تعالى أوحى في المنام وأرى رؤيا بان الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليدخلن المسجد الحرام آمنـــين ويحلقون ويقصرون وهذا يكون بالمصالحة وهو فتح قريب وغير ذلـــك وكل هذا ليس بمذكور في القران بل بالرؤيا والوحي المنامي الحديثـــي وعمل بمقتضاه الرسول والمؤمنون.

(١٠) قال الله تعالى فأوحى إلى عبده ما اوحى (النجم ١٠) في هذه الآية إشارة صريحة إلى أن الله تعالى أوحى إلى الرسول صلـــى الله عليه وسلم سوى القرآن الذي لا يعلمه أحد إلا هو فثبت أن بعـــض الوحي قد يكون غير القرآن أيضاً .

(١١) ولتكبروا الله على ما هداكم (البقرة ١٨٥) . لم يبين الله تعالى في آية من القرآن أن ذلك نعم بينه النبي صلى الله عليه وســـلم

فعلم أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ان يكبر كذا وكيت هذا يشير إلى الوحي الحديثي يقيناً .

(١٢) لتحكم بين الناس بما أراك الله " ٤/١٠٥ ، في هذه أيضا إشارة إلى الوحي الحديثي .

بالجملة قد وضح مما ذكرنا من الآيات بأن الله تعالى كثيرا يترل على الرسول وحياً غير القران يأمر به ويخبر من أشياء والرسول يعمل بمقتضاه فهذا يدل صراحة بان الحديث الذي يكون ثابتاً بالوحي الخفي هو حجة شرعية .

ومنها أن الله تعالى ذكر فرائض الرسالة من تلاوة آيات الكتاب وتزكية نفوس المؤمنين وتعليمهم الكتاب والحكمة واوجب على الناس اتباع الرسول وليس معنى التعليم إعادة الألفاظ فقط بل يعلم الكتاب بالفاظه حيث يفسر معاني القرآن سواء كانت في العبادات والمعاملات والحدود أو غير ذلك من الأمور الشرعية والدينية فلو لم يكن حديثه وبيانه حجة شرعية لتعطلت الرسالة ولغت فرائضه ومناصبه و لهذه النقطة بين الله تعالى في آيات كثيرة فرائض الرسالة ومناصبه كما قال تعالى :

١- كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة . (بقرة ١٠١) .

٢- لقد من اللع على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، (أل عمران ١٦٤).

٣- هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم أياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ــ (الجمعة ٢) .

٤- ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ــ (بقرة ١٢٩).

بين الله تعالى في هذه الآيات أربعة فرائض للرسول :

(١) يتلو عليهم آيات الكتاب معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس تلاوة القرآن من حيث أداء الحروف والتجويد والترتيل ويجب على الناس اتباعه . لا يجوز لأحد ان يخالف قواعد التلاوة الثابتة من الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذه النقطة أوجد القراء المجتهدون فن القراءة والتجويد وكل هذه مستندة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا أيضاً إشارة إلى حجية الحديث .

(٢) "ويزكيهم " معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يزكي الناس من جميع أثام الشرك والكفر والمعصيات والصفات الرذيلة للنفوس بحيث يصقل قلب المؤمن ويحلو باطنه وتحصل درجات القرب من الله فلو لم يتبع أحد للرسول صلى الله عليه وسلم في تزكية نفسه و إصلاح باطنه إلى امتثال ما أمره والاجتناب عما نهاه ، يكون مستغرقاً في بحار الكدورات والشهوات النفسانية ، فلذا يجب على المؤمنين اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأوجد الأصفياء فن التصوف والروحانية وبين فيه أصول التزكية و الإصلاح وطرائق العمل ووجوهه موافقا لتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا أيضاً إشارة إلى حجية الحديث .

(٣) "يعلمهم الكتاب" معناه أن القرآن جامع محتاج إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم فيبين مجملاته ويفسر معانيه ويشرح مبهماته ويزيل شبهاته وغير ذلك بحيث لا يبقى في فهم معانيه شك وتردد للأمة ولهذه النقطة أوجد العلماء الراسخون فنوناً وعلوماً من علم الحديث والتفسير والفقه والكلام واصولها لو لم

ينظر احد إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه لم يفهم معاني القران وأحكامه ومراده . فلذا يجب على النلس في فهم الدين والشريعة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا يثبت حجية الحديث قطعاً وانظر لتفصيل ذلك ما بينا في موضوع جامعية القرآن وربط السنة بالقرآن .

(٤) يعلمهم الحكمة معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعلم الكتاب كذلك يعلم الحكمة قال الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة صـ٢٤ وسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك قال قتادة الحكمة أي السنة وأيضاً قال الشافعي وسنته الحكمة التي القى في روعه عن الله عز وجل . الرسالة صـ٢٨ . وفي تفسير الحكمة أقوال أخر للعلماء الكبار وكل هذه ترجع إلى معني الفهم في الدين الذي يظهر من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم .

فيعلم من هذا ان الحديث هي الحكمة وهو الدين والفقه ولذا ذكر الله تعالى أنه أنزل الحكمة مع القرآن كما قال الله تعالى :

١- واذ أخذ الله ميثاق النبيين ما آتيتكم من كتـــاب وحكمـــة (أل عمران) .

٢- وأنزل الله عليك من الكتاب والحكمة (نساء١١٣) .

٣- واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمـــة (بقرة ٢٣١) .

٤-أذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة(الأحزاب ٣٤) ، فهذه الحكمة تعبير واحد للسنة وللسنة تعبير آخر أيضاً الـــذي ذكره القرآن وهو النور وكذا الميزان وهو أيضاً متزل مـــن الله تعلى مع الكتاب كما قال تعالى :

(١) الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان (الشورى ١٧) .

(٢) لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقـــوم الناس بالقسط (الحديد ٢٥) .

(٣) فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا (التغابن ٨/٦٤) .

(٤) فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معــــه أولئك هم المفلحون (الاعراف ١٥٧) .

(٥) قد جاءكم من الله نور وكتاب منبين يهدي بــه الله مـــن اتبـــع رضوانه سبل السلام ٥/١٥ ، ففي هذه الايات بين الله تعـــالى

بأنه أنزل مع الكتاب شيئاً اخر الذي هو نور وميزان وما ذلك إلا هو المراد بالسنة التي هو وحي خفي من الله تعالى فكما أن الكتاب حجة شرعية كذلك السنة والحديث أيضاً حجة شرعية .

ومنها أن الله تعالى أمر الناس بإطاعة الرسول كما أمر بإطاعته تعالى والاطاعة توجب الحجية وايجاب العمل لأن المطيع يتبع أقوال المطاع وافعاله وسيرته فاطاعة الله هو إطاعة القرآن وطاعة الرسول هو إطاعة الحديث وما معنى هذا إلا هو حجة كما قال تعالى .

١-قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين (ال عمران ٣٢)

٢-أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (المائدة ٩٢) .

٣- يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (الأنفال ٢٠) .

٤- ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون (النور ٥٢) .

٥- ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً (الأحزاب ٧١)

٦- يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله أطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم (محمد ٣٣) .

٧-ان تطيعوه تهتدوا (النور) .

٨-أطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون (آل عمران ١٣٢) .

٩- يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا (نساء ٥٩) .

١٠- وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله (نساء ٦٤) .

١١- ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (نساء ١٣) وغير ذلك من الآيات التي أمر الله فيها بإطاعة الرسول وهي علامة الإيمان والهداية ودليل الفوز والفلاح ، وخلافها علامة الكفر والنفاق ودليل الضلالة والخسران . فكل هذه يشير إلى حجية الحديث.

ومنها٤ : أن الأنبياء والرسل عليهم السلام كلهم يتبعون ما يوحى إليهم كما قال الله تعالى :

١) إن اتبع الا ما يوحى إلي . (الأنعام يونس ١٥) .

٢) واتبع ما يوحى إليك (يونس ١٠٩) .

٣) واتبع ما يوحى إليك من ربك (الأحزاب ٢) .
٤) ان اتبع إلا ما يوحى اليّ (الأنعام ٥٠) .
٥) انما اتبع ما يوحى إلىّ من ربي (الأعراف ٢٠٣) .
٦) ان اتبع إلا ما يوحى اليّ (الأحقاف ٩) .
٧) ما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى (نجم ٤) . وغير ذلك من الآيات التي تشير بان الأنبياء والرسول عليهم السلام كانوا يدعون الناس إلى الله تعالى بما يوحى إليهم ولا يهوى انفسهم وليس للهداية سبيل سوى اتباعهم وهم يتبعون الوحي لذا كلهم يدعون الناس إلى اتباعهم كما قال تعالى :

١. قاله سيذنا نوح عليه السلام فاتقوا الله أطيعون (الشعراء ١٠٨)
.
٢. فاتقوا الله واطيعون (الشعراء١١٠) . قال هود عليه السلام.
٣. فاتقوا الله واطيعون (الشعراء ١٢٦) . قاله صالح عليه السلام
٤. فاتقوا الله واطيعون (الشعراء ١٣١) . قاله لوط عليه السلام
٥. فاتقوا الله واطيعون (الشعراء ١٤٤) . قاله شعيب عليه السلام
٦. فاتقوا الله و أطيعون (آل عمران ٥٠) . قاله عيسى عليه السلام

٧. قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . آل عمران . قاله محمد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٨. ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله (نساء ٦٤) .

٩. من يطع الرسول فقد أطاع الله (نساء ٨٠) .

فعلم من هذه الآيات بان الله تعالى أوجب على الناس اتباع الأنبياء وهو إطاعتهم وكلهم يتبعون ما يوحى إليهم فثبت ان الأحاديث كلها من الوحي من الله تعالى فكما أن الوحي القران حجة ملزمة فكذلك الوحي الحديثي حجة ملزمة .

ومنها : ان الله تعالى جعل الرسول صلى الله عليه وسلم قاضياً وحاكماً بين الناس ولا خيار لأحد من الناس ان يرد قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وما يقضى الرسول فهو حديث وهو حجة موجبة كما قال تعالى :

١) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من انفسهم (الأحزاب٣٦) .

٢) فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (النساء ٦٥).

٣) انا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله (النساء ١٠٥) .

٤) وقل امنت بما انزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم (الشورى ٤٢/١٥) .

٥) انما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا (النور ٢٤/٥١) . وغير ذلك من الآيات التي بين فيها ان النبي صلى الله عليه وسلم يقضي ويحكم في الخصومات فكما أن للخصوم يجب عليهم أن يتبعوا القضاة وقضاء القاضي حجة ملزمة عقلاً فكذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث أنه قاض وحاكم بين الناس في جميع المعاملات الدينية والدنيوية حجة ملزمة يجب اتباعه على سائر الناس وفي كتب الحديث توجد أمثال كثيرة لقضاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومنها : ان الله تعالى جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شارحاً للقران ومبيناً له كما قال تعالى :

١. و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس إليهم (النحل ٤٤) .

٢. ثم ان علينا بيانه (القيامة ١٩) . وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم يبين الكتاب ويشرحه فلو لم يكن بيان الرسول وشرحه حجة موجبة للعمل فما الفائدة في بعثة الرسول وما الفائدة في تبينه وتشريحه فيصير كل ذلك لغواً وهذا لا يجوز فيقال ان بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وشرحه كل ذلك حجة كما ثبت تواتراً تفصل العبارات والمعاملات والحدود والقضايا.

ومنها : أن الله تعالى جعل الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة ونموذجاً للناس بحيث يجب على الناس اتباعه كما قال تعالى :

١) ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر (الأحزاب ٢١) .

٢) ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ٥٩/٧.

٣) قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله (آل عمران ٣/٣١).

وغير ذلك من الآيات تشير إلى ان الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة يقتدي بها ، ولا نجاة على خلاف أسوته والظاهر ان اتباع الأسوة واجب لمن أراد ان يتبعه و إلا تتعطل بعثة الأسوة وتلغو

فائدة الإرسال وهذا لا يجوز ، فتكون أسوة الرسول حجة موجبة ملزمة وهو المراد بحجية الحديث .

ومنها : ان الله تعالى منع مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم اشد المنع وأوعد على هذا وعيداً شديداً كما قال تعالى .

١- فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم (النور ٢٤/٦٣) .

٢- ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً (النساء ١١٥).

٣- و إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً (النساء ٦١) .

٤- ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً (الأحزاب ٣٦) .

وغير ذلك من الآيات تشير إلى ان مخالفة الرسول حرام وانها توجب العذاب والفتنة وانها علامة النفاق والضلالة فيكون اتباعه و إطاعته واجباً قطعاً ولو لم يكن هذا الاتباع واجباً فكيف تكون مخالفته عصياناً وضلالة وسبباً للعذاب والفتنة فكل هذه تثبت حجية الحديث .

ومنها : ان الله تعالى ذكر الرسول صلى لله عليه وسلم شـارعاً بحيث يحل أشياء ويحرم أشياء وهذا يشير إلى أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله اعني حديثه حجة ملزمة حتى في الحلة والحرمة كما قال تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث (الأعراف ١٥٧) . وترى في كثير من الأحاديث أنه عليه السلام احل أشياء وحرم أشياء . ومنها : ان الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى إلى الناس ليهديهم إلى صراط مستقيم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وليس معناه أنه يذكر القرآن فقط و لا يبين من عند نفسه شيئاً بل معناه أنه يأمرهم وينهاهم ما أراه الله تعالى من الحكمة وليس ذلك إلا من إيماء الله تعالى وحياً خفياً وهو حجة واجبة و إلا يلغو أمره نهيه صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر (الأعراف ١٥٧.

الفائدة الرابعة والعشرون
في حجية الحديث على ضوء أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) عن انس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين (متفق عليه) هذا الحديث يدل على وجوب المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم والمحبة تقتضي الاتباع والإطاعة . قال الشاعر :

تعصي الرسول وانت تظهر حبه * هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته * ان المحب لمن يحب مطيع

(٢) عن أبي امامة رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع أيها الناس انه لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتكم فاعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وادوا زكاة أمواكم طيبة بها أنفسكم واطيعوا ولاة أموركم تدخلوا جنة ربكم (مسند احمد) .

(٣) عن أبي هريرة رض قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أمتي يدخلون الجنة إلا من ابى قالوا يا رسول الله ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى .

(٤) عن أنس رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني ان قدرت ان تصبح وتمسي وليس في قلبك عش أحد فافعل ثم قال يا بي وذلك من سنتي ومن أحب سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة (ترمذي ج١ ص٩٢) .

(٥) عن عبد الله بن عمر رض قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به (شرح السنة).

(٦) عن العرباض بن سارية رض عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ (أبو داؤد) (ترمذي ج٢ ص٩٢) .

(٧) عن أبي هريرة رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله اجر مائة شهيد (بيهقي) .

(٨) عن أبي رافع رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا الفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ادري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه (أبو داؤد وترمذي ج٢ ص٩١) .

(٩) عن المقدام بن معديكرب رض قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا اني أوتيت القران ومثله معه الا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القران فما وجدتم فيه من الحلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه و إنما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله ألا لا يحل لكم الحمار الاهلي ولا يأكل ذي نلب من السباع (أبو داؤد وابن ماجة) .

(١٠) عن العرباض بن سارية رض قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ايحب أحدكم متكئاً على أريكته يظن ان الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن إلا واني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عنه اشياء أنها لمثل القرآن أو أكثر (أبو داؤد) .

(١١) وفي حجة الوداع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله .

(١٢) قال عليه السلام من أحيى سنة من سنتي قد أميتت بعدي فان له من الأجر مثل أجور من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً (ترمذي وابن ماجة) .

الفائدة الخامسة والعشرون

في بيان حجية الحديث ومكانة السنة في نظر الصحابة

إذا لاحظت كتب الحديث و أمعنت في أحوال الصحابة تجد ان حجية الحديث كانت فطرة للصحابة حتى صارت بديهية فيما بينهم وكتب الحديث شحونة منها .

أما ترى ان أول الاختلاف الذي وقع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فهو كان في تدفين الرسول صلى الله عليه وسلم فلما بين أبو بكر الصديق رضي الله عنه حديثاً الذي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب ان يدفن فيه (كما في الترمذي) فدفن في بيته صلى الله عليه وسلم بإجماع الصحابة فهذا دليل واضح على أنهم كانوا يفهمون جهة التشريعية للسنة وههنا اذكر عدة من الأمثلة كيف كانت مكانة السنة فيما بين الصحابة أنفسهم .

١) عن سعيد بن الممسيب رض قال قال عمر : الدية على العاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً فاخبره الضحاك بن سفيان الكلابي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليه ان ورث امرأة

اشيم الضبابي من دية زوجها هذا حديث حسن صحيح الترمذي ص ٣٢ .

٢) عن قبيصة بن زويب قال جاءت الجدة أم الام أو أم الأب الى أبي بكر رضي الله عنه فقالت ان ابن ابني أو ابن ابنتي مات وقد اخبرت ان لي في الكتاب حقاً فقال أبو بكر ما جد لك في الكتاب من حق وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى لك بشيئ وسأسأل الناس فسأل الناس فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس قال ومن سمع ذلك معك قال محمد بن مسلمة قال فأعطاها السدس . الترمذي ج١ ص٣١.

٣) روي الترمذي ج١ ص ١٤٤ في قصة أن فريعة بنت مالك بن سنان وقد قتل زوجها وأرادت أن ترجع إلى أهلها وتعتد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا فلما كان عثمان أرسل اليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به .

٤) روي البخاري ج١ ص٢١٢ عن مروان بن الحكم قال شهدت عثمان وعلياً وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما فلما

راى على أهل بهما لبيك بعمرة وحجة قال ما كنت لادع سنة النبي صلى الله عليه وسلم لقول أحد .

٥) روى البخاري ج١ ص٨٦ عن عبد الله بن الحارث قال خطبنا ابن عباس في يوم رزع فلما بلغ المؤذن حي على الصلاة فأمره أن ينادي الصلاة في الرحال فنظر القوم بعضهم إلى بعض فقال فعل هذا من هو خير مني وانها غرمة وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي بينت فيها صراحة بأن الصحابة رضي الله عنهم ، يأخذون بها إذا وجدوها ولا يلتفون إلى غيرها ويعملون عليها ويقضون بها .

فهذه تصريح بأن السنة لها مكانة عظيمة في التشريع الإسلامي ولها جهة تشريعية وهي حجة شرعية تثبت بها الأحكام الدينية الشرعية من غير ريب وقد فهمها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كذلك .

الفائدة السادسة والعشرون
في حجية أخبار الآحاد

الحديث قسمان متواتر وغير متواتر اما المتواتر فهو حجة قطعية ثابت بالاجماع لا مشاحة فيه واما غير المتواتر فيقال انه خبر واحد وهو يشمل جميع اقسام الحديث من المشهور والعزيز والغريب وغير ذلك . فأخبار الآحاد أيضا حجة شرعية تثبت منها الأحكام الشرعية فحجيتها ثابتة بالقرآن والحديث والعقل أيضاً لا يمكن إنكاره .

فاما ثبوته من طريق آيات القرآن كما تلي : -

١) قال تعالى : يا أيها الذين أمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (الحجرات ٦) يعلم منه ان جاءكم ثقة عدل بخبر فاقبلوا وهو يشير إلى الحجية .

٢) قال تعالى : فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (التوبة ١٢٢) الطائفة يطلق على الجماعة وعلى واحد فعلى مقتضى الآية إذا تفقه في الدين يبين قومه إذا رجع إليهم وينذرهم فهذا أيضاً يصرح إلى ان خبر الواحد حجة .

٣) وقال تعالى : وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين فخرج منها (القصص ٢٠) ففيه ان موسى عليه السلام عمل بخبر واحد وخرج من المدينة فهذا أيضاً يشير إلى ان إخبار الآحاد معتبرة تفيد العمل .

٤) قال تعالى : ناقلاً عن قول ابنة شعيب عليه السلام حيث قال تعالى : ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا (القصص ٢٥) فعمل موسى عليه السلام بقول امرأة وأجاب قولها وحضر إلى شعبب عليه السلام فعلم أن قول واحد ثقة معتبر يفيد العلم .

٥) قال تعالى : واشهدوا ذوا عدل منكم (الطلاق ٢) . بين القران بان شهادة رجلين عدلين تثبت الحكم سواء كان في المعاملات المالية أو الحدود سوى الزنا فتقطع يد السارق ويقتص من القاتل ويحد شارب الخمر ويثبت دعوى الأموال وغير ذلك فظهر بأن خبر العدلين يفيد الحكم .

٦) وقال تعالى : وقال الذي امن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (المؤمن ٣٨) .

فيه أن رجلا من ال فرعون كان يكتم إيمانه إذا دعا إلى اتباعه يقول انه يهديهم سبيل الهداية والرشاد فلو لم يكن خبر الواحد حجة كيف كانت دعوته هداية ولم تكن انكارهم سبباً للعذاب .

٧) وقال تعالى : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (يس ٢٠) . ففيه ان لم يكن قوله حجة على قومه لما استحق قومه العذاب لانكارهم لما قال .

٨) وقال تعالى : وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما (حجرات ٩) . أمرالله تعالى بالاصلاح بين الناس و أوجب اتباع المصلح فثبتت حجية أخبار الآحاد لان المصلح قد يكون واحداً وقد يكون اثنين وما فوقهما وكل هذه أخبار الآحاد

٩) وقال تعالى : فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين (قصص٢٥) . لما اخبر موسى عليه السلام من حال فرعون عند شعيب عليه السلام صدق شعيب قوله ثم قلل لا تخف وقد نجوت من الظالمين وبهذا اطمأن قلب موسى عليه السلام وكل هذا خبر واحد وعملوا به فثبت منه حجية خبر الواحد .

١٠) ان الله عز وجل بعث أنبياء ورسلاً وكلهم يدعو الناس إلى دين الله تعالى ويلزم عليهم اتباعه وهذا في الحقيقة كلام الواحد وهو حجة على الناس .

أما ثبوته من طريق الأحاديث :-

١) عن البراء رض أنه صلى صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال اشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كماهم قبل البيت . (البخاري ج١ ص١١) .

٢) عن أبي هريرة رض أن ابا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمره النبي صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان . (البخاري ج٢ ص٦٢٦ــ ج١ ص٥٣) .

٣) عن ابن عباس رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن انك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فاذا جئتهم فادعهم إلى ان يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمد رسول الله " فان هم أطاعوا لك بذلك فاخبرهم ان الله قد فرض

عليكم خمس صلوات في كل يوم وليلة . الحديث . (البخاري ج٢ ص٦٢٦)

٤) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يبعث أصحابه للتعليم والدعوة ولتبليغ الاحكام فكل هذه أخبار الآحاد وهي حجة فلو لم يكن حجة فيكون بعثهم عبثاً .

٥) ان الرسول صلى الله عليه وسلم بعث الأمراء على الناس كما امر على مكة عتاب بن اسيد وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي وعلى عمان عمرو بن العاص وعلى نجران سفيان بن حرب وعلى صنعاء وسائر بلاد اليمن بأذان وغيره وعلى وادى القرى عمرو بن سعيد بن العاص وعلى تيماء يزيد بن أبي سفيان وعلى اليمامة ثمامة بن آثار رضي الله عنهم . فلو لم تكن إخبار الآحاد حجة فكيف بعث الأمراء فثبت أن أقوالهم وقضاياهم حجة على الناس .

٦) وان الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل رسلاً إلى الملوك والسلاطين كما أرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المتوقس صاحب الاسكندرية وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الفاني ودحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم وسليط بن عمرو العامري إلى

هوذة بن على ملك اليمامة وعمرو بن أمية العمري إلى النجاشي ملك الحبشة وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى فرويز بن هرمز ،

والعلاء بن الحضرمي إلى منذر بن ساوى ملك البحرين والحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى وجرير بن عبد الله البجلى إلى ذي الكلاع ، وعمرو بن العاص إلى ملك عمان جعفر و عبد الله السائب بن العوام إلى فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملاً لقيصر على فلسطين والمهاجر بن أبي أمية إلى الحارث وفروخ ونعيم بني عبد كلال من حمير ملك اليمن وغيرهم رسلاً إلى الأمراء والملوك واعطاهم خطوطا ومكاتيب ودعاهم إلى الإسلام فكل هذه تثبت ان اخبارهم حجة ملزمة .

أما ثبوته من طيق العقل واجماع الناس : -

١. أخبار الآحاد حجة في جميع المعاملات الدنيوية عند ذوي العقول لا مشاحة فيه ولا يمكن للناس سواء هذا لأنهم يعيشون الحياة معتمدين على الأخبار الآحاد وغالب الظنون لا على التواتر اليقيني فكذلك الأحكام الشرعية تثبت بالأخبار بحسب شرائط اعتباره .

٢. لو لم يكن خبر الواحد حجة موجباً للعمل لاختل نظام العالم ويتشتت جمعه لأن الإنسان مدني الطبع يفتقر في جميع حالاته وشئونه إلى الآخر لإظهار غرضه وحاجته ولا سبيل إليه إلا بطريق الخبر والحكاية فكان حياة الإنسان تتوقف على الخبر والحكاية فلو لم يكن ذلك حجة موجبه لبطل نظام العالم واختل فهذا يثبت حجية خبر الواحد بطريق العقل بداهة .

الفائدة السابعة والعشرون

في تحفظ الحديث في عهد الصحابة والتابعين

إذا أمعنت النظر في عهد النبوة ترى أربعة طرائق و أسباب اختارهن الصحابة لحفظ الأحاديث.

١) تعليم الأحاديث وحفظها .

٢) جمعها وكتابتها .

٣) تعليمها وبيانها .

٤) والعمل عليها وتمسك بها وقد أمر الله تعالى في القران لمذاكرة الأحاديث وتعليمها قال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به (البقرة ١٣١) . والحكمة هو السنة كما مر عن الإمام الشافعي رح وعن قتادة رح وأيضا قال تعالى واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة (أحزاب ٣٤) . وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على حفظ السنة وتعليمها فقال :

١. نصر الله عبداً سمع مقالتي وحفظها ووعاها واداها كما سمعها (أبوداؤد وترمذي) .

٢. وليبلغ الشاهد الغائب فان الشاهد عسى ان يبلغ من هو اوعى له منه (البخاري ج١ ص ١٦) .

٣. ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم (البخاريج١ ص١٩) .

٤. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن (مسلم) .

٥. احفظوه واخبروه من وراءكم (بخاري ج١ ص١٩) . وغير ذلك من الأحاديث التي امر فيها تعلم الحديث والنقطة الثانية ان العرب كانوا مطبوعين على الحفظ يحفظون الايام والحوادث بصدوهم حتى انساب الابل والخيل وليس لهم افكار شتى سوى انشاد الشعر والتفاخر به وكان هذا من أهم مشاغلهم و أسباب الكتابة ايضاً ما كانت سهلة عليهم فيعتمدون على الحفظ قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ٣٩ مذهب العرب أنهم مطبوعون على الحفظ مخصوصون بذلك يقول الشاعر العربي :

ليس بعلم ما حوى القمطرا * ما العلم إلا ما حوى الصدرا

النقطة الثالثة : ان فرط المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم يرغبهم ويحثهم على حفظ سنته وسيرته صلى الله عليه وسلم لأن المحب لا ينسى شيئاً من المحبوب فكذا حال الصحابة رضوان الله عليهم

كما قال عروة بن مسعود الثقفي قبل أن يسلم زمان صلح الحديبية أي قوم والله لقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله مارأيت ملكاً قط يعظمه اصحابه ما يعظم اصحاب محمد محمداً والله أنه مايتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده واذا امرهم ابتدروا امره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا اصواتهم عنده ولا يحدون إليه النظر تعظيماً له (البخاريج١ص٣٧٩) .

هكذا ترى في جميع الصحابة فرط المحبة وشدة العقيدة للنبي صلى الله عليه وسلم فعلى هذه النقاط الثلاثة ترى الصحابة تعلموا السنة وحفظوها وتذاكروها فيما بينهم:

١) كما أن اصحاب الصفة كانوا التزموا النبي صلى الله عليه وسلم بشبع بطونهم فكانوا حاضرين دائماً بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يحفظون ما لا يحفظ غيرهم .

٢) بعضهم يتعلم العلم بالتناوب كما قال عمر رضي الله عنه كنت انا وجاري من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل

يوماً وانزل يوماً فاذا نزلته جئته بخبر ذاك اليوم من الوحي وغيره واذا نزل فعل مثل ذلك (البخاري١ ص١٩) .

٣) وكما روى عن أنس كنا قعوداً مع النبي صلى الله عليه وسلم فعسى أن يكون قال ستين رجلاً فيحدثنا الحديث ثم يدخل لحاجته فنراجعه بيننا هذا ثم هذا فنقوم كانما زرع في قلوبنا (مجمع الزوائد ج١ ص١٦١) .

٤) و عن معاوية رض كنا نقعد بعد الفرائض في المسجد ونتذاكر الحديث (المستدرك ج١ ص٩٧) .

٥) عن عبد الله بن عباس كنا نحفظ الحديث (مسلم ج١ص١٠) .

٦) رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس رض في حديث واحد (البخاري ج١ص١٧) . وغير ذلك من الأحاديث والروايات التي تشير أن الصحابة تعلموا العلم وحفظوه من النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك الصحابة أيضاً يرغبون تلاميذهم لحفظ الأحاديث بالأهمية كما روي .

١. عن ابن عباس رض قال تذاكروا الحديث لا ينفلت منكم (الدارمي ص٧٨) .

٢. وايضاً قال ردوا الحديث واستذكروه فانه ان لم تذكروه ذهب (المستدرك ج١ ص٩٤) .

٣. عن أبي سعيد الخدري رض قال تذاكروا الحديث (الدارمي ص٧٧ المستدرك ج١ ص٩٤) .

٤. وايضاً عنه أنه يمنع عن كتابة الحديث ويقول احفظوا الحديث كما كنا نحفظ (الدارمي ص٦٦) .

٥. وقال علي تذاكروا الحديث فانكم ان لا تفعلوا يندرس (المستدرك ج١ ص٩٥) .

٦. قال ابن مسعود تذاكروا الحديث فان ذكر الحديث حياته (المستدرك ج١ ص٩٥) .

٧. أيضا قال علي رض تزاوروا وتدارسوا الحديث ولا تتركوه يدرس (الدارمي ص٧٩ كنز ج١ ص٢٤٢) .

٨. وايضاً قال علي تزاوروا واكثروا ذكر الحديث فانكم ان لم تفعلوا يندرس الحديث (الدارمي ص١٥٠) ,

٩. ايضا عن ابن عباس قال إذا سمعتم منا حديثاً فتذاكروه بينكم (الدارمي ص١٤٩) .

١٠. وايضاً يقول تذاكروا الحديث لا ينفلت منكم فانه ليس مثل القران مجموع محفوظ وانكم ان لم تذاكروا هذا الحديث ينفلت منكم ولا يقولن أحدكم حدثت أمس فلا احدث اليوم بل حدث امس ولتحدث اليوم ولتحدث غداً (الدارمي ص١٤٧) . فكل هذه تدل على حرص الصحابة في حفظ الحديث وتعليمه وكذلك بعض الصحابة جمع الأحاديث في صحيفة وكتبوها عنده وفي هذه المسألة كلام طويل سابينها بعد إن شاء الله وبعد ذلك كله ان الصحابة كانوا متبعين لسنة رسول الله عليه السلام أشد الاتباع ويعملون على احاديثه في جميع نواحي حياتهم فبهذه الطرائق الأربعة كانت السنة والاحاديث محفوظة في عهد الصحابة وهم علموها للتابعين فصاروا علماء متقنين .

الفائدة الثامنة والعشرون
في كتابة الحديث في عهد الصحابة والتابعين

قال السيوطي رحمه الله تعالى : اختلف السلف من الصحابة والتابعين في كتابة الحديث ، فكرهها طائفة منهم ابن عمر وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهم وآخرون ،

و أباحها طائفة وفعلوها منهم عمر وعلي وابنه الحسن وابن عمرو وأنس وجابر وابن عمر رضي الله عنهم ، والحسن وعطاء وسعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وحكاه القاضي عياض عن اكثر الصحابة والتابعين ، قال أبو المليح يعيبون علينا ان نكتب العلم ،

وقد قال الله عز وجل : علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، قال البيهقي في المسألة : مذهب ثالث وهو الكتابة والمحو بعد الحفظ، ثم اجمعوا على كتابتها .

قال العسقلاني رحمه الله في الفتح ج١ ص٢١٤ ، السلف اختلفوا في ذلك عملاً وتركاً وان كان الأمر استقر ، والاجماع انعقد على جواز

كتابة العلم بل على استحبابه ، بل لا يبعد وجوبه على من خشي بالنسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم.

استدل من ذهب إلى الكراهة الأول ما روي عن إلى سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولا حرج (مسلم ج١ ص٤١٤).

والثاني : ما روي عن عروة بن الزبير ان عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن ، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليها أن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: اني كنت أردت أن أكتب السنن ، واني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتاباً فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا لبس كتاب الله بشئ ابداص . (تدريب الراوي ص ١٥١) .

الثالث : ما روى عن أبي سعيد رض أيضا قال : أستاذنا النبي صلى الله عليه وسلم وسلك في الكتابة فلم يأذن لنا (ترمذي ج٢ ص٩١) .

وروي ان زيد بن ثابت دخل على معاوية فسأله عن حديث فأمر انساناً يكتبه، فقال زيد أن رسول الله صلى اله عليه وسلم أمرنا من حيث فمحاه (ترمذي ص ١٥٨) .

والاستدلال على جواز كتابة العلم بوجوه :

منها : ما في القرآن الحكيم : (١) ذلك الكتاب لا ريب فيـــه ، (٢) والطور مكتاب مسطور ، (٣) علمها عند ربي في كتـــاب ، (٤) ن والقلم وما يسطرون ، (٥) ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيـــد ، (٦) قالت يا أيها الملأ اني القي الي كتاب كريم ، وانه من ســليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلوا على واتوني مسلمين ، ـــ نمـل ، (٧) قال الذي عنده علم من الكتاب ، (٨) تلك آيـــات القــرآن وكتاب مبين ، ـــ نمل ، (٩) ولها كتاب معلوم ، ـــ حجر (١٠) اتـل ما أوحي إليك من كتاب ، (١١) اذهب بكتابي هذا فالقه إليـــهم ، (١٢) وكتبناله في الالواح من كل شئ ، وغير ذلك من الآيات الـــتي فيها ذكر الكتاب ، فكل هذه يشير إلى ان الكتابة أمر جائز خاصـــة حين كان لا بد منها فهو أمر مستحسن قطعاً .

ومنها : ما في الأحاديث وفيها أنواع ، فمنها ما كتب النبي صلـى الله عليه وسلم لغيره من المشركين واليهود والنصارى :

(١) ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فكتب كتابـــاً يشتمل على اثنين وخمسين دفعات بين المسلمين وبين أهل يـــثرب وأوله هكذا : " هذا كتاب من محمد النبي رسول الله صلـــى الله عليه وسلم والمؤمنين والمسلمين بين قريش وأهل يثرب ومن تبعـهم

فلحق بهم " (كتاب الاموال ص١٦٥ وسيرة ابن هشام ج٣ ص١٤٧) .

(٢) وما كتب في صلح الحديبية " هذا ما صالح عليه محمد بين عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين " (سيرة ابن هشام ج٣ ص٣٣٩ وبخاري ١/٣٧٩) .

(٣) وما كتب النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران وقال فيه " هذا ما كتب محمد النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله لأهل نجران " (كتاب الاموال ص١٨٨) . هكذا جميع كتبه التي كتبها لغيره من بني ثقيف وبني غطفان وبني فزارة وأهل هجر وآيلة وغيرهم يدل على جواز الكتابة .

ومنها : ما كتب للمسلمين مثلاً :

(١) عن حذيفة رضي الله عنه قال قال الني صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبنا له الفا وخمس مائة رجل (بخاري١/٤٣٠) .

(٢) ولما بعث عبد الله بن جحش في رجب مقفله من بدر الاولى ، بعث معه ثمانية رهط من المهاجرين وكتب له كتاباً ، وأمره ان لا

ينظره فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، (سيرة ابن هشام ٢٥٢/٢) .

(٣) قال بلال بن الحارث المزني : اقطع لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معادن القبلية اعطى وثيقة هكذا " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث المزني أعطاه معادن القبلية ، (كتاب الأموال ص٢٧٣) .

(٤) وكذا اعطي النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ثعلبة الخشني قطعة من الأرض ، وكتب له أبي بن كعب وثيقة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك يدل على كتابة العلم .

ومنها : ما كتب النبي صلى الله عليه وسلم خطوطه إلى الملوك والسلاطين والأمراء ، مثلاً : ما كتب إلى هرقل وكسرى والمقوقس وغيرهم من المكاتيب والخطوط ، فكل هذه تدل على كتابة العلم كما مر سابقاً .

منها : ما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عماله في الأحكام الحكومية والمسائل الشرعية مثلاً :

(١) ما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره ، (جامع بيان العلم ص٣٦) .

(٢) ما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقة فلم يخرجه إلى عماله حتى قبض فقرن بسيفه فعمل به أبو بكر حتى قبض ثم عمل به عمر حتى قبض ، (أبو داؤد ١٥٦/١) .

(٣) وما كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً واعطى لأمير الجيش عبد الله بن جحش وأمره ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه (سيرة ابن هشام ٢٥٣/٢) .

منها : ما كتب النبي صلى الله عليه وسلم في بعض المسائل إلى آحاد الناس مثلاً :

(١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن : أن لا يمس القرآن الا طاهر ولا طلاق قبل إملاك ولا عتاق قبل أن يبتاع ، (الدارمي ص٢٩٣) .

(٢) قال جعفر بن علي : وجد في قائم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيفة مكتوب فيها "ملعون من أضل أعمى من سبيل" (جامع بيان العلم ص٣٦) .

(٣) عن الضحاك بن سفيان الكلابي ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليه : ان ورث امراة أشيم الضبابي من دية زوجها (الترمذي ٢/٣٣و أبو داؤد ٢/٥٠) .

(٤) خطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة خطبة فقال : اكتب لي يا رسول الله ! فقال : أكتبوا لأبي فلان (أبي شاه من اليمن)(البخاري ٢/٢٢) .

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال: إيتوني بكتاب أكتب لكم الخ وغير ذلك ، بالجملة ان الخطوط والمكاتيب والأوامر والمسائل التي كتبت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بأمره الشريف كثيرة جداً ، جمع كل هذا الأمور الدكتور حميد الله في كتابه "الوثائق السياسية" وبلغ عدده إلى إحدى واربعين ومائة ، وكل هذه داخلة تحت حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وتثبت به كتابة العلم يقيناً ، وأما كتابة العلم ثابتة من الصحابة بعدد كثير نذكر ههنا نبذة منها :

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً عنه مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا أكتب (البخاري١ /٢٢).

(٢) وعنه يقول : ما كان أحد اعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب بيده ويعى بقلبه وكنت أعي ولا أكتب ، استاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتاب عنه فأذن له (رواه أحمد فتح الباري ١ /٢١٨) .

(٣) عن عبد الله بن عمرو يقول: كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش ، وقالوا أتكتب كل شئ سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضاء ؟ فامسكت عن الكتاب فذكرت تلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ بإصبعه إلى فيه وقال: فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه الا حق ، (الدارمي ١ /١٢٧، وفتح الباري ١ /٢١٨، وأبوداؤد ٢ /١٥٨) .

(٤) وأيضاً قال : ما يرغبني في الحياة الا الصادقة و الوهظ ، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (الدارمي ١ /١٢٧) .

(٥) عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي هل عندكم كتاب ؟ قال : لا الا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة ، (بخاري ١/٢١) .

(٦) وأيضا عن علي رضي الله عنه قال : ما خصنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ لم يعلم به الناس كافة الا ما في قراب سيفي هذا ، وأخرج صحيفة مكتوبة فيها : لعن الله من ذبح لغير الله ، (فتح ١/٢١٥) .

(٧) قال معن : اخرج اليّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كتاباً وحلف أنه خط أبيه بيده ، (مختصر جامع بيان العلم ص٣٧) .

(٨) عن سعيد بن هلال قال : كنا إذا أكثرنا على أنس بن مالك رضي الله فأخرج الينا صحيفة عنده فقال : هذه سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم وعرضتها عليه ، (المستدرك) .

(٩) عن رافع بن خديج قال: قلت يا رسول الله انا نسمع منك اشياء أفنكتبها ؟ قال أكتبوا ذلك ولا حرج ! (مقدمة الأوجز ص٩ ، مجمع الزوائد ص١٥١) .

(١٠) وأسند الاسلمي عن علي مرفوعاً : إذا كتبتم الحديث فاكتبوه بسنده ، (مقدمة الأوجز ص٩) .

(١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمع عن النبي صلى الله عليه وسلم الحديث فيعجبه ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا احفظه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استعن بيمينك وأومأ بيده إلى الخط . (الترمذي ٩١/٢) .

(١٢) عن ابن أبي مليكة قال : كتب إليّ ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى باليمين على المدعى عليه ، (أبو داؤد ١٤٥/٢) .

(١٣) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه انه كتب إلى أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقضي الحاكم بين الاثنين وهو غضبان ن (أبو دؤد ٩١/٢) .

(١٤) عن الحسن بن عمر والضمري قال: تحدثت عند أبي هريرة رضي الله عنه بحديث فأنكره فقلت : اني سمعته منك فقال : ان كنت سمعته مني فهو مكتوب عندي ، (جامع بيان العلم) .

(١٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال كان عند رسول الله صلى الله علهي وسلم ناس من أصحابه وانا معهم وأنا أصغر القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فلما خرج القوم قلت : كيف تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقد سمعته ما قال تنهمكون في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحكوا وقالوا يا ابن أخينا ان كل ما سمعنا منه عندنا في كتاب ، (طبراني) .

(١٦) عن بشير بن نهيك قال كنت أكتب ما أسمع من أبي هريرة رضي الله فما أردت أن افارقه آتيته بكتابه فقرأته عليه وقلت له : هذا ما سمعت منك ؟ قال نعام (دارمي ١/١٢٧).

(١٧) أن صحيفة همام بن منبه التي جمعها همام لأحاديث أبي هريرة رضي الله عنه أدرجها الإمام احمد في مسنده ، وفيها مائة وثمانية وثلاثون حديثاً ، فجميع أحاديثه كتبها همام في تلك الصحيفة .

(١٨) عن سعيد بن جبير قال : كنت اسمع من ابن عمرو ابن عباس الحديث بالليل فاكتبه يواسطة الرحل (الدارمي ١/١٢٧) .

(١٩) ان أنساً كان يقول لبينه : يا بني قيدوا هذا العلم (الدارمي ١/١٢٦) .

(٢٠) عن أبي البختري سمعت حديثاً من رجل (ملك بن أوس الحدثان) فاعجبني فقلت: أكتبه لي فاتى به مكتوباً مذبراً (متقناً) أبو داؤد ٥٩/٢).

(٢١) أن عمر بن عبد العزيز كتب: أن من سال عن مواضع الفيء فهو ما حكم فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرآه المؤمنون عدلاً موافقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم، أبو داؤد ٥٥/٢).

(٢٢) قال عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما احرز الولد والوالد فهو لعصبته من كان، قال: فكتب له كتاباً فيه شهادة عبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت ورجل آخر الخ (أبو داؤد ٤٨/٢).

(٢٣) قال ابن وهب أخبرني الليث عن يحيى بن سعيد عن صدقة عمر بن الخطاب قال: نسخها لي عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب عبد الله بن عمرو في ثمغ فقص من خبره (أبوداؤد ٤٢/٢).

(٢٤) وفيه كتب معيقيب وشهد عبد الله بن الأرقم : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اوصى به عبد الله عمر امير المؤمنين الخ (أبو داؤد ٢/٤٢) .

(٢٥) عن انس بن مالك قال : حدثني محمود بن الربيع عن عتبان بن مالك قال : قدمت المدينة فلقيت عتبان لقلت : حديث بلغني عنك فبين الحديث إلى آخره وفيه قال أنس : فأعجبني هذا الحديث فقلت لابني : اكتبه فكتبه ، (مسلم ١/١٠) .

(٢٦) عن طاؤس قال : اتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على فمحاه ، الاقدر واشاره سفيان بن عيينة بذراعيه (مقدمة مسلم ص١٠) .

(٢٧) عن سالم عن أبي النضران عبد الله بن أبي أوفى كتب فقرأته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا لقيتموهم فاصبروا (البخاري ١/٣٩٧) .

(٢٨) عن عبيد الله بن عبد الله قال : كتب الضحاك بن قيس إلى النعمان بن بشير يسأله ، أي شئ قرأ رسول الله يوم الجمعة سوى سورة الجمعة ؟ فقال : كان يقرأ هل اتاك حديث الغاشية ، (مسلم ١/٢٨٨).

(٢٩) وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم : انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، (البخاري ١/ ٢٠) .

(٣٠) عن أبي امامة بن سهل بن حنيف قال : كتب معي عمر بن الخطاب إلى عبيدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله ورسوله مولى من لا مولى له ، والخال وارث من لا وارث له (ترمذي ٢/ ٣١).

(٣١) ان عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشاروا عليها أن يكتبها الخ كما في تدريب الراوي .

(٣٢) عن أنس بن مالك قال : كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً و أراد أن يكتب ، فقيل له أنهم لا يقرؤون كتاباً الا مختوماً الخ وغير ذلك ، بالجملة إذا امعنت النظر إلى الصحابة والتابعين ترى أنهم يحدثون ويكتبون الأحاديث بانفسهم حتى كانت عند بعضهم صحيفة ، ويجد ذكر تلك الصحائف في كتب أسماء الرجال كما في تذكرة الحفاظ للذهبي وغيره ، فعلى ضوء تلك الادلة المذكورة والإشارات السابقة ، نجزم جواز كتابة العلم بل

استحسانها ، ولذلك يقال : ان الأحاديث كانت محفوظة في عهد الصحابة والتابعين بالحفظ والكتابة على كلا النحويين ، فلا مجال لإنكار جواز الكتابة . فأما الجواب عن الذي استدل به على كراهة الكتابة فقال العسقلاني في فتح الباري ٢١٨/١ :

(١) أن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره والاذن في غير ذلك ،

(٢) أو أن النهي خاص لكتابة غير القرآن مع القرآن في تفريقها ،

(٣) أو أن النهي مقدم والاذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس ، وهو اقر بها مع أنه لا ينافيها ،

(٤) قيل النهي خاص بمن خشي الاتكال على الكتابة دون الحفظ والإذن لمن أمن منه ،

(٥) ومنهم من أعل حديث أبي سعيد وقال : الصواب وقفه على أبي سعيد قاله البخاري وغيره ، وقال عز الدين ابن السلام : لعله صلى الله عليه وسلم اذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان ، ونهى عن الكتابة عمن وثق بحفظه مخافة الاتكال على الكتاب ، أو نهى عن كتابة ذلك عنه حين خاف عليهم اختلاط ذلك بمصحف القرآن العظيم (مقدمة الفتح) .

والجواب عن الثاني بان عمر رضي الله عنه تـــرك جمـــع الأحـــاديث وكتابتها خوفاً من الالتباس بالقرآن ، لا من حيث أنه ما فهم جوازهـا ، والا كيف أشاروا أن يكتبها وهو أراد أيضا أن يكتب فهذا يـــدل على استحسان الكتابة عنده أيضاً ، وأما عن الثالث قوله و لم يأذن لنـا أي في بدأ الأمر ، وكذلك الجواب عن الرابع أيضاً ، واستدلوا أيضـا مما روي عن عائشة أنها قالت : جمع أبي عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وكانت خمس مائة حديث ، فبات ليلة يتقلب كثـــيراً فقلـت أتتقلب لشكوى أو لشئ بلغك ؟ فلما أصبح قال : أي بنيـــة هلمـي الأحاديث التي عندك ؟ فجئته بها فدعا بنار فأحرقها فقلت لما احرقتـها ؟ قال خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن رجـل ائتمنته ووثقته به ، ولم يكن كما حدثني ، فاكون قد نقلت ذلـك ، (كتر العمال ص٢٣٧) .

فجوابه قال في تذكرة الحفاظ هذا لا يصح ١/٥ ، وقال ابن كثير فيـه على بن صالح مجهول .

والله أعلم

الفائدة التاسعة والعشرون

في تدوين الحديث

قال الحافظ العسقلاني في أول مقدمة فتح الباري : أعلم ان آثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر أصحابه وكبار تبعهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة لأمرين :

أحدهما : انهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .

وثانيهما : لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم ، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة .

وذكر الشيخ زكريا الكاندهلوي أمراً ثالثاً وهو أهم لكثرة أشغالهم من نشر الإسلام والتبليغ والتعليم والجهاد وغير ذلك مع قلة أفرادهم ، فان الإسلام كان ضعيفاً وأهله قليلون ، فكان أحدهم يشغله جهاده وتبليغه الإسلام عن النظر في معشية والفراغ للتأليف وغيره ، فان التأليف يقتضي الفراغ التام .

ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار. فما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة في لأقطار ، وكثر الفتوحات ومات معظم الصحابة ، وتفرق أصحابهم

وأتباعهم ، وقل الضبط وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الاقدار واتسع الفرق وكاد الباطل أن يلتبس بالحق ، احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة.

خلاصة الكلام : ان كتابة الحديث مع اختلاف السلف في جوازه بدئت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم شاعت في عصر التابعين ، وبدء تدوينه في صور الكتب والرسائل في أواخر عصرهم .

التنبيه : – قال الشيخ زكريا الكاندهلوي : ليس غرض الحافظ أن كتابة الحديث لم تبدأ الا في أواخر عصر التابعين ، بل غرضه أن الكتابة بصورة الكتب والرسائل لم تشرع إلى ذلك الوقت ، والا فمجرد الكتابة كان من زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد بوب البخاري في صحيحه كتابة العلم .

واختلفوا في أول من دون الحديث قال الحافظ في مقدمة الفتح فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن عروبة وغيرهما ، فكانوا يصنعون كل باب على حدة إلى ان قام كبار أهل الطبقة الثالثة في منتصف القرن الثاني ، فدونوا الأحكام فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخي فيه القوي من حديث أهل الحجاز ، ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وصنف ابن جرج بمكة ، والأوزاعي بالشام ،

والثوري بالكوفة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، وهشيم بواسط ، ومعمر باليمن ، وابن المبارك بخراسان ، وجرير بن عبد الحميد بالري ، وكان هؤلاء في عصر واحد ، فلا يدري أيهم سبق ،

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم إلى أن رأي بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وذلك على رأس المأتين ، أي إلى منتصف القرن الثالث ، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً ، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً ، وصنف أسد بن موسى الأموي مسنداً ، وصنف نعيم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسنداً ، ثم اقتفي الأئمة أثرهم في ذلك ،

فقال إمام من الحفاظ الا وصنف حديثه على المسانيد كالامام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهوية ، وعثمان بن أبي شيبة وغيرهم من النبلاء ومنهم من صنف على الابواب وعلى المسانيد معاً كأبي بكر بن أبي شيبة الخ .

قال القسطلاني منهم من رتب على المسانيد كالامام احمد بن حنبل ، واسحاق بن راهويه ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، واحمد بن منيع وهكذا ذكر أسماء آخو ومنهم من رتب على العلل ، بأن يجمع في كل

متن طرقه ، واختلاف الرواة فيه ، بحيث يتضح إرسال ما يكون متصلاً ، أو وقف ما يكون مرفوعاً أو غير ذلك ، ومنهم من رتب على أبواب الفقه وغيرها ونوعه أنواعاً ، وجمع ما ورد في كل نوع وفي كل حكم اثباتاً ونفياً في باب فباب بحيث يتميز ما يدخل في الصوم مثلاً عما يتعلق بالصلاة ، وأهل هذه الطريقة منهم من تقيد بالصحيح كالشيخين وغيرهما منهم من لم يتقيد بذلك كباقي الكتب السنة .

فجعل الحافظ أول المدونين ثلاثة أنواع ، مدوني الابواب والأحكام ، ومدوني المسانيد ، والمقتصر على الصحيح فقط ، ولم يتعرض في كلامه هذا إلى أول الجامع مطلقاً ، وهو الزهري على ما هو المشهور على الألسن ، وأبوبكر بن محمد بن عمرو بن حزم كما يؤدي إليه النظر الدقيق ،

ومال إليه الحافظ في الفتح في شرح قول البخاري : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم : أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، قال الحافظ هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري نسب لجد أبيه ، ويستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي

، وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ فلما خاف عمر بن عبد العزيز وكان على رأس المائة الاولى ذهاب العلم بموت العلماء ، رأى أن في تدوينه ضبطا له وابقاء ،

وكذا قال العيني في شرحه وعلم من ذلك أن اطلاق أئمة الحديث على جماعة من المحدثين أنهم أول من صنف أما باعتبار نوع خاص من أنواع التأليف أو باعتبار بلده ، وعلم أيضاً أن أول هذه الطبقات هي طبقات أول المدونين مطلقاً الزهري على رأي السيوطي ، واختار هذا القول جماعة من المحققين ، وبه جزم الحافظ في الفتح في كتابة العلم فقال: وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ، ثم كثر التدوين ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير فلله الحمد الخ ،

وفي نيل الاماني لعل ابن شهاب أول من جمع على الاطلاق وتبعه هؤلاء فهؤلاء المشايخ كلهم مالوا أن أول المدونين مطلقاً الزهري ، وتقدم عن البخاري تعليقاً الاشارة إلى أن أولهم أبو بكر بن حزم وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم المتوفى ١٢٠ واختار هذا القول العلامة القسطلاني في شرح البخراي ، واختاره الهروي وغيره ،

وبالجملة أن الجمهور اختلفوا في واضع الحديث وأول مدونه على القولين وعصرهما واحد فالترجيح بينهما عسير .

يقول العبد الضعيف وينبغي للمصنف أن يلفت النظر إلى عصر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه هذا لأنه شرع في تدوين الفقه بعد المائة الاولى ، وهو عص الزهري وابن حزم أيضاً وتدوين الفقه بدون الأحاديث لا يمكن ، فالامام الأعظم جمع الأحاديث ورتب الأبوب ودون الشريعة فله مزية خاصة لتدوين الحديث والفقه فلله الحمد .

وأما الطبقة الثانية وهم جماعة في العصر ذو اقتراب ، وهم ربيع بن صبيح وسعيد بن عروبة ، وقيل بعدها ، إمام مالك بن أنس ، وابن جريح وغيرهما ، فهولاء كلهم أطلق عليهم اسم أول المدونين وعصرهم كما رأيت بعد مائة وخمسين إلى المائتين ، وكان عصر الزهري وأبي بكر بن حزم مقدماً عليهم ، فاطلاق ابتداء التدوين على هؤلاء النفر تجوز باعتبار البلدان أو الابواب وغير ذلك .

الفائدة : - ذكر محمد بن جعفر الكتاني : وقال في تبييض الصحيفة قال بعض من جمع مسند أبي حنيفة ، من مناقب أبي حنيفة التي انفرد بها : انه أول من دون علم الشريعة ورتبه أبواباً ، ثم تابعه مالك بن أنس في ترتيب الموطأ ولم يسبق أبا حنيفة أحد الخ .

قال الشيخ زكريا الكاندهلوي : ثم حدث بعد ذلك التأليف على الكتب والأبواب بتجريد الصحاح والحسان ، و أولهم الإمام البخاري محمد بن إسماعيل المتوفى ٢٥٦هـ ألف صحيحه ،

ثم اقتفى الأئمة المشهورون آثاره ، وأول من صنف في السنن على ما قاله الخطابي : هو الإمام المحدثين سليمان بن الأشعث أبو داؤد السجستاني المتوفى ٢٧٥هـ ،

فهذا ترتيب تدوين كتب الحديث الخ ، وأيضاً قال القسطلاني : أول من صنف في الصحيح محمد بن إسماعيل ، ومنهم المقتصر على الأحاديث المتضمنة للترغيب والترهيب ، ومنهم من حذف الإسناد واقتصر على المتن فقط كالبغوي في مصابيحه واللؤلؤ في مشكاته ،

وبالجملة فقد كثرت في هذا الشأن التصانيف ، وانتشرت في أنواعه وفنونه التأليفات و اتسعت دائرة الرواية في المشارق والمغارب ، واستنارت مناهج السنة لكل طالب .

وقال محمد بن جعفر الكتاني أول من صنف في الصحيح المجرد على ما قاله غير واحد الإمام أبو عبد الله البخاري ، وكانت الكتب قبله ممزوجاً فيها الصحيح وغيره ، ولا يرد على هذا بموطأ مالك ، فإنها قبل البخاري وهي مخصوصة بالصحيح أيضاً لأن مالكاً فيها

أدخل المرسل والمنقطع والبلاغات ، وليست من الصحيح على رأي جماعة خصوصاً المتأخرين ، ولكن قال الحافظ الفرق بين بلاغات الموطأ ومعلقات البخاري نظر ، فلو امعن النظر في الموطأ كما أمعن النظر في البخاري لعلم أنه لا فرق بينهما ، ثم قال صح أن مالكاً أول من صنف في الصحيح كما ذكره ابن العربي وغيره فافهم الخ .

قال الشيخ الشاه الانور الكشميري : ثم بعد متصف القرن الثالث يظهر رجال في الأمة في مصر والشام والاندلس وخراسان من حفاظ الحديث في الاشتهار إلى أوائل القرن التاسع للهجرة ما تورث العحب كثرتهم .

فمن الحنفية كالحافظ أبي بشير الدولابي والحافظ أبي جعفر الطحاوي والحافظ ابن أبي العوام السعدي والحافظ أبي محمد الحارثي صاحب مسند أبي حنيفة رحمه الله والحافظ عبد الباقي والحافظ أبي بكر الرازي الجصاص والحافظ أبي نصر القلاباذي والحافظ أبي محمد السمرقندي والحافظ شمس الدين السروجي والحافظ قطب الدين الحلبي والحافظ علاء الدين الماrديني والحافظ جمال الدين الزيلعي والحافظ علاء الدين المغلطائي والحافظ بدر الدين العيني والحافظ قاسم بن قطلوبغا وغيرهم من الحفاظ الحنفية الخ .

ومن الشافعية كالحافظ الدار قطني والحافظ البيهقي والحافظ الخطابي والحافظ عز الدين بن عبد السلام والحافظ ابن دقيق العيد والحافظ العراقي والذهبي والمزي وابن الأثير الجزري والتقي السبكي والهيثمي وابن حجر ومن عداهم من الحفاظ الشافعية .

ومن المالكية كالحافظ حسين بن إسماعيل القاضي والحافظ الأصيلي والحافظ ابن عبد البر الأندلسي والحافظ أبو الوليد الباجي والحافظ القاضي أبي بكر العربي والحافظ عبد الحق صاحب المقدمات والحافظ أبو القاسم السهيلي وغيرهم .

ومن الحنابلة كالحافظ عبد الغني المقدسي صاحب الكمال والحافظ أبي الفرج بن الجوزي والحافظ موفق الدين ابن قدامة والحافظ أبي البركات ابن تيمية صاحب المنتقي والحافظ ابن رجب وغيرهم من قبلهم ومن بعدهم خلائق لا يحصون عدداً نبعت في هذه القرون الزدهرة والقوم كلهم اليوم عيال على مأدبة هؤلاء الأعلام وامائل الأعيان .

وبلاد الهند في هذه الاعصار دخلها رجال من المحدثين ، وخرج منها رجال في طلب الحديث، فتضلعوا غير أنهم لم يرجع كثير منهم فلم تنتفع بهم بلادهم ، وتجد في رواة الحديث عدة من رجال

الهند ولا سيما السند ، ومع هذا الحق يقال أن بلاد الهند حظها ضئيل جداً من علوم الحديث في تلك العصور الحافلة بالمحدثين في بلاد العراق وخراسان وغيرها ،

ثم كيف شاع علم الحديث في الهند والبنغال من تلك العصور الماضية إلى يومنا هذا . فقد ذكرته في الجزء الثاني لكتابي هذا ، فعليكم بالبسط والتفصيل . والله أعلم .

الفائدة الثلاثون : في تحقيق الاجتهاد والتقليد

قال الشيخ ولي الله الدهلوي رح في كتابه : " عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد" حقيقة الاجتهاد على ما يفهم من كلام العلماء استفرغ الجهد في إدراك الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية الراجعة كلياتها إلى أربعة أقسام الكتاب والسنة والإجماع والقياس ـــ وأيضا ، قال: وشرطه انه لا بد له ان يعرف من الكتاب والسنة ما يتعلق بالأحكام ومواقع الإجماع وشرائط القياس وكيفية النظر وعلم العربية والناسخ والمنسوخ وحال الرواة ولا حاجة إلى الكلام والفقه ، ـ وأيضا قال: قال البغوي ، والمجتهد من جمع خمسة أنواع من العلم :

علم كتاب الله عز وجل .

وعلم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلم أقاويل علماء السلف من اجماعهم واختلافهم .

وعلم اللغة .

وعلم القياس ، وهو طريق استنباط الحكم عن الكتاب والسنة اذا لم يجده صريحاً في نص كتاب أو سنة او إجماع ، فيجب ان يعلم من علم الكتاب الناسخ والمنسوخ والمجمل والمفسر والخاص والعام

والمحكم والمتشابه والكراهة والتحريم والاباحة والندب والوجوب، ويعرف من السنة هذه الاشياء ويعرف منها الصحيح والضعيف والمسند والمرسل ، ويعرف ترتيب السنة على الكتاب وترتيب الكتاب على السنة حتى لو وجد حديثاً لا يوافق ظاهره الكتاب يهتدي إلى وجه محملة ، فان السنة بيان الكتاب ولا تخالفه ، وانما يجب معرفة ما ورد منها في أحكام الشرع دون ما عداها من القصص والاخبار والمواعظ، .

وكذلك يجب أن يعرف من علم الفقه ما اتى في كتاب أو سنة في أمور الكلام دون الإحاطة بجميع لغات العرب وينبغي أن يتخرج فيها بحيث يقف على مرام كلام العرب فيما يدل على المراد من اختلاف المحال والأحوال لأن الخطاب ورد بلسان العرب، فمن لم يعرف لا يقف على مراد الشارع ،

ويعرف اقاويل الصحابة والتابعين في الأحكام ومعظم فتاوى فقهاء الأمة حتى لا يقع حكمه مخالفاً لأقوالهم، فيكون فيه خرق الاجتماع، وإذا عرف من كل هذه الأنواع معظمه، فهو حينئذ مجتهد، ولا يشترط معرفة جميعها بحيث لا يشذ عنه شيء منها، واذا لم يعرف نوعاً من هذه الأنواع فسبيله التقليد ، وان كان في مذهب

واحد من احاد ائمة السلف، فلا يجوز له تقلد القضاء ولا الترصد للفتيا ، واذا جمع هذه العلوم وكان مجانب للأهواء والبدع متدرعا بالورع محترزاً عن الكبائر غير مصر على الصغائر، جاز له ان يتقلد القضاء ويتصرف في الشرع بالاجتهاد والفتوى ، ويجب على من لم يجمع هذه الشرائط تقليده فيما يعن له من الحوادث (انتهى كلام البغوي) .

وروى الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه عن الإمام الشافعي رح أنه قال : لا يحل لأحد أن يفتي (أي يجتهد) في دين الله الا رجلاً عارفاً بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابه وتاويله وتنزيله ومكيه ومدنيه وما اريد به ، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة بصيراً بالشعر، وما يحتاج اليه للسنة القران ، ويستعمل هذا مع الانصاف ، .

ويكون بعد هذا مشرفاً على اختلاف الامصار والقران ، وتكون له فريحة بعد هذا ، فاذا كان هذا فله ان يتكلم ويفتي في الحلال والحرام ، واذا لم يكن هكذا فليس له ان يفتي ، وقال ابن القيم في اعلام الموفقين ج١ ص١٦ قال على بن شقيق : قيل لابن المبارك

متى يفتي الرجل ؟ قال : إذا كان عارفاً بالأثر وبصيراً بالرأي ، وقيل يحيى بن اكثم متى يجب للرجل ان يفتي ؟

فقال إذا كان بصيراً بالرأي بصيراً بالأثر، ثم قال ابن القيم يريد ان بالرأي القياس الصحيح والمعاني والعلل الصحيحة التي علق الشارع بها الأحكام وجعلها مؤثرة طرداً وعكساً ، وأخرج أبو نعيم عن أبي مصعب قال سمعت مالكاً يقول : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون شيخا إني أهل لذاك ، وأيضا قال الإمام مالك : لا ينبغي لرجل ان يرى نفسه اهلاً لشئ حتى يسأل من هو اعلم منه، فثبت من نصوص هؤلاء العلماء الأئمة: ان الاجتهاد لا يجوز لغير أهله واهله هو الذي يكون جامعاً لشرائطه التي وقعت الاشارة عليها من كلام الشافعي واحمد ومالك وغيرهم ، .

واما غير أهل الاجتهاد فليس له الا تقليد أهل العلم ، وان الاجتهاد والتقليد امر متوارث من خير القرون ، وليس بمحدث في القرن الرابع كما يزعم بعض السفهاء .

وقال الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في الإنصاف ص ٧٩ : واعلم ان المجتهد المطلق من جمع خمسة من العلوم ، قال النووي في المنهاج وشرط القاضي مسلم مكلف حر عدل سميع بصير ناطق كاف

مجتهد وهو ان يعرف من القران والسنة ما يتعلق بالأحكام وخاصه وعامه ومجمله ومبينه وناسخه ومنسوخه ومتواتر السنة وغيره والمتصل والمرسل وحال الرواة قوة وضعفاء لسان العرب لغة ونحوا وأقوال العلماء من الصحابة فمن بعدهم اجتماعاً واختلافاً والقياس بأنواعه ، وأيضا قال الشيخ الدهلوي في عقد الجيد : وقد صرح الرافعي والنووي وغيرهما ممن لا يحصى كثيرة أن المجتهد المطلق الذي تفسيره على قسمين مستقل ومنتسب ، ويظهر من كلامهم ان المستقل يمتاز عن غيره بثلاث خصال :

أحدها: التصرف في الأصول التي عليها بناء مجتهداته .

وثانيها : تتبع الآيات والأحاديث والآثار لمعرفة الأحكام التي سبق بالجواب فيها واختيار بعض الأدلة المتعارضة على بعض ، وبيان الراجح من محتملاته ، والتنبيه لمأخذ الأحكام من تلك الأدلة والذي نرى والله أعلم أن ذلك ثلثا علم الشافعي رحمة الله عليه .

وثالثها : الكلام في المسائل التي لم يسبق بالجواب فيها أخذا من تلك الأدلة، والمنتسب من سلم أصول شيخه واستعان بكلام كثير في تتبع الأدلة والتنبيه للمأخذ ، وهو مع ذلك مستيقن بالأحكام من قبل أدلتها قادر على استنباط المسائل منها قل ذلك منه او كثر ، وانما

يشترط الامورا لمذكورة في المجتهد المطلق ، واما الذي هـو دونـه في المرتبة فهو مجتهد في المذهب، وهو مقلد لامامه فيما ظهر فيه نصه لكنه يعرف قواعد امامه وما بنى عليه مذهبه ، فاذا وقعت حادثة و لم يعرف لامامه فيها نصاً اجتهد فيها على مذهبه ، وخرجها من أقواله وعلـى منواله ودونه في المرتبة مجتهد الفتيا وهو المتبحـر في مذهـب امامـه المتمكن من ترجيح قول على اخر ووجهه من وجوه الاصحاب علـى آخر . والله أعلم ،

وذكر المحقق ابن العابدين في شرح عقود رسـم المفـتي : ان الفقهاء على سبع طبقات ، وجعل فيها ثلاث طبقـات للمجتـهدين والبواقي للمقلدين حيث قال :

الأولى : طبقة المجتهدين في الشرع كالأئمة الاربعة ومن سـلك مسلكهم في تأسيس قواعد الاصول واستنباط احكام الفـروع عـن الادلة الاربعة غير تقليد لأحد لا في الفروع ولا في الاصول .

الثانية : طبقة المجتهدين في المذهب كابي يوسف ومحمد وسائر أصحاب ابي حنيفة ، القادرين على استخراج الأحكام عـن الادلـة المذكورة على حسب القواعد التي قررها استاذهم ، فانهم وان خالفوه في بعض احكام الفروع لكنهم يقلدونه في قواعد الأصول ، .

الثالثة :

طبقة المجتهدين في المسائل، التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب ، كالخصاف وابي جعفر الطحاوي وابي الحسن الكرخي وشمس الأئمة الحلواني وشمس الأئمة السرخسي وفخر الإسلام البزدوي وفخرا لدين قاضي خان وغيرهم فاهم لا يقدرون على مخالفة الإمام لا في الاصول ولا في الفروع ، لكنهم يستنبطون الاحكام من المسائل التي لا نص فيها عنه على حسب اصول قررها ومقتضى قواعد بسطها.

الرابع : طبقة أصحاب التخريج من المقلدين ، كالرازي واضرابه الخ أقول ان الإمام الشاه ولي الله الدهلوي قسم المجتهد المطلق إلى قسمين مستقل ومنتسب ، والذي دونهما فهو المجتهد في المذهب ، والذي دونه فهو المجتهد في المسائل أو مجتهد الفتيا، وهكذا فسره الإمام في الإنصاف ص٨٢ تفصيلا مع ضرب المثال ، .

واما الذي قاله المحقق ابن عابدين فيعلم منه : ان المجتهد المطلق قسم واحد والثاني هو المجتهد في المذهب ، وعد من الثاني الإمام ابا يوسف والامام محمداً وزفر وغيرهم من اصحاب الإمام الاعظم رضي الله عنه ،

وعند العبد الضعيف هذا كلام فيه نظر، لأن أصحاب الإمام الاعظم كانوا مستقلين في تفكرهم الفقهي كل الاستقلال، وما كانوا مقلدين لشيخهم بأي نحو من نواحي التقليد ، وكونهم درسوا آراءه أو تلقوها عليه او تثقفوا في دراساتهم عليه لا يمنع اســـتقلال تفكـــيرهم وحرية اجتهادهم، والا كان من يتلقى على شخص لا بد ان يكـــون مقلداً له ، ابتدا دراساته بتلقي فقه ابراهيم النخعي على شيخه حماد بن سليمان وكان كثير التخريج عليه ، ولكن أبا حنيفة فقيه مستقل وافقه أحيانا وخالفه أحيانا ، وما وافقه انما وافقه على بينة واســـتدلال ، لا على مجر التقليد والاتباع ،

كذلك أصحاب أبي حنيفة مثل ابي يوسف ومحمـــد وزفـــر وغيرهم ، درسوا فقهه وتلقوا عليه طريق اجتهاده فوافقوه في بعضـــها وخالفوه في غيرها، وما كانت الموافقة عن تقليد فقط ، بل عن اقتناع استدلال وتصديق للدلائل، وما ذلك شان المقلدين ، وإذا كـــانت الأصول التي بني عليها الاستنباط عند هؤلاء التلاميذ وشيخهم متحدة في أكثرها ، فليست متحدة في كلها ، وحســـبهم تلـــك المخالفـــة للاستقلال ، واهم ان اتحد وافي طريقة الاستنباط فليس ذلك عن تقليد فقط ومن يدرس حياة أولئك الأئمة يبعد عنهم صفة التقليد ابعادا تاما

، فهم لم يكتفوا بما درسوا علي شيخهم ، بل درسوا من بعده آخر فأبو يوسف درس بعده ولزم أصحاب الحديث ، واخذ منهم أحاديث كثيرة بعد أبي حنيفة ثم هو قد اختبر للقضاء وعرف أحوال الناس فصدق ما وافق فيه شيخه بقصد القضاء وخالف فيه في بعض الأمور بما هداه الله أليه للحكم والقضاء بين الناس،

وكذا محمد لم يلازم أبا حنيفة الامدة قليلة في العلمية ثم اتصل بمالك وروي عنه الموطا وروايته اصح الروايات إسنادا ، فلو كان مقلدا فلا يتلقى الإمامين لأبى حنيفة أو مالك أما معا ، فالا نصاف آن نقول آن الإمام أبا حنيفة كان إماما مجتهدا مستقلا مطلقا ،

وكذلك الإمام أبو يوسف ومحمد وزفر كانوا مجتهدين مطلقين ولكنهم وافقوه بأكثر مما خالفوا، وما خالفوه فانما خالفوه بالدلائل، ومع ذلك اتحدوا في اكثر الأصول مع شيخهم الإمام الأعظم ، فاحق ان يكونوا منتسين للإمام الأعظم ، فالذي قاله الإمام ولي الله الدهلوي فهو صواب وحق فأصحاب الإمام الأعظم من أبي يوسف ومحمد وزفر رح وغيرهم الذين عدهم ابن عابدين من طبقة المجتهدين في المذهب ليسوا كذلك ، بل هم من المجتهدين المنتسبين في درجة المجتهدين المطلقين، قال الشيخ الدهلوي في الإنصاف

وانقرض المجتهد المطلق المنتسب في مذهب الإمام أبي حنيفة بعد المائة الثالثة .

وانما كان فيه المجتهدون في المذهب ، إلى ان قال : ومترلة مذهب احمد من مذهب الشافعي رح مترلة مذهب أبي يوسف ومحمد من مذهب أبي حنيفة، آلا آن مذهبه لم يجمع في التدوين مع مذهب الشافعي ، كما دون مذهبهما مع مذهب أبي حنيفة ، فلذلك لم يعدا مذهبا واحداً فيما نرى والله اعلم ، .

واما التقليد فقال في كشاف اصطلاحا ت الفنون : التقليد اتباع الإنسان عيره فيما يقول آو يفعل معتقدا للحقيه من غير نظرا لي الدليل ، كان هذا المتبع جعل قول الغير او فعله قلادة في عنقه من غير مطالبة دليل ، وفي النامي شرح الحسامي : التقليد اتباع الغير علي ظن انه محق بلا نظر في الدليل ،

قال الإمام ولي الله الدهلوي في عقد الجيد أن الأمة اجتمعت علي ان يعتمد واعلي السلف في معرفة الشريعة فالتابعون اعتمدا في ذلك على الصحابة ، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا في كل طبقة اعتمد العلماء علي من قبلهم والعقل يدل علي حسن ذلك لان الشريعة لا يعرف إلا بالنقل والاستنباط والنقل لا يستقيم إلا بان

، فهم لم يكتفوا بما درسوا علي شيخهم ، بل درسوا من بعده آخر فأبو يوسف درس بعده ولزم أصحاب الحديث ، واخذ منهم أحاديث كثيرة بعد أبي حنيفة ثم هو قد اختبر للقضاء وعرف أحوال الناس فصدق ما وافق فيه شيخه بقصد القضاء وخالف فيه في بعض الأمور بما هداه الله أليه للحكم والقضاء بين الناس،

وكذا محمد لم يلازم أبا حنيفة الامدة قليلة في العلمية ثم اتصل بمالك وروي عنه الموطا وروايته اصح الروايات إسنادا ، فلو كان مقلدا فلا يتلقى الإمامين لأبي حنيفة أو مالك أما معا ، فالا نصاف آن نقول آن الإمام أبا حنيفة كان إماما مجتهدا مستقلا مطلقا ،

وكذلك الإمام أبو يوسف ومحمد وزفر كانوا مجتهدين مطلقين ولكنهم وافقوه بأكثر مما خالفوا، وما خالفوه فانما خالفوه بالدلائل، ومع ذلك اتحدوا في اكثر الأصول مع شيخهم الإمام الأعظم ، فاحق ان يكونوا منتسين للإمام الأعظم ، فالذي قاله الإمام ولي الله الدهلوي فهو صواب وحق فأصحاب الإمام الأعظم من أبي يوسف ومحمد وزفر رح وغيرهم الذين عدهم ابن عابدين من طبقة المجتهدين في المذهب ليسوا كذلك ، بل هم من المجتهدين المنتسبين في درجة المجتهدين المطلقين، قال الشيخ الدهلوي في الإنصاف

وانقرض المجتهد المطلق المنتسب في مذهب الإمام أبي حنيفة بعد المائة الثالثة .

وانما كان فيه المجتهدون في المذهب ، إلى ان قال : ومترلة مذهب احمد من مذهب الشافعي رح مترلة مذهب أبي يوسف ومحمد من مذهب أبي حنيفة، آلا آن مذهبه لم يجمع في التدوين مع مذهب الشافعي ، كما دون مذهبهما مع مذهب أبي حنيفة ، فلذلك لم يعدا مذهبا واحداً فيما نرى والله اعلم ، .

واما التقليد فقال في كشاف اصطلاحا ت الفنون : التقليد اتباع الإنسان عيره فيما يقول آو يفعل معتقدا للحقيه من غير نظرا لي الدليل ، كان هذا المتبع جعل قول الغير او فعله قلادة في عنقه من غير مطالبة دليل ، وفي النامي شرح الحسامي : التقليد اتباع الغير علي ظن انه محق بلا نظر في الدليل ،

قال الإمام ولي الله الدهلوي في عقد الجيد أن الأمة اجتمعت علي ان يعتمد واعلي السلف في معرفة الشريعة فالتابعون اعتمدا في ذلك على الصحابة ، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا في كل طبقة اعتمد العلماء علي من قبلهم والعقل يدل علي حسن ذلك لان الشريعة لا يعرف إلا بالنقل والاستنباط والنقل لا يستقيم إلا بان

يأخذ كل طبقة عمن قبلها بالاتصال وأيضا قال الإمام الدهلـــوي في الإنصاف :

اعلم أن الناس كانوا في المائة الأولى والثانية غير مجمعين علـــي التقليد لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكي في قوت القلـــوب : أن الكتب والمجموعات محدثته، والقول بمقالات النـــاس ، والفتيـــا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له في كل شئ والتفقـــه على مذهبه ، لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني ، انتهى أقول وبعد القرنين حدث فيهم شئ من التخريج غير ان أهـــل المائة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهب واحـــد والتفقه له والحكاية لقوله ،

كما يظهر من التتبع بل كان الناس على درجتين ، العلمـــاء والعامة ، وكان من خبر العامة انهم كانوا في المسائل الاجماعية الـــتي لا اختلاف فيها بين المسلمين او بين جمهور المجتهدين لا يقلدون صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل واحكـــام الصـــلاة والزكاة ونحو ذلك من ابائهم او علماء بلدانهم، فيمشون على ذلـــك واذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أي مفت وجدوا مـــن غـــير تعيين مذهب، ـــ

قال ابن الهمام في آخر التحرير ، كانوا يستفتون مرة واحداً ومرة غيره غير ملتزمين مفتياً واحداً ، .

وأيضا قال فيه : وبعد المائتين ظهر فيهم التمذهب للمجتهدين باعيانهم ، وقل من كان لا يعتمد على مذهب مجتهد بعينه ، وكان هذا هو الواجب في ذلك الزمان ، ـــ

وأيضا قال في عقد الجيد : ولما اندرست المذاهب الحقة الا هذه الأربعة ، كان اتباعها اتباعاً للسواد الأعظم، والخروج عنها خروجاً عن السواد الأعظم ـــ وأيضا قال فيه: لأن الناس لم يزالوا من زمن الصحابة إلى ان ظهرت المذاهب الأربعة ، يقلدون من اتفق من العلماء من غير نكير من أحد يعتبر إنكاره ، ولو كان ذلك باطلاً لا نكروه ـــ

وأيضا قال فيه : اعلم ان في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة ، وفي الإعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ، ـــ وقال الشيخ ابن الهمام في فتح القدير : انعقد الإجماع على عدم العمل بالمذاهب المخالفة للائمة الأربعة ، وقال ابن حجر المكي في فتح المبين ، اما في زماننا فقال أئمتنا لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وقال الطحاوي : من كان

خارجاً عن هذه الأربعة فهو من أهل البدعة والنار، وقال الشيخ الدهلوي في الإنصاف :

فإذا كان إنسان جاهل في بلاد الهند وما وراء النهر وليس هناك عالم شافعي ولا مالكي ولا حنبلي ولا كتاب من كتب هذه المذاهب ، وجب عليه ان يقلد لمذهب أبي حنيفة ويحرم عليه ان يخرج من مذهبه لأنه حنيئذ يخلع من عنقه ربقة الشريعة ويبقى سدي مهملاً ، بخلاف ما إذا كان في الحرمين، وأيضا قال في حجة الله البالغة : ان هذه المذاهب الأربعة المعروفة المحررة ،

قد اجتمعت الأمة أو من يعتد به منها ، على جواز تقليدها إلى يومنا هذا وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى، لاسيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم ، واشربت النفوس هوى واعجب كل ذي رأي برأئه"،

وقال الشيخ النووي رح في المجموع : ووجهه انه لو جاز اتباع أي مذهب شاء لافضى إلى ان يلتقط رخص المذاهب متبعاً هواه، ويتخير بين التحليل والتحريم والوجوب والجواز، وذلك يؤدي إلى انخلال ربقة التكليف ، بخلاف العصر الأول فانه لم تكن المذاهب الوافية بأحكام الحوادث مهذبة معروفة ، فعلى هذا يلزمه ان يجتهد في

اختيار مذهب يقلده على التعين ، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير: قال معمر لو أن رجلاً اخذ يقول أهل المدينة في استماع الغناء واتيان النساء في أدبارهن وبقول أهل مكة في المتعة والصرف وبقول أهل الكوفة في المسكر كان شر عباد الله ،

وقال العلامة ابن خلدون في مقدمته : ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ، ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه ، ولما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خشي من اسناد ذلك إلى غير أهله، ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه، فصرحوا بالعجز والاعواز ،

ورد ا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين، وخطروا ان يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب " وقال العلامة عبد الرؤوف المناوي في الفيض القدير عن الذهبي ، ويجب علينا ان نعتقد أن الأئمة الأربعة والسفيانين والاوزاعي وداؤد الظاهري وإسحاق بن راهوية وسائر الأئمة على هدي ......

وعلى غير المجتهد ان يقلد مذهباً معيناً ...... لكن لا يجوز تقليد الصحابة وكذا التابعين ، كما قاله إمام الحرمين : كل من لم يدون مذهبه فيمتنع تقليد غير الأربعة في القضاء والإفتاء لأن المذاهب الأربعة

انتشرت وتحررت، حتى ظهر تقييد مطلقها وتخصيص عامها بخلاف غيرهم لانقراض اتباعهم ، وقد نقل الإمام الرازي إجماع المحققين على منع العوام من تقليد أعيان الصحابة وأكابرهم " وقال النووي في المجموع : وليس له التمذهب بمذهب أحد من أئمة الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من الاولين ، وان كانوا اعلم واعلى درجة ممن بعدهم ، لأنهم لم يتفرعوا لتدوين العلم وضبط أصوله وفروعه ، فليس لأحد منهم مذهب مهذب محرر مقرر، وانما قام بذلك من جاء بعدهم من الأئمة الناحلين لمذهب الصحابة والتابعين القائمين بتمهيد أحكام الوقائع قبل وقوعها الناهضين بإيضاح أصولها وفروعها كمالك رح وأبي حنيفة رح، فظهرت من نصوص هؤلاء الجهابذة الكرام أمور :

التقليد جائز ليس هو بشرك وكفر، بل هو امر متوارث من خير القرون وليس هو بمحدث ، .

والتقليد المطلق كان في عهد الصحابة والتابعين شائعاً من غير تعين شخص ،

والتقليد الشخصي أي التقليد لإمام معين صار واجباً بعد المائتين وجوباً لغيره،

وان فيه مصلحة عظيمة ودونه فساد كبير، ومن يمعن النظر في تلك النصوص يعلم ما ذكرنا يقيناً، وفي كل هــذه الامــور بســط وتفصيل لا يسعه المقام ، ولكن الموضوع جواز التقليد ، كــان مــن اعظم المعارك بيننا وبين منكري التقليد حتى رأينا الحافظ ابــن القيــم وابن حزم وغرهما كانوا يردون على أهل التقليد أشد الرد، ويسيئون الأقوال في شان أئمة المجتهدين ومقلديهم، فوجب علينــا ان نثبــت جواز التقليد بالادلة والبراهين، وندفع التلبيسات والشكوك الــتي اورد علينا ، وهذا الموضوع أيضاً وسيع نذكرهنا مجملاً مختصراً ،

فأما الدلائل والشواهد من الايات فكثيرة، فمنها قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكــم فــان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليــوم الآخر (النساء٥٩) .

ففي تفسير أولي الأمر قال البعض ، المراد منه الحكام المســمون ، وقال بعضهم الفقهاء ، وهذا مروي عن جابر بن عبــد الله وابــن عباس ومجاهد وعطاء بن أبي رباح وعطاء بن السائب والحسن البصري وأبي العالية وغيرهم ، لأن الأمن والخوف حاصل في كل مــا يتعلــق بباب التكليف ، فثبت انه ليس في الآية ما يوجب تخصيصــها بــأمر

الحروب" وهكذا قال نواب صديق حسن خان ان في الآية إشارة إلى جواز القياس ، وان من العلم ما يدرك بالاستنباط ،

ومنها : قوله تعالى : "فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون " (التوبة ١٢٣) .

يثبت من هذه الآية ان تنشأ جماعة الذين يتفقهون في الدين ويحذرون قومهم الذين لا يعلمون ، فعلى القوم يجب الاتباع والعمل بأمرهم وهذا هو التقليد، قال الإمام الجصاص : فأوجب الحذر بإنذارهم والزم المنذرين قبول قولهم .

ومنها : قوله تعالى فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون(النحل ٤٢) . قال العلامة الألوسي في روح المعاني : واستدل بها ايضا على وجوب المراجعة للعلماء فيما لا يعلم وفي الاكليل للسيوطي : انه استدل بها على جواز تقليد العامي في الفروع ،

وهذه الآية وان كانت نزلت في امر خاص ولكن العبرة بعموم اللفظ لا لخصوص المورد ولا يضرنا ما قيل في المراد بآهل الذكر من الاختلاف اذ قيل المراد به أهل الكتاب وقيل هم الذين اسلموا من أهل الكتاب وقيل المسلمون لأن التقليد يثبت منها بدلالة النص لأنه أمر

فيها إلى المراجعة من أهل الذكر عند عدم العلم ، وهذا هو التقليد قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ، اما من يسوغ له التقليد فهو العامي الذي لا يعرف طرق الأحكام الشرعية ، فيجوز له ان يقلد عالماً، ويعمل بقوله قال الله تعالى : " فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ،

وأما ثبوت التقليد من الأحاديث فكثيرة اذكر نبذة منها :

منها: عن حذيفة رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لا ادري ما بقائي فيكم فاقتدوا بالذي من بعدي أبي بكر وعمر (رواه الترمذي وابن ماجة) والاقتداء يكون في الأمور الدينية ، كما في فقه اللغة القدوة القدوة ما تسننت به ، وكذا استعمل هذا في القرآن والحديث ، وهذا هو التقليد ،

ومنها: عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا (رواه البخاري ومسلم) يفهم منه إذا لم يبق عا لم الذي إذا سئل منه اجاب بالهدي ، بل يبق جاهل إذا سئل فافتي بغير علم فضل واضل، وهذه علامة القيامة ،

فيجب ان ينشأ عالم ويعمل الناس بأمره ، وما هذا الا وهو التقليد ، وفي هذا الزمان قد بقي من الأئمة المجتهدين أقوالهم ومسائلهم محررة ومهذبة فمن كتبهم يمكن تقليدهم ،

ومنها: عن أبي هريرة رض قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من افتى بغير علم كان اثمه على من افتاه (رواه ابو داود) هذا الحديث صريح على جواز التقليد والا فلا معنى لكون الإثم على المفتي

ومنها: عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين (رواه البيهقي في المدخل) فيه مذمة الجاهلين في تأويلاتهم ، و والترديد فريضة العلماء العدول ، فعلم انه من ليس له قوة الفهم في الدين لا يجوز له ان يتكلم في الشريعة بل عليه ان يراجع العلماء ويعمل بأقوالهم وهذا هو التقليد،

ومنها: عن أبي سعيد الخدري رض في حديث طويل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ايتموا بي وليأتم بكم من بعدكم (رواه البخاري) معناه أن الصف الأول في الصلاة يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم والصفوف المتأخرة يقتدون بالصف الأول ، وفيه معنى آخر

ذكره الحافظ العسقلاني في فتح الباري ، قيل معناه تعلموا مني أحكام الشريفة ، وليتعلم منكم التابعون بعدكم وكذلك اتباعهم إلى انقواض الدنيا، وهذا صريح في معنى التقليد ،

ومنها: عن سهل بن معاذ عن ابيه ان امرأة اتته فقالت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق زوجي غازياً وكنت اقتدي بصلاته إذا صلى وبفعله كله ، فاخبرني بعمل يبلغني عمله حتى يرجع (مسند أحمد) اخبرت المرأة انها تقتدي زوجها في كل فعله، ما انكرها النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا تقرير النبي صلى الله عليه وسلم على جواز التقليد ،

ومنها: عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم من كانت فيه خصلتان كتبه الله شاكراً وصابراً، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدي به ، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله (رواه الترمذي) فيه جواز التقليد لمن هو فوقه صراحة .

و اما أمثلة التقليد في عهد الصحابة وعملهم فكثيرة، فمنها عن ابن عباس رض قال: خطب عمر بن الخطاب الناس بالجابية ، وقال : يا أيها الناس من اراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ونن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن

أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فان الله جعلني له والياً وقاسماً (رواه الطبراني في الأوسط) فيه بيان للمراجعة إلى العلماء في الأمور الدينية صراحة وهو التقليد ،

ومنها : عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر انه سئل عن الرجل يكون له الدين على الرجل إلى اجل، فيضع عنه صاحب الحق ويعجله الاخر ، فكره ذلك عبد الله بن عمر ونهى عنه، (رواه في المؤطا مالك) فيه السوال عن الصحابي وجوابه باجتهاده من غير بيان حديث مرفوع ، وتسليم السائل فتواه من غير دليل عليه فكل هذه تقليد ،

ومنها: عن عبد الرحمن قال سألت محمد بن سيرين عن دخول الحمام فقال : كان عمر بن الخطاب يكرهه ، (اخرجه مسدد) فيه لما سئل ابن سيرين فاجاب بكراهة عمر رض فقط ، ولم يذكر سوى ذلك دليلا من حديث مرفوع ، فيفهم منه ان التقليد جائز وكان متوارثا في عهد الصحابة والتابعين ،

ومنها: عن سليمان بن يسار ان أبا أيوب الأنصاري خرج حاجاً حتى إذا كان بالنازية من طريق مكة اضل رواحله ، وانه قدم على عمر بن الخطاب يوم النحر، فذكر ذلك له ، فقال عمر بن

الخطاب اصنع ما يصنع المعتمر ثم قد حللت ، فإذا ادركك الحج قـابلا فاحجج واهد ما استيسر من الهدى، (رواه المؤطأ مالك) فيه سأل أبو أيوب الأنصاري في المسألة النازلة، أجابه عمر رض يفهمه واجتهاده ، ولم يسأله أبو أيوب عن دليله بل سلمه وعمل بما قاله، فهذا هو التقليد ،

ومنها : عن مصعب بن سعد قال كان أبي إذا صلى في المسجد تجوز واتم الركوع والسجود والصلاة ، وإذا صلى في البيت اطال الركوع والسجود والصلاة، قلت يا ابتاه إذا صليت في المسجد جوزت فإذا صليت في البيت اطلت ، قال يا بني ! انا أئمة يقتدي بنا. (رواه الطبراني في الكبير ورجاله صحيح) فيه ظاهر ان الصحابة عموماً يقتدون أكابرهم في أعمالهم من ان يسألوهم عن الدلائل ، فهذا إملوة التقليد فيهم ،

ومنها: ان عمر بن الخطاب رض رأى على طلحة بن عبيد الله ثوباً مصبوغاً وهو محرم ، فقال عمر رض: ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة ؟ فقال طلحة بن عبيد الله ، يا أمير المؤمنين إنما هو مدر، فقال عمر رض أنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم الناس ، فلو ان رجلا جاهلاً رأى هذا الثوب لقال : ان طلحة بن عبيد الله قد كان يلبس

الثياب المصبغة في الإحرام، فلا تلبسوا أيها الرهط شيئاً من هذه الثياب المصبغة (رواه في مسند أحمد) هذا صريح في التقليد .

ومنها : رأى عمر رض عبد الرحمن بن عوف : انه لبس خفا فقال عزمت عليك ان لا نزعتهما ، فاني أخاف ان ينظر الناس اليك فيقتدون بك (فكره في الاستيعاب) هذا واضح في التقليد .

ومنها : لما بعث عمر عبد الله بن مسعود رض إلى الكوفة ، فكتب إلى أهلها : اني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر اميراً ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر، فاقتدوا بهما واسمعوا من قولهما ،

ومنها : ما قال ابن مسعود في أصول القضاء ، يقول : فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله ، فان جاءه أمر ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم فليقض بما قضى به الصالحون ، فان جاءه أمر ليس في كتاب الله وقضى به النبي صلى الله عليه وسلم ولا قضى به الصالحون فليجتهد برأيه (رواه النسائي) يظهر منه ان الكتاب حجة أولاً ثم السنة على مطابقة القرآن حجة ثم ما قضى به الصالحون على موافقة الكتاب

والسنة حجة ثم الاجتهاد والقياس حجة إذا لم يخالف القرآن والسنة والاجماع ، ويجب العمل بمقتضاه وهذا هو التقليد ،

ومنها : عن سالم بن عبد الله قال: كان ابن عمر لا يقرأ خلف الإمام قال: فسألت القاسم بن محمد عن ذلك ، فقال : ان تركت فقد تركه ناس يقتدي بهم وان قرأت فقد قرأه ناس يقتدي بهم ، وكان القاسم ممن لا يقرأ (رواه موطا محمد) يظهر منه ان فيما فيه اختلاف الأئمة والدلائل متعارضة فالتقليد بأي قول فيه بحسن النية جائز وثابت

ومنها : عن الحسن انه سأله رجل اتشرب من ماء وهذه السقاية التي في المسجد فانها صدقة ، قال الحسن قد شرب أبو بكر وعمر رض من سقاية أم سعد فمه (رواه في كنز العمال) .

يتبين منه ان الحسن عمل بما عمل فيه الشيخان، وما هذا الا هو التقليد ، وهاهنا ذكرت أمثلة عا بدة في مسألة التقليد، والا فكتب الآثار مشحونة على نحو هذه ، قال الحافظ ابن القيم : والذين حفظت عنهم الفتاوى من أصحاب رسول الله صلى الله مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة، وكثير منها مذكورة في الموطا مالك وكتاب الآثار للإمام أبي حنيفة ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة وشرح معاني الاثار للإمام الطحاوي وغيرها ،

ولو شئت ان ترى النظائر للتقليد الشخصي فتجد كثيراً من الوقائع ايضاً في ذلك كما :

(١) في البخاري عن عكرمة قال ان أهل المدينة سألوا ابن عباس رضي الله عنهما عن امرأة طافت ثم حاضت، قال لهم تنفر ، قالوا لا نأخذ بقولك وندع قول زيد (رواه في معجم الإسماعيلي بطريق عبد الوهاب الثقفي وفيه يقول أهل المدينة " لا نبالي افتيتنا او لم تفتنا، زيد بن ثابت يقول لا تنفر " يعلم منه ان أهل المدينة يقلدون زيد بن ثابت خاصة ، ولا يعملون على خلافه، حتى روى ان ابن عباس استدل على قوله برواية أم سليم ومع ذلك لم يعملوا بقول ابن عباس ، ثم لما تفحص أهل المدينة ووجد الرواية موافقة لقول ابن عباس رض راجع إلى زيد بن ثابت فرجع عن قوله السابق ،

كما في مسلم والنسائي والبيهقي وغيرهما ، ويعلم من هذا ان طلب الدليل للمقلد ليس بحرام كما فهمه بعض السفهاء من غير المقلدين ، وللتفصيل انظر في عمدة القاري ،

(٢) روى في البخاري تحت كتاب الفرائض قال أبو موسى الأشعري: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم يعني عبد الله مسعود، قال هذا في الكوفة وكان ابن مسعود اعلم أهل الكوفة ، فاشار أبو

موسى الاشعري إلى تقليد عبد الله ابن مسعود خاصة دون نفسه وهذا هو التقليد الشخصي ،

(٣) روى في الترمذي وأبي داؤد وغيره: عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء قال: اقضي بكتاب الله قال: فان لم تجد في كتاب الله قال ، فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال. فان لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله ، قال : اجتهد راي ولا آلو ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ،

فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله، هذا نص ظاهر في التقليد والاجتهاد ، لأن معاذا بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن أميرا معلماً ومفتيا ، حيث رجع اليه الناس في القضاء والفتا ، وافتى هناك في كثير من المسائل ،

وهكذا افتى في غير اليمن ايضاً ، كما روى عن أبي مسلم الخولاني قال : اتيت مسجد أهل دمشق فإذا حلقة فيها كهول من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وفي رواية كثير بن هشام فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا شاب فيهم اكحل العينين براق الثنايا كلما اختلفوا في شيئ ردوه إلى

الفتى فتى شاب قال قلت لجليس لي من هذا ؟ قال: قال هذا معاذ بن جبل رض (رواه مسند احمد)، يظهر منه ان معاذا يفتي بين يدي كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حقه: أعلمهم بالحلال والحرام فلما بعثه إلى اليمن فهو يقضى ويفتي ، فعلى أهل اليمن أوجبهم ان يقلدوه ويتبعوه و يراجعوه في أمور دنياهم ودينهم وهل هذا الا التقليد الشخصي .

روى في سنن أبي داؤد عن عمرو بن ميمون الاودى قال : قدم علينا معاذ بن جبل اليمن رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الينا، فسمعت تكبيره مع الفجر رجل أجش الصوت، قال ألقيت محبتي عليه فما فارقته حتى دفنته بالشام ميتاً ، ثم نظرت إلى افقه النلس بعده فأتيت ابن مسعود فلزمته حتى مات ، " يعلم منه ان عمرو بن ميمون الاودي يقلد معاذ اثم ابن مسعود وهذا هو التقليد الشخصي"

وهكذا يوجد في كثير من التابعين انهم يقلدون بعض الصحابة خاصة أو يأمر بعضهم بعضا ان يقلد كذلك ، كما قال الشعبي من سره ان يأخذا بالوثيقة في القضاء فليأخذ بقول عمرو، قال مجاهد إذا اختلف الناس في شيئ فانظروا ما صنع عمر رض فخذوا به ، وقال اعمش في إبراهيم النخعي انه كان لا يعدل بقول عمر وعبد الله إذا

اجتمعا ، فان اختلفا كان قول عبد الله اعجب اليه ، وقال أبو تميمة قدمنا الشام فإذا الناس مجتمعون يطيقون برجل قال قلت من هذا قالوا هذا أفقه من بقي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هذا عمرو البكالي رض.

وقد اخرج كل هذه في اعلام الموقعين، وقال محمد بن جرير الطبري لم يكن أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه، وهذا مذاهبه في الفقه غير ابن مسعود وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر رض ، وكان لا يكاد يخالفه في شيئ من مذاهبه ويرجع من قوله إلى قوله ، وقال الشعبي : كان عبد الله لا يقنت، وقال : ولو قنت عمر رض لقنت عبد الله ، وقال طاؤس : أدركت سعبين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارؤا في شيئ انتهوا إلى قول ابن عباس وكل هذه النصوص تدل على التقليد الشخصي .

بالجملة قد ظهر مما سبق ان التقليد بكلا القسمين كان في عهد الصحابة والتابعين ، ولا فرق ان يقلد معيناً أو يستفتي حيناً هذا و حينا هذا بعدان يعقد واجواز التقليد، ثم اجمع الخلف على التقليد لشخص معين من الأئمة المجتهدين المشهورين كما بينا فيما سبق ، فمن قال ان

التقليد الشخصى أو التقليد مطلقاً شرك أو حرام أو بدكمنتالبيعة فهو جاهل أو سفيه لا يعبأ به والله اعلم وعلمه أتم .

ثم قسم الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في عقد الجيد: التقليد إلى أربعة منازل ، فقال : اعلم ان الناس في الاخذ بهذه المذاهب على أربعة منازل، ولكل قوم حد لا يجوز ان يتعدوه، أحدها مرتبة المجتهد المطلق المنتسب إلى صاحب مذهب من تلك المذاهب،

و ثانيها مرتبة المخرج وهو المجتهد في المذهب ، وثالثها مرتبة المتبحر في المذهب الذي حفظ المذهب واتقنه ، وهو يفتي بما اتقن وحفظ من مذهب أصحابه ورابعها المقلد الصرف الذي يستفتي علماء المذاهب ويعمل على فتواهم ، وكتب القوم مشحونة بشروط كل مترل واحكامه ، الا ان من الناس من لايميز بين المنازل فيتخبط في تلك الأحكام ويظنها متناقضة ، أردنا ان نجعل لكل مترل فصلا ، ونشير إلى احكام كل مترل على حدة " وفصل الإمام الدهلوي تفصيلا بين الأحكام والشروط لكل قسم لا نذكره هاهنا اختصاراً من شاء فليراجع إليه .

والان نذكر دفع بعض الشبهات والاعتراضات التي أوردها غير المقلدين علينا أهل التقليد :

الشبهة الأولى قال تعالى: وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قـالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباءهم لا يعلمـون شـيئاً ولا يهتدون (٢١/٣١) وأيضا قال : وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا اباءنا على أمة وانا على آثـارهم مقتدون قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آبائكم ٤٣/٢٣

وقوله تعالى : إذا قيل لهم تعالوا إلى ما انزل الله والى الرسـول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا " ٥/١٠٤ ، فعلم من هذه الآيـات ذم من اعرض عن ما انزل الله وقنع بتقليد الاباء ، فدفعها أولا ان الله تعالى ذم التقليد لمخالفة الحق ولم يذمه لاتباع الحق بل أوجبه حيـث أوجب اتباع الرسل وأولى الأمر منهم ، وأولوا الأمر شامل للأمـراء والعلماء كما هو مسلم عنده ، هل هو الا تقليد لهم ،

فلما كان التقليد نوعين تقليد لمخالفة الحق ، وتقليد لاتبـاع الحق، والأول حرام ، والثاني واجب ، فالاحتجاج بالآيات الدالة على حرمة النوع الأول من التقليد على حرمة النوع الثاني منه لا شك انـه من تلبيس الحق بالباطل أعاذنا الله من سوء الفهم وفتنة الجهل ، وثانيـا أن المشركين تقلدوا آباءهم في العقائد والأصول الدينية ، ولا يجـوز التقليد عندنا أيضا في العقائد والضروريات الدينية ، كما في شـرح

تحرير الأصول فما يحل الاستفتاء فيه فهو الأحكام الظنية لا العقلية المتعلقة بالاعتقاد ، فان المطلوب فيها العلم على المذهب الصحيح فلا يجوز التقليد فيها ، بل يجب تحصيلها بالنظر الصحيح ، كوجوده تعالى " فيقال ان القران ذم التقليد في العقائد ومنعه المجتهدون ايضاً فلا شبهة.

والشبهة الثانية واحتج بعضهم على بطلان التقليد بقوله تعالى : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " ٩/٣١ ، ذم القرآن تقليد الأحبار والرهبان: وهكذا يكون تقليد الأئمة .

دفعها ان هذه حجة باطلة أما أولا فلأن التقليد الذي نحن فيه ليس من تقليدهم الأحبار والرهبان : لأنهم كانوا يجعلونهم مستبدين بالتحليل والتحريم ، بخلاف المقلدين فانهم لا يجعلون أئمتهم كذلك، بل يقبلون قولهم من حيث انهم يكشفون عن قول الله والرسول .

واما ثانيا فان تقليد الأئمة ليس هو طاعة غير الله ورسوله ، وليس هو استقلالاً بل هو تبع لطاعة الله ورسوله ، قال الشيخ ابن تيمية في فتاوية انما يجب على الناس طاعة الله ورسوله وهؤلاء أولوا الأمر الذين أمر الله بطاعتهم انما تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله لا استقلالاً" وأيضا قال: فطاعة الله ورسوله وتحليل ما احله الله

ورسوله وتحريم ما حرمه الله ورسوله و إيجاب ما أوجبه الله ورسوله، واجب على جميع الثقلين الإنس والجن، واجب على كل أحد في كل حال سراً وعلانية : لكن لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس ، رجع الناس في ذلك إلى من يعلهم ذلك، لأنه اعلم بما قال الرسول :

واعلم بمراده قائمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول، يبلغوهم ما قاله ويفهموهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم ، وقد يخص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الآخر " فالأئمة المجتهدون ليسوا أربابا للمقلدين العياذ بالله ، لأن المقلد يقلدوهم بالواسطة لا بالذات والاستقلال والممنوع هو الثاني دوني الأول .

والشبهة الثالثة واحتج أيضا بقوله تعالى : " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء "٧/١٣ ، فامر باتباع المترل خاصة، والمقلد ليس له علم ان هذا هو المترل ، فالتقليد اتباع لغير المترل . دفعها بأن هذا باطل لأن اتباع ما انزل الله له طريقان أحدهما النظر والاستدلال والثاني التقليد ، والأول وظيفة العالم والثاني وظيفة

الجاهل حسب قوله تعال : فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمـــون " فهو داخل في قوله : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، فلا شبهة .

والرابعة واحتج أيضا بقوله تعالى " ان تنازعتم في شيء فــردوه إلى الله والرسول " ٤/٥٩ فان الله تعالى منعنا من الرد إلى غيره وهـــذا ينافي التقليد . دفعها هذا باطل أيضا لأن الرد إلى العالم بأحكـــام الله ورسوله رد إلى الله ورسوله فلا يكون منافياً للتقليد .

والخامسة احتج أيضا بقوله تعالى : " يوم تقلب وجوهـــهم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انـــا أطعنـــا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا ٣٣/٦٦. فان هذا نص في ذم التقليـــد وبطلانه . دفعها هذا باطل، لأن معنى قوله ان سادتنا وكبرائنا كـــانوا ضالين غير مهتدين فدعوا إيانا إلى طريقهم الضالة فأجبناهم فضللنـــا، فليس هو مما نحن فيه لأن سادتنا وكبراءنا ليسوا على الضلالة بل هـــم على الهدى فالحجة باطلة .

والسادسة احتج بقوله تعالى " ما هذه التماثيل ، التي انتم لهـــا عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين " ٢١/٥٢ ، أنهم تقلدوا آباءهم في عبادة التماثيل والمقلدون كذلك العياذ بالله . دفعها أن هذا بـــاطل لأنهم اتبعوا آباءهم الضالين المضلين وجعلوه ذريعة لرد الحق الثـــابت ،

وهذا لا يوجد تقليد المقلدين لأئمتهم الهداة ، فان المقلدين يقلدونهم لأجل اتباع الحق فقياس أحدهما على الآخر قياس الضد على الضد ، والعجب من هؤلاء الغير المقلدين، انهم يذمون القياس والرأي ويقيسون هم أنفسهم مثل هذه القياسات البديهة البطلان، ويذمون التقليد ويقلدون العلماء الذين يقيسون مثل هذه القياسات .

السابعة قال النبي صلى الله عليه وسلم : اتقوا زلة العالم، وقوله عليه السلام : ان اشد ما اتخوف على امتي ثلاث زلة العالم (الحديث)، ومن المعلوم ان المخوف في زلة العالم تقليده فيها ، اذ لو لا التقليد لم يخف من زلة العالم ، دفعها هذا باطل أما أولاً فان هذا خطاب لمن يعرف الزلة ، لأن الاتقاء بدون المعرفة غير ممكن، فلا يكون خطابا للمقلدين الذين لا يعرفون الزلة من الصواب ،

وإذا كان منشاء الزلة الاجتهاد وكان منشاءها هوى النفس فهي كما هي ممنوعة وأما ثانياً فانه ليس فيه نهي عن التقليد بل تنبيه للعلماء على أن يحتاطوا في الإفتاء وفيه تقرير للتقليد لأنه لو كان التقليد حراماً لم يكن للخوف من زلة العالم معنى فهو حجة لنا لا له .

الثامنة احتج بما روي عن عدي بن حاتم قال آتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك

هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، قال أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا احلوا لهم شيئاً اسحلوا وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه (رواه الترمذي) .

دفعها لا تعلق لهذا بالتقليد ، لأن أهل الكتاب جعلوا أحبلوهم ورهبانهم مستبدين بالحلال والحرام ، وأنهم معصومون عن الخطـــاء ، وليس كذلك الأئمة المجتهدون فانهم ليسوا مستبدين بالحلال والحرام ، بل هم متبعون بما في كتاب الله وسنة رسوله حســـب مـــا فـــهموا واجتهدوا، والمقلدون لا يجعلون أئمتهم مثل الأحبار والرهبان.

التاسعة واحتج أيضا بما روي عن عبد الله بن مسعود يقـول لا يقلدن رجل رجلاً دينه ان آمن آمن وان كفر كفر ، الدفع بأنه نهـى التقليد في الإيمانيات والعقائد ،

ونحن نقول بذلك أيضا بأن لا يجوز التقليد فيها ، ولكـــن في الأحكام الشرعية فيجوز التقليد فيها عنده أيضا ، كما روي عنه يقول من كان مستنا فليستن لمن قد مات فان الحي لا تؤمن عليـــه الفتنـــة أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا افضل هـــذه الأمـــة فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم مـــن خلاقهم وسيرتهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم .

العاشرة قال بعضهم قد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من اخذ أقوالهم بغير حجة ، قال الإمام الشافعي رح مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه افعى تلدغه وهو لا يدري (ذكره البيهقي)

دفعها اما أولاً فانه لا حجة له فيه لأن ما رواه عن الشافعي فليس فيه نهى عن التقليد اولو قلنا أن فيه ترغيباً إلى التقليد لكان أولى ، لأن الحجة للمجتهد الأدلة الشرعية مثل الكتاب والسنة والإجماع والقياس ،

ولغير المجتهد قول المجتهد العارف البصير، هذا لو اجتهد وقصد اتباع الحجة فلا يؤمن عليه أن يزعم غير الحجة حجة كحاطب ليل، فمثل المجتهد الخريت الماهر يسلك الطريق ببصيرة نفسه ، ومثل المقلد كمثل الغير العارف بالطريق يسلك خلف الخريت الماهر ، ومثل الغير المجتهد المقلد لنفسه كمثل حاطب ليل ، فهو حجة لنا لا له ،

و اما ثانياً فقال الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة انما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد ولو في مسألة واحدة ، وفيمن ظهر عليه ظهوراً بيناً أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكذا

وهى عن كذا وأنه ليس بمنسوخ ، أما بان يتبتع الأحـاديث وأقـوال المخالف والموافق في المسألة ، أو بان يراى جما غفيرا من المتيحريـن في العلم يذهبون إليه ،

ويرى المخالف له لا يحتج الا بقياس أو باستنباط أو نحو ذلك ، فحينئذ لا سبب لمخالفة حديث النبي صلى الله عليه وسلم الا نفـاق خفي أو حمق جلي .

وأما ثالثاً فلو كان معناه أنه لا يجوز لأحد أن يقلـد الإمـام، فكيف يسأل المسائل الإمام وهو يجيب عن نفسه ويفتي من غير ذكـر الدليل ، فلو لم يكن التقليد جائزاً عنده ، فكيف أقام نفسه في هـذا المقام ، ومع ذلك توجد النصوص على لزومه لغير المجتـهد، ففـي الكفاية شرح الهداية : وإذا كان المفتي على هذه الصفة فعلى العـامي تقليده وان كان المفتي أخطأ في ذلك ، ولا معتبر بغيره هكـذا روى الحسن عن أبي حنيفة رح وابن رستم عن محمد رح وبشير بن الوليـد عن أبي يوسف رح،

وقال ابن تيمية في شان الإمام أحمد رح ، ويأمر العامي بـان يستفتي إسحاق وأبا عبيد وأبا ثور وأبا مصعب وينهى العلمـاء مـن أصحابه كابي داؤد وعثمان بن وسلم سعيد وإبراهيم الحربي وأبي بكـر

الاثرم وأبي ذرعة وأبي حاتم السجستاني ، وغير هؤلاء ان يقلد واحداً من العلماء ويقول علكم بالأصل بالكتاب والسنة ، وقال العلامة سيف الدين الآمدي: والعامي ومن ليس له أهلية الاجتهاد وان كان محصلا لبعض العلوم المعتبرة في الاجتهاد يلزمه اتباع قول المجتهدين الأخذ بفتواه عند المحققين من الأصوليين ، ومنع من ذلك بعض المعتزلة البغداديين " إحكام الأحكام للآمدي " وقال الخطيب في الفقيه والمتفقة :

وحكى عن بعض المعتزلة أنه قال لا يجوز للعامي العمل بقول العالم حتى يعرف علة الحكم، وهذا غلط لأنه لا سبيل للعامي إلى الوقوف على ذلك الا بعد أن يتفقه سنين كثيرة، ويخالط الفقهاء المدة الطويلة، ويتحقق طرق القياس ويعلم ما يصححه ويفسده ، وما يجب تقديمه على غيره من الأدلة وفي تكليف العامة بذلك تكليف ما لا يطيقونه ولا سبيل لهم إليه " فظهر من هذه النصوص الأئمة المجتهدين أوجبوا التقليد العامي

فكيف يتصور منهم نهى التقليد وعدم جوازه ، ولا تغفل عما قال الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة ان هذه المذاهب

الأربعة المدونة المحررة قد اجمعت الأمة أو من يعتد به منها على جواز تقليدها إلى يومنا هذا ،

وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى لا سيما في هذه الايام التي قصرت منها الهمم واشربت النفوس هوى ، وأيضا قال في " عقد الجيد" ولما اندرست المذاهب الحقة الا هذه الأربعة كان اتباعها اتباعاً للسواد الأعظم ، والخروج عنها خروجاً عن السواد الأعظم ، وأيضا قال فيه " اعلم أن في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفي الإعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ، واليك هذا الكلام المجمل في هذا الموضوع وعليك بالمطولات ، والله اعلم

الفائدة الحادية والثلاثون

البرهان في تذكرة النعمان الإمام الأعظم

أبي حنيفة رضي الله عنه واسمه ونسبه

هو النعمان بن ثابت بن نعمان ابن المرزبان من ابناء فارس الاحرار ينسب إلى اسرة شريفة في قومه اصله من كابل اسلم حده ايام عمر رض وتحول إلى الكوفة واتخذها ساكناً وروى الخطيب بسنده إلى اسمعيل بن حماد ابن أبي حنيفة انه قال والله ما وقع علينا رق قط ولد جدي سنة ثمانين وذهب ثابت إلى على ابن أبي طالب وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته ونحن نرجو من الله تعالى أن يكون قد استجاب ذلك لعلي بن أبي طالب (تاريخ بغداد ١٣/ص٣٢٦) .

وقال أبو عبد الله بن احمد بن كدام : وقد استجاب الله دعائه حيث جعل خلفاء الأرض وملوك الآفاق وأكثر أهل الإسلام تبعاً له في الدين وعالة عليه في الفقه أقول تسمية جد أبي حنيفة بالنعمان في رواية والمرزبان في رواية ثانية وزوطي ابن ماه في رواية ثالثة فقال المحدث الفقيه مسعود بن شيبة السندي جمعاً بين هذه الروايات ان معنى المرزبان الرئيس فيحتمل أن يكون النعمان وماه اسمان له أو أحدهما اسماً والآخر لقباً ويكون معنى زوطي بالعربية النعمان ومعنى ماه

المرزبان والله أعلم ـــ أو يقال بان زوطي اسم جاهلي ونعمان اسم إسلامي وكذا بين ماه ومرزبان بأن معنى كليهما الرئيس ولد الإمام بالكوفة سنة ثمانين من الهجرة على رواية الأكثرين في خلافة عبد الملك بن مروان وعلى رواية أنه ولد سنة إحدى وستين ورجحه الحافظ السمعاني وابن حبان وأبو القاسم السمعاني ويقول الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير هو الصحيح وأنه من المعمرين جاوز السبعين في العمر كما في الروض الباسم ج١ ص١٩٣ وفي رواية انه ولد في سبعين

ورجحه محقق العصر في ديار مصر العلامة زاهد الكوثري بالقرائن والدلائل ولكن أكثر المؤرخين ذهبوا إلى انه ولد في ثمانين ومن هذه السنة بينوا كل سنين لحياته ولذا عدوا كل واقعة وقعت في حياة الإمام حسب تلك الروايات المشهورة ولو عد مولده من سبعين لزاد عشر سنوات في عدد كل واقعة فحينئذ يمكن ان يعد صحيحاً ما كان لايعد صحيحاً من قلة العمر والله اعلم بحقيقة الحال ،

مع كل ذلك ولد الإمام في الأسرة الإسلامية في إحدى مدن العراق العظيمة مركز العلوم الدينية والثقافة الإسلامية أي الكوفة التي وردت عليها جماعة من الصحابة بعدد ألف وخمس مائة و ولوف من التابعين والفقهاء فنشأ الإمام فيها متعلماً تم متكلماً ومحدثاً وفقيهاً حتى

صار جامعاً لمكارم الأخلاق والفضائل والكمالات العلمية والعمليـــة وكان رحمه الله اسمر اللون مع ميل إلى بياضه ربعة من الناس إلى الطول أقرب جميل الصورة مهيب الطلعة طويل اللحية وقوراً يتأنق في ثوبــه وعمامته ونعليه النطق حلوا النغمة فصيحاً كثير التطيب يعرف بـــه إذا ذهب واذا جاء نحيفاً يبقى عليه دائماً خوفة من الله تعالى وطول مراقبته وكثرة عبادته ،

قال الإمام أبو يوسف كان أبو حنيفة ربعة من الرجال ليـــس بالقصير ولا بالطويل وكان أحسن الناس منطقاً واحلاهم نغمة وابينهم مما يريد ـــ وقال أبو نعيم شيخ البخاري كان أبو حنيفة جميلاً حســن الوجه حسن اللحية حسن الثوب والنعل والبر والمواسات لكل أحـــد اطاف به وعن بي المطيع قال رأيت على أبي حنيفة يوم الجمعة بـــرداً وقميصاً قومتهما بأربعمائة درهم وكان يلبس الصوف أحيانا كما

قال أبو الهند الوراق رأيت ابا حنيفة وعليه ثياب من صـــوف وقال بكير بن معروف ما رأيت رجلاً أحسن سيرة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من أبي حنيفة رح ذكر الذهبي بسنده إلى مجاهد قـــال كنت عند هارون الرشيد إذ دخل عليه أبو يوسف رح فقال له هارون صف لي أخلاق أبي حنيفة رح قال كان والله شـــديد الـــذب عـــن

حرمات الله مجانباً لأهل الدنيا طويل الصمت دائم الفكر لم يكن مهذاراً ولا شرثاراً ان سئل عن مسألة كان عنده بها علم أجاب فيها وما علمته يا أمير المؤمنين إلا صائناً لنفسه ودينه لا يذكر أحداً إلا بخير فقال الرشيد هذه أخلاق الصالحين وحكى الموفق عن النضر بن محمد ما رأيت أشد ورعاً منه ما كان يحسن الهزل ولا يتكلم به ولا رأيته مستجمعاً ضحكاً ولكنه كان يتبسم وحكى السيوطي عن جعفر بن الربيع قال اقمت عنده خمس سنين فما رأيت أطول صمتاً منه فإذ سئل عن الفقه نفح وسال كالوادي وسمعت له دوياً وجهارة بالكلام وأراد التجرد والانقطاع عن الناس فمنع عن ذلك في المنام من حضرت الرسالة وأمر بتبليغ الشرائع .

الفائدة الثانية والثلاثون
في نشأته العلمية وتقلبه في العلوم

كان أبو حنيفة وحيد ابويه وكان ابوه بزازاً يبيع الأثواب في دكان له بالكوفة ولقد خلف أبوحنيفة اباه بعد ذلك فيه وحفظ القران الكريم على قراءة عاصم الكوفي رح حين كان عمره ثماني سنين ثم تعلم النحو والأدب العربي والبلاغة في سنتين ثم تعلم علم الكلام والعقائد في خمس سنين ثم كان يناظر الفرق الباطلة ويكلم فيه اربع سنين ثم تعلم علم الحديث خمس سنين ،

ثم تعلم علم الفقه وعلم الشرائع في ثماني عشرة سنة إلى أن تم عمره اربعين سنة روى عن أبي يوسف انه سئل كيف وفقت إلى الفقه فقال أخبرك اما التوفيق فكان من الله تعالى وله الحمد كما هو أهله ومستحقه اني لما اردت تعلم العلم (أي الفقه) جعلت العلوم أي العلوم العصرية من النحو والصرف والأدب والكلام) كلها نصب عيني فقرأت فناً فناً منها وتفكرت عاقبته وموضع نفعه فقلت آخذ في الكلام ثم نظرت فاذا عاقبته سوء ونفعه قليل ،

واذا كمل الانسان فيه لايستطيع ان يتكلم جهاراً ورمى بكل سوء ويقال صاحب هوى

ثم تتبعت أمر الأدب والنحو فاذا عاقبة أمره اجلس مع صبي أعلمه النحو والأدب ثم تتبعت أمر الشعر فوجدت عاقبة أمره المدح والهجاء وقولي الكذب وتمزيق الدين ،

ثم تفكرت في أمر القرآت فقلت إذا بلغت الغاية منه اجتمع إلى أحداث يقرؤون على والكلام في القرآن ومعانيه صعب فقلت اطلب الحديث فقلت إذا جمعت منه الكثير احتاج إلى عمر طويل حتى يحتاج الناس الي واذا احتاج إلى لا يحتاج إلا الأحداث ولعلهم يرمونني بالكذب وسوء الحفظ فيلزمني ذلك إلى يوم الدين ،

ثم قبلت الفقه فكلما قلبته ادرته لم يزدد الاجلالة و لم اجد فيه عيباً ورأيت الجلوس مع العلماء والفقهاء والمشايخ والبصراء والتخلق باخلاقهم ورأيت انه لا يستقيم اداء الفرائض واقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته وطلب الدنيا والأخرة إلا به وبهذا يتبين أنه أراد العلوم التي كانت شائعة في عصره وتثقف بكل العلوم وتخصص فيها وروى عن يحيى بن شيبان ان ابا حنيفة رح قال كنت رجلاً اعطيت جدلاً في الكلام فمضى دهر اتردد فيه وبه أخاصم وعنه اناضل وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرهم بالبصرة فدخلت البصرة نيفا وعشرين مرة منها أقيم سنة واقل وأكثر وكنت نازعت طبقات الخوارج من

٢٥

الاباضية والصفرية غيرهم وكنت اعد الكلام أفضل العلوم وكنت أقول هذا الكلام في أصل الدين فراجعت نفسي بعد ما مضى لي فيه عمر وتدبرت فقلت أن المتقدمين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يكن يفوتهم شئ مما ندركه نحن وكانوا عليه أقدر واعرف وأعلم بحقائق الأمور ،

ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجالين و لم يخضوا فيه بل أمسكوا عن ذلك ونهوا عنه اشد النهي ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيه عليه تجالسوا واليه حضروا كانو يعلمون الناس ويدعونهم إلى التعلم ويرغبونهم فيه ويفتون ويستفتون

وعلى ذلك مضى الصدر الأول من السابقين وتبعهم التابعون عليه فلما ظهر لنا من أمورهم هذا الذي وصفنا تركنا المنازعة والمجادلة والخوض في الكلام واكفينا بمعرفته ورجعنا إلى ما كان عليه السلف وأخذنا فيما كانوا عليه وشرعنا فيما شرعوا وجالسنا اهل المعرفة بذلك واني رأيت أن من ينتحل الكلام ويجادل فيه قوم ليس سيماهم سيما المتقدمين ولا منهاجهم منهاج الصالحين ورأيتهم قاسية قلوبهم غليظة افئدتهم لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح و لم

يكن له ورع ولا تقي فعلمت أن لو كان في ذلك خير لتعاطاه السلف الصالح و لم ينعاطه الانزال فهجرته ولله الحمد .

وبهذه الرواية تظهر أنه تفنن في علم الكلام اولاً ثم عدل عنه إلى الفقه وكذا روي عن زفر بن الهزيل يقول سمعت ابا حنيفة يقول كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يشار إلى فيه بالأصابع

وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن سليمان فجاءتني امرأة يوماً فقالت رجل له امرأة امة أراد ان يطلقها للسنة كم يطلقها فامرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع فتخبرني فسألت حماداً فقال يطلقها وهي طاهرة من الحيض والجماع تطليقة ثم يتركها حتى تحيض حيضتين فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج فرجعت فقلت لا حاجة في الكلام واخذت نعلى فجلست إلى حماد فكنت اسمع مسائلة فاحفظ قوله ثم يعيدها من الغد فاحفظ ويخطئ أصحابه فقال لا يجلس صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة رح ،

هذه الروايات الثلاث ذكرت في تاريخ بغداد بطرق مختلفة وفي المناقب للموفق المكي ولابن البزازي وفي الخيرات الحسان وغيرها وتبين من هذه الروايات أنه تثقف بكل الثقافة الاسلامية التي كانت في عصره وقد عرف قدراً من الحديث وقدراً من النحو والأدب والشعر

وجادل الفرق الباطلة في مسائل العقائد وما يتصل به وكان برحل لهذه المناقشة إلى البصرة وكان يمكث بها احيانا سنة لذلك الجدل ثم مال إلى الفقه فاستغرق مجهوده الفكري ،

وروي عن أبي حنيفة أنه قال مررت يوماً على الشعبي وهو جالس فدعاني فقال لي إلى من تختلف ؟ فقلت : اختلف إلى السوق فقال لم أعن الاختلاف إلى السوق عنيت الاختلاف إلى العلماء فقلت انا قليل الاختلاف إليهم فقال لا تفعل وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء فاني ارى فيك يقظة وحركة قال فوقع في قلبي من قوله فتركت الاختلاف إلى السوق واخذت في العلم فنفعني الله بقوله كما في مناقب إلى حنيفة للمكي .

وذكر الإمام الكردري في المناقب بسنده عن أبي يوسف رح قال سمعت اباحنيفة يقول حججت مع أبي سنة ست وتسعين ولي ست عشر سنة فاذا بشيخ قد اجتمع عليه الناس فقلت لابي من هذا الشيخ قال هذا رجل قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدي فقلت لابي أي شئ عنده قال أحاديث سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم قلت قدمني إليه فتقدم بين يدي فجعل يفرج عني الناس حتى دنوت منه فسمعت منه قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم من تفقه في دين الله كفاه همه ورزقه من حيث لا يحتسب . قال الحافظ الجعابي ومات عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي سنة سبع وتسعين ولكن قال بعض المحققين أن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه كان في مصر وتوفي ٨٥ هـ أو في سنة ٨٧هـ ،

فكيف يمكن اللقاء معه سنة ٩٧ فلا غرو ان يكون غيره لأن الحافظ ابن حجر ذكر ثماني عشر أو تسع عشر أشخاصًا باسم عبد الله بن الحارث من الصحابة وأيضاً ذكر في جامع بيان العلم أنه قال حججت مع أبي سنة ثلاث وتسعين ولي ست عشر سنة فيقال ان هذا غلط وعلى هذا جرى النقل لعل أصل العبارة حججت مع أبي سنة ست وثمانين ولي ست سنين يؤيده ما قال بعده قدمني إليه حتى تقدم بين يدي فجعل يفرج عني الناس حتى دنوت منه فسمعته يقول لأن من كان عمره ست عشر سنة لا يحتاج إلى غيره بل يباشر بنفسه وكانت عادة المحدثين انهم يحملون أولادهم على كواهلهم إلى المحدثين ليسمعوا أحاديثهم ويشتركون في دعواتهم ،

فلذا يمكن أن تكون هذه الواقعة أيضاً في الصغر حين كان عمره ست سنين وهذا كما أن المشهور المتداول أن فاتح السند هي

محمد بن قاسم حين خرج على أهل السند كان عمره سبعة عشر سنة والحال أن هذا غلط لأن هذا العمر كان له حين كان والياً على فارس سنة ٨٣ واذا كان والياً لسند فحينئذ كان عمره ٢٦/٢٧ عاماً لأن بعد عشر سنوات من ذلك خرج على أهل اسند سنة ٩٢ هـ ولكن توارد النقل بان محمد بن قاسم حين خرج على السند كان عمره ١٧ سنة وهذا غلط فكذلك توارد النقل بالغلط لعل الصواب بأنه كان عمر أبي حنيفة حين حج مع أبيه والتقى مع عبد الله بن الحارث ست سنين وهذا ليس ببعيد والله أعلم .

وعاش الإمام في الكوفة وهي مولده إحدى مدن العراق العظيمة بل ثاني مصرية العظيمين في ذلك الوقت وفي العراق الملل والنحل والاهواء وقد كان وطناً لمدينات قديمة وانشأت لهم فيه مدارس قبل الإسلام وكانوا يدرسون فيها فلسفة اليوناني وحكمة الفرس وكان في العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجاول في العقائد وبعد الإسلام كان مزيجاً من اجناس مختلفة وكان فيه اضطراب وفتن وفيه أراء تتضارب في السياسية وأصول العقائد وفيه الشيعية وفي باديته الخوارج وفيه المعتزلة وفيه تابعون مجتهدون حملوا علوم من لقوا من الصحابة جماعة

كثيرة فكان فيه علم الدين سائغاً وموروداً وفيه النحل المتنازعة والآراء المتضاربة ،

فنشأ الإمام في ذلك العصر فرأى هذه الأجناس وانكشف لـــه الآراء وكانت تبدو عليه مخايل الذكاء وقوة الفكر إلى درجة وجهت إليـــه أنظار من كان يراه فقضى أول حياته في علم الكلام وتخصـــص فيـــه وجادل الفرق المختلفة في مسائل الاعتقاد والجدل في أصول العقـــائد كان قد استهواه في صدر حياته حتى بلغ فيه شاءوا عظيماً ،

وصارت له طريقة في فهم أصول الدين يروي أنه جادل نحـــو اثنين وعشرين من الفرق الباطلة من الشيعة التي هـــي أقـــدم الفـــرق الإسلامية قد ظهرت تلك في آخر عصر عثمان رض ومن السبائية التي نشأت من عبد الله بن سبا وكان يهودياً من أهل الحيرة أظهر الإســلام وأمه امة سوداء فلذا يقال له ابن السوداء ،

وقد كان من أشد الدعاة ضد عثمان ومن الكيسانية التي هـــم اتباع المختار بن عبيد الثقفي كان خارجياً ثم صار شـــيعياً والزيديـــة وهذه الفرقة أقرب فرق الشيعية إلى الإسلام وامامها زيد بن علي بـــن الحسين رض ومن الامامية والاثناعشرية والإسماعيلية ومن الخـــوارج

والازارقة التي هي اتباع نافع بن الارزق والنجدات وهم أتباع نجدة بن عويمر ، والصفرية هم اتباع زياد بن الأصفر ،

والعجاردة هم أصحاب عبد الكريم بن عجرد ،

والاباضية هم عبد الله بن أباض ،

واليزيدية هم أتباع يزيد بن أبي أنيسة ،

والميمونية هم اتباع ميمون العجردي ، ومن المرجية والجبرية ومن المعتزلة التي نشأت في العصر الاموي ومن الزنادقة والدهرية والقدرية والنصارى وغيرها قال أبو عبد الله الصيمري كان الإمام أول متكلم في هذه الأمة في زمانه وفقيههم في الحلال والحرام ،

وقال في التبصرة البغدادية ان أول متكلمي أهل السنة من الفقهاء أبو حنيفة الف فيه الفقه الاكبر والرسالة في نصرة أهل السنة وقد ناظر فرق الخوارج والشيعة والقدرية والدهرية وكان دعاتهم بالبصرة فسافر إليها نيفاً وعشرين مرة وقصمهم بالأدلة الباهرة وبلغ في الكلام إلى ان كان المشار إليه بين الأنام واقتضى به تلامذته الإعلام ، وأيضاً صنف الفقه الابسط ,كتاب العالم والمتعلم

وكتاب الرد على القدرية ، والرسالة إلى عثمان في الارجاء ، والرسالة إلى مقاتل بن سليمان وغير ذلك وكل ذلك كان من طريق

الاملاء . قال العلامة البياضي في اشارات المرام املاها على اصحابه من الفقه الأكبر والرسالة والفقه الأبسط وكتاب العالم والمتعلم والوصية .

بالجملة أن الإمام أبو حنيفة اشتغل زماناً بالكلام وهذا في صدر من حياته ولعله كان عمره حينئذ اربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة على القول أنه ولد ثمانين لأن الإمام الشعبي اشار إلى اختلاف الفقهاء ومجالسة العلماء سنة ٩٤ هـ حيث قال لا تفعل وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء فاني ارى فيك يقظة وحركة قال فوقع في قلبي من قوله فتركت الاختلاف إلى السوق واخذت في العلم فنفعني الله بقوله . ولا تنس من أن الإمام الشعبي أشار إلى طلب الحديث لا إلى الفقه لأنه كان محدثاً كبيراً في الكوفة قال الزهري العلماء أربعة :

(١) سعيد بن المسيب في المدينة (٢) والشعبي في الكوفة (٣) والحسن البصري في البصرة (٤) والمكحول في الشام . وقال عبد الرحمن بن المهدي الذي يقال في حقه ما كان في العراق اعلم بالسنة منه إذا وقعت الفتوى انقبض الشعبي وقال الإمام الشعبي بنفسه انا لسنا بالفقهاء ولكنا سمعنا الحديث فروينا للفقهاء وقال عبد الله بن المبارك ما

رأيت أحداً اعلم بحديث الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي ذكر الذهبي هذه الأقوال في تذكرة الحفاظ فعلم منه أن الشعبي اشار الإمام إلى طلب الحديث فوقع في قلبه أن يطلب الحديث ،

ولكن كان يشتغل بالمناظرة والجدال حتى حج مع أبيه وسمع حديثاً في الحرم المكي الشريف من الصحابي الجليل من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب فلما بلغ عمره إلى عشرين سنة اشتغل بطلب الحديث قال الخطيب البغدادي في الكفاية أن أهل الكوفة لم يكن واحد يسمع الحديث إلا بعد استكماله عشرين سنة

قال السمعاني اشتغل بطلب العلم وبالغ فيه حتى حصل له ما لم يحصل لغيره وكان توجه إلى طلب الحديث من سنة ٠٩٦ هـ وانتهك في طلبه من تسعة وتسعين إلى اثنين ومائة سنة ١٠٢ ثم توجه إلى الفقه وجلس في مجلس الإمام حماد وأخذ الفقه عنه ثماني عشرة سنة حتى توفى الإمام حماد سنة ١٢٠ ثم جلس بمجلسه للتدريس ودون الفقه ورتبه أبوابا في ثلاثين عاماً حتى توفى سنة ١٥٠ رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

الفائدة الثالثة والثلاثون

في فضله وثناء الناس عليه

اعلم أن فضائل الأئمة اكثر من ان يحصيها الدفاتر ، فضلاً عن هذه الأوراق ، سيما الإمام الأعظم ، فقد الف المشايخ في جميع نواحي حياته أبواباً طويلة واجزاء مستقلة ، عقد الفقيه المحدث محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي الشافعي تلميذ السيوطي في كتابه عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان فضلا خاصاً يذكر فيه فضل الله العظيم على الإمام الأعظم أبي حنيفة انقله مختصراً ، قال : في الفصل التاسع في بعض خصائصه التي اختص بها عن غيره من الأئمة وهي أحد عشر نوعاً ،.

الأول : انه ولد في زمن جماعة من الصحابة لا خلاف في ذلك ، فهو في أهل القرن الذي شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيرية ووصفهم بالعدالة ، روى الشيخان والترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود رض ، ومسلم عن أبي هريرة ، والشيخان وأبو داؤد والترمذي والنسائي عن عمران بن حصين ، والطبراني وغيره عن أبي برزة وغيرهم :"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ،

والثاني : انه رأى بعض الصحابة وسمع منهم ، روى الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل في سباعيته عن انس، والخطيب عن علي ، وعبد بن حميد وابن أبي في السنة بسند صحيح عن أبي سعيد، وابو يعلى وابن عاصم والطبراني والضياء في صحيحه عن عبد الله بن بسر وغيرهم ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال طوبى لمن رأني ولمن رأى من رآني ولمن رأى من رأى من رآني .

الثالث : انه اجتهد في زمن التابعين ، قال الإمام أبو محمد الحارثي بسنده عن يحي بن معين قال سمعت ابن معمر يقول وخرج الأعمش إلى الحج فشيعه أهل الكوفة فلما أتى القادسية رأوه مغموماً فسألوه عن ذلك ، فقال لي ارجع إلى الكوفة واسئل أبا حنيفة رح أن يكتب لي المناسك ، فرجعت فسألته فاملى عليّ ثم أتيت بها الاعمش ،

وروى أيضا ان الأعمش قال أن أبا حنيفة لحسن المعرفة بمواقع الفقه الدقيقة وغوامض العلم الخفية .

الرابع :رواية الأئمة الكبار عنه ، قال أبو محمد الحارثي : يستدل على فضل الإمام أبي حنيفة برواية الكبار عنه ، كعمرو بن دينار وجماعة ذكرهم في الباب الخامس .

الخامس : انه اخذ عن أربعة آلاف من التابعين وغيرهم ، روى الخطيب بسنده قال دخل أبو حنيفة على أبي جعفر المنصور عنده عيسى بن موسى، فقال يا أمير المؤمنين هذا علم أهل الدنيا اليوم ، فقال المنصور يا نعمان عمن أخذت العلم ؟ فقال عن أصحاب عمر رض عنه ، وعن أصحاب علي رض عنه ، وعن أصحاب عبد الله بن مسعود رض عنه، وعن عبد الله بن عباس رض عنه، وما في وقت عبد الله بن عباس على وجه الأرض اعلم منه فقال له المنصور بخ بخ لقد استوثقت لنفسك ما شئت ،.

السادس : انه اتفق له من الأصحاب ما لم يتفق لأحد غيره من الأئمة ، مثل الإمام أبي يوسف، والامام محمد بن الحسن، والحسن بن زياد ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الله بن المبارك ، وداؤد بن نصر الطائي، وحفص بن غياث ، ومحمد بن زكريا بن أبي زائدة ، وحماد بن أبي حنيفة ، وخالد بن السمتي ، وعافية بن زيد العوفى، والقاسم بن معن ، وعلي بن مسهر ، وغيرهم ، .

روى الخطيب عن أبن كرامة قال : كنت عند وكيع بن الجراح يوماً فقال رجل : اخطأ أبو حنيفة ، فقال وكيع: وكيف يقدر أن يخطئ ومعه مثل أبي يوسف وزفر ومحمد في قياسهم واجتهادهم ، ومثل

عيسى بن زكريا ابن أبي زائدة وحفص بن غياث وحبان ومندل ابنا علي في حفظهم الحديث ومعرفتهم ، ومثل القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود في معرفته باللغة العربية ، وداؤد بن نصر الطائي والفضيل بن عياض في زهدهما وورعهما ، فمن كان أصحابه هؤلاء وجلسائه لم يكن يخطئ، لأنه لو أخطأ ردوه إلى الحق، ثم قال وكيع : والذي يقول مثل هذا فهو كالأنعام بل أضل سبيلا ، .

السابع : انه أول من دون علم الفقه ورتبه أبوابا، ثم تابعه مالك بن أنس في ترتيب الموطأ لم يسبق أبا حنيفة أحد لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم فلما رأى أبو حنيفة العلم منتشراً خاف عليه، فجعله أبواباً مبوبة وكتباً مرتبة ، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بالصوم ثم ختم سائر العبادات ثم المعاملات ثم ختم بالمواريث لأنها آخر أحوال الناس ، و أول من وضع كتاب الفرائض وأول من وضع كتاب الشروط ،

روى القاضي أبو عبد الله الصيمري عن أبي سليمان الجوزجاني قال لى احمد بن عبد الله قاضي البصرة : نحن أبصر بالشروط من أهل الكوفة ، فقلت له : أن الإنصاف بالعلماء احسن، إنما وضع هذا أبو حنيفة وانتم زدتم ونقصتم وحسنتم الألفاظ ، ولكن هاتوا شروطكم

وشرط أهل الكوفة قبل أبي حنيفة فسكت ، ثم قال التسليم للحق اولى من المجادلة في الباطل،

الثامن : انتشار مذ ذهبه في أقاليم ليس فيها غيره ، كـالهند والسند والروم وبلاد ما وراء النهر وغالب بلاد العجم وغير ذلك ،

التاسع : أنه كان يأكل وينفق على هذا العلم من كسبه و لم يقبل الجوائز ،

العاشر : انه مات مظلوماً ومحبوساً وساجداً .

الحادي عشر : ما اشتهر وتواتر من كثرة عبادته وزهده وكثرة حجه واعتماره .

روى الموفق المكي بسنده إلى حفص بن عبد الرحمن قال : كان أبو حنيفة رح يحفظ القرآن فيختمه في الشهر ثلاثين مرة ، وروى بسنده أيضا انه قال :

كنت شريك أبي حنيفة ثلاثين سنة، فكان يختم القرآن في ثلاثة ايام ولياليها ، وكان يتصدق كل يوم بصدقة ، قال محمد بن الحسن: صلى أبو حنيفة ثلاثين سنة صلاة الفجر بوضوء العتمة، وقال يحي بن آدم حج أبو حنيفة خمساً وخمسين حجة ، قال مسعر بن كدام ، رأيته يصلي الغداة ثم يجلس إلى العصر (هذا في أيام الشتاء) ثم إلى

قريب المغرب ثم إلى العشاء ثم ينام نومة خفية في أول الليل زمن الشتاء ثم يقوم إلى السحر ، وأما في الصيف ينام نومة قبل الظهر أو بعد الظهر قليلاً ،

وكان كثير الخوف شديد الورع ، يقوم الليل كله بكاءً ودعاءً ، لا يتوسد بفراشه أربعين سنة ، ويصوم ثلاثين سنة ، كما قال ذلك حسن بن عمارة ، وروى الموفق بسنده إليه انه قال : ما ملكت أكثر من أربعة آلاف درهم منذ أكثر من اربعين سنة إلا أخرجتها ، وانما املكها بقول علي رض أربعة آلاف درهم وما دونها نفقة ، ولو لا اني اخاف ان التجي إلى هؤلاء ما تركت منها درهماً واحداً ،

وقال الشيخ منصور بن شيبة : انه رضي الله عنه مات ابوه ثابت وخلف له مائتي الف درهم ماعدا الاملاك ، فانفقها في طلب العلم وطلبته حتى صير قوته في الشهر درهمين ، قال سهل بن مزاحم : كنا ندخل على أبي حنيفة فلا نرى في بيته شيئاً إلا البوارى ،

قال يزيد بن هارون : كتبت عن الف شيخ حملت عنهم العلم ، فما رأيت والله اشد ورعاً من أبي حنيفة ولا احفظ لسانه ، وقال سفيان بن عينينة لم يكن في زمان أبي حنيفة افضل منه ولا أورع ولا أفقه منه ، وقال حفص بن عبد الرحمن : جالست أنواع الناس من

العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع ، فلم ار احداً فيهم اجمع هذه الخصال من أبي حنيفة ،

وقال مسعر بن كدام : كان أبو حنيفة إذا اشترى لعياله شيئاً أو جاءت له الباكورة من الفواكه، اشترى لشيوخ المحدثين أجود مما لعياله ولنفسه ، وانفق عليهم أكثر مما انفق على عياله ، وكان يسامح في المبابعة والتجارة ،

وذكر الحافظ السلامي بسنده ، أن أبا حنيفة رح كان يبضع الامتعة ويجمع الارباح من سنته ، ويشترى بها حوائج المحدثين ، ثم يدفع باقي الدراهم إليهم وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : لما حزق أبي حماد قراءة الفاتحة ، اعطى أبو حنيفة المعلم خمس مائة درهم ، وكان يأمر حماداً أن يشتري له كل يوم بعشرة دراهم خبزاً ويتصدق على جيرانه الفقراء ، وكل من يختلف إلى الباب ،

وقال أبو يوسف ، ما رأيت أجود من أبي حنيفة : وكان يعولني وعيالي عشر سنين وكان أجرى على أصحابه وظيفة كل شهر ومع ذلك كان يواسيهم في عامة الأيام، وما قبل هدية من أمير قط، ولا اكل طعامه ولا اخذ من مال الدولة شيئاً ، وكان اعف الناس في تجاربه ، بل رفض الدنيا حين اقبلت عليه في صورة رياسة القضاء

والقرب من أمير المؤمنين ، وكان كثير البر بوالديه ويدعو لهما ويستغفر لهما مع شيخه حماد ، وكان يتصدق كل شهر بعشرين ديناراً عن والديه ، وقال الحسن سمعت الإمام يقول : ما من شئ اشد على من غم أمي حين ضربت، فقالت لي يا نعمان : ان علماء أوردك مثل هذا لحرى ان تفر منه ، فقلت قد تعلمت العلم لله لا للدنيا .

روى الموفق بسنده إلى عبد الله بن احمد بن حنبل ذكر أبو حنيفة عند احمد بن حنبل فقال: رحمه الله كان ورعاً ضرب على القضاء أحد وعشرون سوطاً . فأبى، ى قال الحافظ عبد العزيز بن أبي رواد : من أحب أبا حنيفة فهو سني ، ومن أبغضه فهو مبغوض، وفي رواية بيننا وبين الناس أبو حنيفة فمن احبه وتولاه علمنا انه من أهل السنة ، ومن ابغضه علمنا انه من أهل البدع .

وقال إبراهيم بن معاوية الضرير ، من تمام السنة حب أبي حنيفة ، وقال أبو القاسم القشيري في رسالته بسنده إلى السري السقطي: انه اخذ الطريقة من معروف الكرخي، وهو أخذها عن داود الطائي، وهو اخذ العلم والطريقة عن أبي حنيفة ،

وذكر الحافظ النجم الغيطي ان الإمام قال : رأيت رب العزة في المنام تسعاً وتسعين مرة فقلت في نفسي: ان رايته تمام المائة لمسئلته

بم ينجو الخلائق من عذابه يوم القيامة قال ، فرأيته سبحانه وتعالى فقلت : يا رب عز جارك وجل ثنائك وتقدست أسمائك ، بم ينجو عبادك يوم القيامة من عذابك ؟

فقال سبحانه وتعالى :من قال بعد الغداة والعشي " سبحان الأبدي الأبد ، سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان رفع السماء بغير عمد ، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد ، سبحان من خلق الخلق فأحضهم عدد ، سبحان الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفواً أحد ، نجا من عذابي " .

وروى انه صلى ركعتين في جوف الكعبة في حجته الأخيرة ، ركعة على رجله اليمنى وركعة على رجله اليسرى ، وختم القرآن ، فلما سلم بكى وناجى ربه وقال الهي ما عبدك هذا العبد الضعيف حق عبادتك ، لكن عرفك حق معرفتك ، فهب نقصان خدمته لكمال معرفته ، فهتف هاتف من جانب البيت ، يا أبا حنيفة قد عرفتنا حق المعرفة، وخدمتنا فاحسنت الخدمة، قد غفرنا لك ولمن تبعك ممن كان على مذهبك إلى يوم القيامة، وقد وردت أحاديث صحيحة تشير إلى بشارته ، منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود رض: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو كان الإيمان عند

الثريا لتناوله رجال من ابناء فارس ، رواه أبو نعيم عن أبي هريرة والشيرازي والطبراني عن قيس بن سعد بن عبادة بلفظ: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس، ولفظ الطبراني عن قيس لا تناوله العرب لنا له رجال من أبناء فارس ،

وفي رواية مسلم عن أبي هريرة رض لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله، وفي رواية للشيخين عن أبي هريرة والذي نفسي بيده لوكان الدين معلقاً عند الثريا لتناوله رجل من فارس .

الفائدة الرابعة والثلاثون :

في تابعية الإمام رضي الله عنه

أشرنا فيما سبق أن الإمام رضي الله عنه ولد في ثمانين على قول الأكثرين ، وقال محقق العصر العلامة الزاهد الكوثري الراجح أنه ولد في سبعين ، وقال السمعاني وابن حبان وأبو القاسم السمناني والحافظ محمد بن إبراهيم الوزير الراجح أنه ولد في إحدى وستين سنة ، وعلى هذا الاختلاف اختلف العلماء في لقاء الإمام مع الصحابة رض ، حتى قال بعض المتأخرين لم يلق أبو حنيفة احداً من الصحابة غير أنه رأى أنساً ولكن ما سمع منه شيئاً وتبعه غيره ،

فيا للعجب كيف أنكروا هذا واجتروا عليه لأن المحقق عند المحدثين أن تحمل الحديث للصبي الذي يعقل صحيح ، لا يشترط له البلوغ لاتفاق الصحابة وغيرهم على قبول رواية ابن عباس وابن الزبير والنعمان بن بشير وأنس ومحمود بن الربيع وغيرهم ، ونقل ابن عبد البر الاتفاق عليه ، فما قال يحي بن معين أن أقل سن التحمل خمس عشرة سنة فليس بصحيح رده الجمهور،

وقال ابن حجر هذا هو المعتمد ، ولأن السلف كانت عادتهم أن يتحملوا الأحاديث في الصبا، ألا ترى ما قال الإمام البخاري

الهمت الحفظ الحديث وأنا في الكتاب ، وكان عمره إذ ذلك عشرة سنين أو أقل، وحفظ كتب ابن المبارك و وكيع حين كان عمره ست عشرة سنة ، ولان العادة جرت للسلف أنهم يتحملون أولادهم إلى المحدثين يتبركوا من دعواتهم وسماع حديثهم ، ألا ترى أن والد الإمام ذهب به أبوه إلى علي رض وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته ، ولأن المعاصرة كافية لاتصال الرواية عند الإمام مسلم والجمهور،

وقال مسلم أن اشتراط اللقاء قول مخترع لم سبق قائله إليه ولو كان اشترط ذلك الإمام البخاري وغيره ،

ولكن الجمهور مع الإمام مسلم ، ولأن فضل القرن للصحبة والتابعية ليس لمن لقيهم فقط، بل الفضل ثابت لمن كان في عهدهم وقرنهم ، ولأن جمهور المحدثين ذهبوا إلى أن الرجل لمجرد اللقى والرؤية للصحابي يصير تابعياً ، ولا يشترط له السماع والصحبة ، كما قال الحافظ ابن حجر هذا هو المعتمد ،

كما أن شرف الصحابية ليس له شرط السماع والرواية، بل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه النبي صلى الله عليه وسلم على الأيمان ولو لحظة وهو صحابي بلا ريب ، ولأن الشرف والفضيلة قد ثبت بالأسانيد الضعاف والمنقطعات والمراسيل أيضاً ، نعم لابد

لاثبات حكم من الأحكام الشرعية من دليل صحيح وسند ثابت ، مع هذا أن الإمام أبو حنيفة رح كان يثبت تارة مسألة شرعية بالحديث الضعيف أيضاً إذا لم يجد قوياً أو صحيحاً فيه من غير أخذه بالقياس ، كما في نقض الوضوء بالقهقهة وفساد الصلاة بالضحك ،

ولأن الكوفة الذي عاش فيه الإمام أبو حنيفة هو أكبر مدن العراق ورئيس المراكز للعلوم الدينية والعصرية ، ولما فتح العراق في عهد خلافة عمر رض جعل مدينة مدائن دار الخلافة واستوخم الصحابة تلك المدينة، فشكوا إلى عمر رض منها ،

فأمر سعد بن أبي وقاص الليثي وسلمان الفارسي وحذيفة اليمان رضي الله عنهم أجمعين ، وكان سعد أميرهم ان يؤسوا مدينة على شاطي نهر فرات ودجلة سنـ١٧ هـ ، فقدم من مدائن أربعون ألفا في هذه المدينة الجديدة التي سمت بالكوفة ، ثم أمر عمر بالبناء فبنيت دار الخلافة في وسطه على الميمنة الشرقية قبائل اليمني ، وعلى الجانب المغربي القبائل الفزاري من الحجاز، وعلى جنب دار الامارة بني عمرو بن حريث رض مكاناً وسيعاً فيه كان دكان أبي حنيفة للتجارة ،

فبالجملة أن الصحابة الكثيرين نزلوا على الكوفة مع سعد بن وقاص رض من مدائن، قال الطبري في تاريخه أن العرب توجهوا إلى الكوفة ونزلوا فيه ، وقال أنس بن حجية عند عمر رض حين سأله عن أحوال الكوفة ، انثالت عليهم الدنيا فهم يسيلون الذهب والفضة ولكن كم جاء من الصحابة فلم يصرح جملة ، وقال ابن كثير أن الصحابة استوخموا المدائن ، " فهذا يشير إلى أن الجم الغفير من الصحابة الذين كانوا في المدائن نزلوا على الكوفة، وقال الحافظ أبو بشر الدولبي عن قتادة أن عددهم كانوا الفاً وخمسين ، وأن خمسون من الصحابة البدريين، وقال أبو الحسن أحمد بن عبد الله في تاريخ نزل الكوفة من الصحابة ألف وخمس مائة ، فصارت الكوفة مركز العلوم الصحابة ، وعليهم تخرج كبار التابعين، وفي عهدهم عاش الإمام أبو حنيفة تعلم العلوم ، .

فعلى ضوء هذه النقاط المذكورة كيف يمكن إنكار فضل الإمام وشرفه، وكيف ينكر تابعيته ، فالامام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه ولد في عهد جماعة من الصحابة رض لا خلاف فيه، فهو من أهل القرن الذي شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، وأنه تابعي قطعاً رأى

جماعة من الصحابة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "طوبى لمن رأى من رآني ولمن رأى من رآني " وداخل تحت قوله تعالى " والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم رضوا عنه ، " فهو تابعي بلا ريب ، واختلف في روايته عن الصحابة ،

قال علي القاري والعتمد ثبوتها، وقد صرح بروايته لأنس رضي الله عنه وكونه تابعياً جمع عظيم من المحدثين ، قال ابن حجر المكي الشافعي أنه رأى أنس بن مالك رض وهو صغير وفي رواية رأيته مراراً وكان يخضب بالحمرة ، وفي فتاوى شيخ الإسلام ابن حجر أنه أدرك جماعة من الصحابة كانوا بالكوفة فهو من طبقة التابعين ، ولم يثبت ذلك لأحد من أئمة الأمصار المعاصرين له، كالأوزاعي بالشام والحماد بالبصرة والثوري بالكوفة ومالك بالمدينة والليث بن سعد بمصر ،

قال الحافظ ابن كثير توفي أنس بن مالك رض بالبصرة ٩٣هـ وهو المشهور وعليه الجمهور، وحينئذ كان عمر أبي حنيفة ثلاث عشر سنة ، وذكر السيوطي حديثاً بسنده عن أبي حنيفة عن أنس بن مالك رض سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " طلب العلم فريضة على كل مسلم ، قال السيوطي هذا حديث صحيح،

وروى بطرق كثيرة أن الإمام حج مع أبيه ، وسمع عبد الله بن الحارث بن جزء الصحابي حديثاً كما مر سابقاً ، .

وقال الخطيب سمع الإمام أبو حنيفة من أنس بن مالك وعبد الله بن الحارث وعبد الله بن أبي أوفى،

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ان عبد الله ابن أبي أوفى قدم الكوفة سنة٨٧ هـ وتوفي سنة ٨٩ هـ . كما قال البخاري ، وحينئذ كان عمر الإمام تسع سنين،

وقال الحافظ أبو معشر عبد الكريم في رسالة بسنده عن أبي حنيفة يقول: سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة ، وأيضاً سمع الإمام من عائشة بنت عجرد رض ، ذكر يحيى بن معين في تاريخه بسنده ان أباحنيفة صاحب الرأي سمع عائشة بنت عجرد تقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، " أكثر جند الله في الارض الجراد لا آكله ولا أحرمه روى عن جابر أيضا ،

قال الشيخ شرف الدين أبو القاسم اليمني في قلائد عقود العقيان بسنده عن أبي يوسف اخبرنا أبو حنيفة قال عن جابر قال:

جاء رجل من الانصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ؟ يا رسول الله ما رزقت ولداً قط ولا ولد لي قال فأين أنت من كثرة الاستغفار وكثرة الصدقة ترزق بها الولد ، فكان الرجل يكثر الصدقة ويكثر الاستغفار فولد له سبعة ذكور ، .

وسمع عن واثلة بن الاسقع الاشجعي المتوفى سنة ٨٥هـ أيضاً ، قال الشيخ أبو القاسم اليمني بسنده عن أبي حنيفة قال سمعت واثلة بن الأسقع الأشجعي رض يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك ،

وسمع عن عبد الله بن أنيس المتوفى أيضاً ، فانه قدم الكوفة سنة أربع وتسعين ، فقال الإمام رأيته وسمعت منه وأنا ابن أربع عشرة سنة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حبك الشي يعمى ويصم : ذكره اليمني بسنده عنه ،

وأيضا روى عنه انه سمع عن أبي الطفيل عامر بن واثلة المتوفى سنة ١٠٢هـ بمكة وقال الذهبي سنة ١١٠هـ ، وقيل سنة١٢٧هـ ، ومن سهل بن سعد المتوفى سن ٨٧هـ وقيل بعده بالمدينة ، ومن السائب بن خلاد المتوفى سنة ٩١هـ ، ومن عبد الله بن بسرة المتوفي ٩٢هـ ومن محمود بن الربيع المتوفى سنة ٩٦هـ ومن معقل بن يسار

رض، وجمع الشيخ أبو بكر بن علي بن محمد الحداد العيـــني أسمـــاء الصحابة السبعة الذين روى عنهم الإمام في بيتين من الشعر :

ان الإمام اباحنيفة قد روى + عن سبعة من خير صحب محمد
أنس وواثلة ومعقل وجابر + وابنا أنيس وجزء وابنة عجرد

وعن عمرو بن حريث المتوفى سنة ٨٥ الذي كان في مكانـــه بالكوفة وكان أبو حنيفة أدرك بالسن نحوا من عشرين صحابياً كمـــا بسط في أوائل الضياء للمقدسي وزاد عليه جماعة من الصحابة في تنوير الصحيفة ،

وقد صرح بتابعية الإمام جمع عظيم من المحدثين منهم ابن سعد في الطبقات الذهبي في تكرة الحفظ والحافظ ابن حجر والحافظ العراقي والدار قطني والامام أبو معشر عبد الكريم المقري الشـــافعي وأثبـــت روايته عن الصحابة أيضاً والحافظ السيوطي ،

وأقر بصحة الرواية عن الصحابة والحافظ أبو الحجاج المـــزي والحافظ الخطيب البغدادي والحفظ ابن الجوزي والحافظ ابن عبـــد الله والحافظ السمعاني في الانساب والامام النووي والحافظ عبـــد الغـــني المقدس والامام الجوزي والامام التوريشي والامام اليافعي و ابن حجـــو المكي الشافعي والقسطلاني والحافظ بدر الدين العيني وغيرهم من كثير

العلماء المحققين فهو تابعي بلا ريب واثبت الحافظ العيني سماعه عن كثير من الصحابة ،

ورد عليه الحافظ قاسم بن قطلوبغا ولكن قاعدة المحدثين بان راوي الاتصال مقدم على راوي الارسال والانقطاع اذمعه زيادة علم توئد ما قال الحافظ العيني وقد صح روايته عن الصحابة جمع من المحققين أيضا مثل السيوطي وابن حجر المكي وابن عبد البر ولاذهبي واليافعي وغيرهم فهو تابعي رؤية ورواية ،

فمن قال أنه تابعي رؤية دون رواية فهو أيضا ليس بصحيح ومن انكر تابعيته فإنما قاله من التبع القاصر أو التعب الفاتر لا يغفل عن لاختلاف في سن ولادته ٦١و٧١و ٨٠ والفضل يثبت بالقرن وكذا بالضعاف والعادة كما مر فله فضل على معاصريه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء الله ذو الفضل العظيم .

الفائدة الخامسة والثلاثون
في شيوخ الإمام من المحدثين والفقهاء وطبقاتهم

ولد الإمام أبو حنيفة في خلافة عبد الملك بن مروان الأموي ، و أدرك عهد العباسيين وعاش إلى سـ ١٥٠ هـ ومر سابقاً انه تربي في الكوفة ، وحصل العلوم العصرية وعلم الكلام وقدراً من الحديث والتفسير ، حتى مر يوماً على الشعبي ونصحه إلى طلب الحديث فانصرف إلى الحديث ،

ولما حج مع أبيه سمع حديثاً من عبد الله بن الحارث بن جزء ، وأيضا سمع من جماعة من الصحابة ثم من التابعين واتباعهم ، فيلزم ان تكون شيوخ الإمام على طبقات ، فاعلاها طبقة الصحابة الذين روى الإمام عنهم بلا واسطة ، ويقال لها الوحدانيات ، قال السخاوي الثنائيات في الموطأ للإمام مالك ، والوحدانيات في حديث الإمام أبي حنيفة ، والإسناد العالي من أهم المقاصد في علم الحديث ، قال السيوطي : اجلها القريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث العدد باسناد صحيح نظيف ،

وقال الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير ، ربما اخرج مسلم الإسناد الضعيف واقتصر عليه لعلوه ، وترك الإسناد

الصحيح لنزوله ذكره في الروض الباسم ، فأعلى الأسانيد للإمام الواحدانيات ،

وقد صنف كثير من المتقدمين والمتأخرين في هذا الموضوع رسائل وأجزاء ، كالحافظ أبي حامد محمد بن هارون الحضرمي ، والحافظ أبي معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري الشافعي ، والحافظ أبي بكر عبد الرحمن بن محمد السرخسي وغيرهم ، ثم طبقات التابعين واتباعهم ،

قال أصحاب المناقب : ان شيوخ الإمام بلغوا أربعة الاف منهم جماعة من الصحابة ، وثلاثة وتسعون من التابعين ، والبواقي من أتباعهم ، ولا غرابة في هذا ولا عجب ، فقد عاش الإمام سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة ، وحج خمساً وخمسين مرة ، وموسم الحج مجمع علماء العالم الإسلامي خاصة في الحرمين الشريفين ، أقام بمكة حين ضربه ابن هبيرة على تولى القضاء بالكوفة سنة ١٣٠ ،

ثم هرب منه وأقام بالحرمين ست سنين فاخذ الحديث والفقه من شيوخ مكة والمدينة وغيرهما من القادمين ولذا ترى في شيوخه كوفيا وبصريا ومكيا ومدنيا وشاميا وغير ذلك وهذه الكوفة كانت مركز العلوم كما مر سابقاً حيث نزل أربعون ألفا من المدائن مع سعد

بن أبي وقاص ونزل فيها ألف وخمس مائة من الصحابة وقال الحاكم قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعة الاف من الصحابي والصحابية وذكره في المدخل ،

وقال ابن القيم الذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة ذكره في اعلام الموقعين وأما التابعون الذين اخذوا العلم من الصحابة فكثيرون قال ابن سعد في طبقاته أما التابعون ففي المدينة اربع وثملنون وأربع مائة وفي الكوفة ثلاثة عشر واربع مائة وفي مكة واحد وثلاثون ومائة وفي البصرة اربع وستون ومائة

وقال السيوطي في تدريب الرواي قال ابن سيرين قدمت الكوفة وبها أربعة الاف يطلبون الحديث وهذا ابن سيرين من كبار التابعين من معاصري الإمام أبي حنيفة ،

وهذا الإمام البخاري الذي أخرج الأحاديث الصحاح في جامعه فهو أخرج الأحاديث من تسعة وعشرين صحابياً من الكوفيين والرواة الكوفيون في البخاري ازيد من ثلاث مائة وكثير من الكوفيين رووا عنهم غير البخاري في كتبهم فعلى هذه الأمور قد ظهر كيف شاع علم الحديث في الكوفة في عهد التابعين . فهذا الإمام الشعبي

الذي قيل في حقه هو اكبر شيخ أبي حنيفة كما في تذكـــرة الحفـــاظ وأيضا قيل كان من ابرز الذين تخرجوا على الشعبي الإمام أبو حنيفـــة كما في تاريخ العرب ويقول أدركت خمس مائة من الصحابة

وقال الزهري في حقه العلماء أربعة سعيد بن المسيب في المدينـة والشعبي في الكوفة والحسن البصري في البصرة والمكحول في الشـــام وقال عبد الله بن داود سئلت الإمام أبا حنيفة ممن اخذت العلم فقـال عن قاسم بن محمد وطاؤس وعكرمة وعبد الله بن دينـــار والحســن البصري وعمرو بن دينار وأبي الزبير وعطاء بـــن أبي ربـــاح وقتـادة وابراهيم والشعبي والنافع وأمثالهم كما في شرح مسند الإمام

ولذا توجد روايات كثيرة عن الإمام برواية الشعبي في المســانيد للإمام الأعظم وقال الخطابي علوم الصحابة كلهم في ثلاثة عبد الله بـن مسعود وعبد الله ابن عباس وزيد بن ثابت ،

وانتشر علوم ابن مسعود في ستة علقمة وأسود وعبيدة والحارث ومسروق وعمر وجمع علوم هؤلاء في اثنين إبراهيم النخعي والشـــعبي وقال سفيان بن عيينة المحدث بعد الصحابة اثنان الشـــعبي وســفيان الثوري ـــ بالجملة الوحدانيات ليس لاحد سوى الإمام أبي حنيفة مـن المحدثين المعاصرين .

الطبقة الثانية طبقة التابعين الذين روى عنهم الإمام بواسطتين ويقال لها الثنائيات وهذا أعلى المسانيد لإمام مالك لأنه لم يلـــق أحـــدا مـــن الصحابة وهذه في حق الإمام أبي حنيفة في الطبقة الثانية وروى الإمـام محمد في كتاب الاثار ثنائيات الإمام عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وكذا عن نافع عن ابن عمر وعن عبد الله بن أبي حية عـــن أبي الدرداء وعن عبد الرحمن عن أبي سعيد وعن عطية عن أبي سعيد وعن شداد عن أبي سعيد وعن عطاء عن أبي سعيد وعن عاصم عن رجـــل من أصحابه وعن محمد بن عبد الرحمن عن أبي امامة وعـــن مسـلم الاعور عن أنس بن مالك وعن محمد بن قيس عن أبي عامر كلهم عـن رسول لله صلى الله عليه وسلم فهذه الثنائيات ذكرها الإمام محمـــد و سواها أيضا كثيرة .

الطبقة الثالثة من اتباع المتابعين الذي روي عنهم الإمام بثـلاث وسائط ويقال لها الثلاثيات وهذه أعلى الاسانيد للإمام البخاري ولمـــا لم يلق الإمام الشافعي وأحمد أحدا من التابعين فثلاثياقم أعلى الطبقات لهم وهذه الثلاثيات للإمام وافره نحو عن بلال عن وهيب عن جـــابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا عن موسى بن أبي عائشـــة

عن عبد الله عن جابر وعن عبد الله بن أبي نجيح عن عبد الله بن عمرو كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك .

الطبقة الرابعة وهي الطبقة النازلة وليست دونها طبقة للإمام وهي اعلى الطبقات للإمام مسلم والنسائي لأنهما لم يلقيا أحداً من اتباع التابعين مثلا ان الإمام مسلما أخرج الرباعيات بهذه الأسانيد عن سويد بن سعيد عن مروان الفزاري عن مالك عن سعد بن طارق عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أمثال ذلك .

وكذا النسائي أخرج عن حميد عن عبد الوارث عن شعيب عن أنس بن مالك ومثل ذلك ولكن مثل هذه الرباعيات تعد نازلة عند الإمام أبي حنيفة وقد ذكرها الإمام محمد في كتاب الآثار مثلاً عن حماد عن إبراهيم عن الأسود بن يزيد عن عمر بن الخطاب وعن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود و أمثال ذلك .

فجميع شيوخ الإمام تنقسم على هذه الطبقات وأخذ عنهم الفقه والحديث ولا تنزل عن اتباع التابعين قال علي القاري في شرح مسند الإمام يبلغ عدد شيوخ الإمام أبي حنيفة من الصحابة والتابعين واتباعهم أربعة آلاف وكذا ذكره أبو حفص الكبير وذكر أسماءهم الحافظ أبو بكر الجعابي في كتابه الانتصار تفصيلاً و أردنا ان نذكر

عدة من الشيوخ المشاهير بعد الصحابة اختصاراً فأما شيوخه من الكوفة :

(١) علامة التابعين عامر بن شراحيل الشعبي المتوفى سنة ١٠٤هـ وذكرنا نبذة من أحوله سابقاً .

(٢) الإمام حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة١٢٠ يروى عن أنس وزيد بن ثابت وسعيد ابن المسيب وعكرمة وإبراهيم النخعي وغيرهم وهذا الذي صاحبه الإمام ثماني عشرة سنة واتفق أصحابه على ان يخلفه أبو حنيفة في الدرس فكان خير خلف لخير سلف قال الإمام حسن بن زيد يروي الإمام أبو حنيفة أربعة آلاف حديثاً ألفين من حماد و ألفين من باقي الشيوخ .

الإمام عبد الله أبو إسحاق السبيعي المتوفى سنة ١٢٧ أخذ العلم عن ثلاث مائة شيخ منهم ثمانية وثلاثون صحابيا قال الإمام أبو داود الطيالسي أخذنا العلم عن أربعة قتادة وأبي إسحاق والزهري و الأعمش وأبو إسحاق السبيعي أعلمهم بحديث على وابن مسعود كما في تذكرة الحفاظ وذكر الإمام أبو يوسف في كتاب الآثار والحافظ موسى بن زكريا في مسنده روايات الإمام عن السبيعي .

(٣) الحكم بن عتيبة المتوفى سنة ١١٥ قال الذهبي شيخ الكوفة وقال سفيان بن عيينة ليس أحد مثل الحكم وحماد وذكر رواية الإمام أبو يوسف في كتاب الآثار عن الحكم عن القاسم بن مخيمرة عن شريح عن عائشة رض وذكر الحافظ أبو محمد الحارثي في مسنده عن الحكم عن القاسم عن شريح عن علي رح .

(٤) إسماعيل بن خالد الكوفي المتوفى سنة ١٤٦ .

(٥) بيان بن بشر المتوفى سنة

(٦) جامع بن أبي راشد المتوفى سنة ١٤٨.

(٧) جامع بن شداد المحاربي المتوفى سنة ١١٨ .

(٨) الحسن بن سعد الكوفي المتوفى سنة

(٩) زيد بن أبي انيسة المتوفى سنة ١٢٥ .

(١٠) زياد بن علاقة المتوفى سنة ١٣٥ .

(١١) زياد بن حدير الاسدي المتوفى سنة

(١٢) أبو عبد الرحمن

(١٣) سعيد بن مسروق المتوفى سنة ١٢٨ .

(١٤) سلمة بن كهيل المتوفى ١٢١ .

(١٥) سليمان بن أبي سليمان المتوفى سنة ١٤١ .

(١٦) سماك بن حرب المتوفى سنة ١٢٣ .

(١٧) عبد الملك بن عمير المتوفى سنة ١٢٦ .

(١٨) علقمة بن مرثد سنة ١٣٠ .

(١٩) أبو ورق عطية بن الحارث سنة

(٢٠) عبد الرحمن بن عبد الله سنة ١٢٥ .

(٢١) منصور بن معتمر سنة ١٣٦ .

(٢٢) منصور بن دينار سنة

(٢٣) أبو عبد الله بن عبد لله سنة ١٢٠ .

(٢٤) عتبة بن عد الله

(٢٥) قاسم بن عبد الرحمن سنة

(٢٦) يزيد بن عبد الرحمن سنة

(٢٧) خالد بن علقمة سنة

(٢٨) زكريا بن أبي زائدة سنة

(٢٩) إبراهيم بن محمد المنتشر الكوفي سنة

(٣٠) إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي سنة

(٣١) إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان الكوفي .

(٣٢) الحارث بن عبد الرحمن الهمداني الكوفي سنة

(٣٣) عاصم بن كليب بن شهاب الكوفي سنة وغيرهم من مشايخ كوفة

واما من شيوخ مكة :

(٣٤) عطاء بن شهاب بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤ قال الذهبي أكبر شيوخه عطاء بن أبي رباح وأيضا قال انه سمع الحديث من عطاء بمكة وحج سبعين ونودى في عهد الحكومة الأموية بانه لا يفتى الناس في الحج الا عطاء ،

قال القسطلاني كان من سادات التابعين علما وفقها يقول عطاء أدركت مائتي صحابي وذكر الإمام أبو يوسف رواياته في كتاب الآثار هذا السند عن أبي حنيفة عن عطاء عن ابن عمر وكذا ذكر الإمام موسى بن زكريا الحصكفي في مسنده والحافظ أبو محمد الحارثي في مسنده والامام محمد في مؤطئه وفي كتاب الآثار أحاديث .

(٣٥) الحافظ عمرو بن دينار المكي المتوفى سنة ١٣٦، ذكر الحافظ العسقلاني في التهذيب شيوخه من الصحابة ابن عباس وابن الزبير وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبا هريرة وجابر بن عبد الله واباالطفيل والسائب بن يزيد رضي الله عنهم

وعد من تلامذته الإمام أبا حنيفة وشعبة وابن جريج وحماد بن زيد وغيرهم ولكن ذكر الحافظ السيوطي من الحافظ المزي ان عمرو بن دينار تلميذ للإمام أبي حنيفة في الحديث وكذا ذكره الذهبي والكردري وصدر الأئمة وفي الاصل ان عمرو بن دينار رجلان مكي وبصري فعمرو بن دينار المكي من شيوخ الإمام أبي حنيفة دون البصري وذكر رواياته الإمام أبو يوسف في كتاب الآثار عن أبي حنيفة عن عمرو بن دينار عن جابر عن زيد الخ .

(٣٦) الحافظ أبو الزبير محمد بن مسلم المتوفى سنة ١٢٨ يقول عطاء بن أبي رباح كنا نذهب إلى جابر فنسمع الأحاديث فمنا الا حفظ لأحاديثه أبو الزبير محمد بن مسلم . اخذ الحديث من عبادلة الأربعة وعائشة وجابر وأبي الطفيل رضي الله عنهم ومن تلامذته الإمام أبو حنيفة والزهري والاعمش ويحي بن سعيد الطان وغيرهم وذكر روايته الإمام أبو يوسف رح في كتاب الآثار عن أبي حنيفة عن أبي الزبير عن جابر رض .

(٣٧) عبد الله بن أبي زياد سنة

(٣٨) أبو الحصين المكي سنة ١٥٠ .

(٣٩) حميد بن قيس المكي سنة ١٣٠

(٤٠) أبو عثمان عبد الله بن عثمان سنة ١٢٤ .

(٤١) عبد الله بن عبد الرحمن

(٤٢) إبراهيم بن ميسرة الطائفي ١٣٢ .

(٤٣) إسماعيل بن امية ١٤٤ .

(٤٤) إسماعيل بن مسلم أبو إسحاق المكي

(٤٥) أبو عبد الله عبد العزيز بن رفيع الأسدي ١٣٠ ـــ وغيرهم من مشايخ مكة وذكر تراجم هؤلاء ابن حبان في كتاب الثقات والعسقلاني في تهذيب التهذيب .

وأما من شيوخ المدينة :

(٤٦) الحافظ أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ قال الذهبي اعلم الحفاظ المدني وقال الحافظ ابن كثير أحد الاعلام من أئمة الإسلام تابعي جليل أخذ العلم عن جماعة من الصحابة وكبار التابعين امره عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث وكان عنده علم قاسم بن محمد وعمرة بنت عبد الرحمن وهما تلميذان خاصان لعائشة . ذكر روايته الإمام

أبو يوسف في كتاب الاثار عن أبي حنيفة رح عن الزهري عن انس .

(٤٧) أبو عبد الله محمد بن المنكدر ١٢٠ .

(٤٨) يحيى بن سعيد الأنصاري ١٢٠ .

(٤٩) هشام بن عروة ١٤٦ .

(٥٠) واصل بن داؤد

(٥١) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص

(٥٢) موسى بن طلحة بن عبد الله ١٠٤

(٥٣) أبو عبد الله عكرمة مولى ابن عباس ١٠٧ .

(٥٤) عبد الله بن دينار ١٢٧ .

(٥٥) عطاء بن يسار ١١٣.

(٥٦) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ١١٧.

(٥٧) عطاء بن السائب ١٤٦ .

(٥٨) سليمان بن يسار المدني ١٠٧

(٥٩) عدي بن ثابت

(٦٠) عبد الله بن الحسين

(٦١) سالم بن عبد الله ١٠٦ .

(٦٢) أبو عبد الله نافع العدوى ١١٨ .
(٦٣) ربيعة بن عبد الرحمن المدني لمعروف بربيعة الرأي ١٣٧
وغيرهم من شيوخ المدينة .

أما الإمام مالك فهل هو من شيوخ الإمام أبي حنيفة أو من تلاميذه فقيه اختلاف ،

قال السيوطي أن أبا حنيفة أخذ حديثين عن مالك وكان يصر عليه واستدل عليه بما رواه الخطيب والدار قطني حديثين بذلك السند ولكن قال الحافظ العسقلاني في النكت على بن الصلاح لم يثبت رواية أبي حنيفة عن مالك وانما أوردهما الدار قطني ،

ثم الخطيب من روايتين في اسنادهما مقال قال الذهبي السند الذي رواه الدار قطني فيه عمران عبد الرحيم ضعيف وهو وضع الحديث من أبي حنيفة عن مالك ،

وقال الحافظ أبو عبد الله محمد بن مخلد انما السند كان في الأصل عن بكار بن الحسن الاصفهاني قال ثنا حماد بن أبي حنيفة ثنا مالك بن أنس الخ وغلط فيه بعض الرواة وقال ثنا حماد عن أبي حنيفة ثنا مالك وأما الذي رواه الخطيب ففيه الراوي حجر بن الصلت ضعيف وغلط في بيان السند لأن الحديث رواه الإمام أبو يوسف

ومحمد في كتاب الآثار وانما هو عن أبي حنيفة عن عبد الملك بن عمير ١٣٦ فغلط فيه فقال عن أبي حنيفة عن مالك .

وقال الحافظ عبد القادر القرشي في الجواهر المضيئة والعلامة الخوارزمي في جامع المسانيد والحافظ ابن حجر العسقلاني ان مالكاً كان من تلامذة الامام أبي حنيفة رح حتى قال الإمام الشافعي : كان مالك ينظر في كتب أبي حنيفة وينتفع به وأيضاً لم يذكر الحافظ جمال الدين المزي في تهذيب الكمال والذهبي في تذكرته بأن أبا حنيفة من تلامذة مالك فظهر قول من قال بأن أبا حنيفة من تلامذة مالك لا يصح وبعد ذلك يمكن أن يحمل ان الحديثين الذين رواهما أو نسب أنهما روى عن مالك انما كانا بطريق المذاكرة لا بطريق الرواية ،

وهذا ليس بتلمذ ثم لو سلم هذا فيقال بأنه رواية الأقران عن الأقران وهذا ليس بقدح عند المحدثين بل ثبت عندهم رواية الأكابر عن الاصاغر أيضا كما روى الإمام البخاري روايتين عن الإمام الترمذي بالجملة لا يعد الإمام مالك في سلسلة شيوخ الإمام الأعظم أبي حنيفة رح ــ والله أعلم .

وأما من شيوخ البصرة ، وهذه بلدة ثالثة من بلاد الإسلام في العلوم الدينية التي نزل فيها جماعة من الصحابة مثل الي موسى

الاشعري وعمران بن حصين وابن عباس وغيرهم وفيها نشأ الحسن البصري وابن سيرين وأبو العالية وقتادة وغيرهم من التابعين وسافر الإمام أبو حنيفة رح اليها أكثر من عشرين مرة واحياناً أقام فيها سنة أو أكثر فامكن له ان ياخذ العلم فيها من شيوخ كثيرة نذكر عدة منهم .

(٦٤) الإمام أبو بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني ١٣١ ذكر الإمام أبو يوسف رواياته في كتاب الآثار عن أبي حنيفة عن أبي بكر أيوب البصري ان امرأة ثابت بن قيس بن شماس اتت النبي صلى الله عليه وسلم الخ .

(٦٥) بهز بن حكيم

(٦٦) بكر بن عبد الله المزني

(٦٧) عطاء بن عجلان

(٦٨) قتادة بن دعامة

(٦٩) مبارك بن فضالة ١٦٤ .

(٧٠) يزيد بن أبي يزيد

(٧١) محمد بن الزبير

(٧٢) شداد بن عبد الرحمن

(٧٣) أبو سفيان طريف بن سفيان

(٧٤) نصر بن سعد

(٧٥) يزيد بن أبي حبيب

(٧٦) طاؤس بن كيسان أبو عبد الرحمن اليمني ١٠٦

(٧٧) شيبان بن عبد الرحن أبو معاوية ١٦٤ ، وغيرهم من شيوخها

ذكر الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ ست وعشرين من الحفاظ شيوخ الإمام أبي حنيفة وقد ذكرنا أكثرهم في اثناء كلامنا .

بالجملة أن الإمام الأعظم أخذ العلم من مشاهير المحدثين والشيوخ وهذا يكفي لعلو شانه وجلالته وعلو كعبه في الحديث حتى عده الحافظ الذهبي في زمرة الحفاظ المحدثين وذكر ترجمته فيها . يقول الذهبي : لم أذكر ترجمة خارجة بن زيد لأنه قليل الحديث فلما كان هذا دابه ثم ذكر ترجمة الإمام أبي حنيفة مع ذكر شيوخه وتلامذته يعلم ظاهراً انه عند الذهبي من حفاظ الحديث وكثير الرواية للحديث . ذكرت الكلام موجزاً وعليك بالمطولات .

الفائدة السادسة والثلاثون
في تلامذة الإمام رحمه الله

قال ابن حجر المكي : قال بعض الأئمة : لم يظهر لأحد من أئمة الإسلام المشهورين مثل ما ظهر لأبي حنيفة من الأصحاب والتلاميذ ولم ينتفع العلماء وجميع الناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه في تفسير الأحاديث المشتبهة والمسائل المستنبطة والنوازل والقضايا والأحكام ،

وأيضا قال : وتلمذ عليه كبار من المشايخ الأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين كالإمام الجليل المجمع على جلالته عبد الله بن المبارك والليث بن سعد والإمام مالك بن انس وناهيك بهؤلاء الأئمة ومسعر بن كدام ،

قال الإمام حافظ الدين محمد بن محمد شهاب المعروف بابن البزار الكردري عدد تلاميذه سبع مائة وثلاثون من المحدثين والفقهاء ثم ذكر تراجمهم بلدا بلدا من مكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة والرقة ونصيبن والدمشق والرملة ومصر واليمن واليمامة والبحرين وبغداد والاهواز والكرمان والاصفهان والحلوان والاستراباد والهمدان و نهاوند والري والدامغان وطبرستان والجرجان

والنسابور والسرخس والنساء والمرو والبخاري والسمرقند والكش والصغان والترمذ والبلخ والخوارزم وقال الحافظ عبد القادر القرشي روى عن أبي حنيفة نحو من أربعة آلاف نفر ولذا قال ابن حجر استيعابه متعذر لايمكن ضبطه ونذكر عدة منهم .

قال الإمام البخاري في التاريخ الكبير وروى عنه :

١) عباد بن العوام

٢) عبد الله بن المبارك

٣) مقسم

٤) وكيع

٥) مسلم بن خالد

٦) أبو معاوية

٧) والمقري ،

وزاد عليه ابن أبي حاتم الرازي

٨) عبد الرزاق بن هشام

٩) أبو نعيم ،

وزاد عليه ابن حجر في تهذيب التهذيب

١٠) حماد بن أبي حنيفة

١١) إبراهيم ابن طهمان

١٢) حمزة بن حبيب الزيات

١٣) زفر بن الهذيل

١٤) أبو يوسف القاضي

١٥) أبو يحيى الحاني

١٦) عيسى بن يونس

١٧) يزيد بن ذريع

١٨) أسد بن عمرو البجلي

١٩) حكام بن يعلى الرازي

٢٠) خارجة بن مصعب

٢١) عبد المجيد بن أبي رماد

٢٢) علي بن مسهر

٢٣) محمد بن بشير العبدي

٢٤) مصعب بن المقدام

٢٥) يحيى بن يمان

٢٦) نوح بن أبي مريم

٢٧) أبو عاصم وقال في آخره وأخرون

وزاد الطيب البغدادي

٢٨) يزيد بن هارون

٢٩) علي بن عاصم

٣٠) يحيى بن نصر

٣١) عمرو بن محمد

٣٢) طلحة بن خليفة وقال الذهبي تفقة به جماعة من الكبار منهم زفر بن الهذيل وأبو يوسف وغيرها وروى عنه من المحدثين والفقهاء عدة لا يحصون ثم قال فمن اقرانه

٣٣) مغيرة بن مقسم

٣٤) زكريا بن أبي زائدة

٣٥) مسعر بن كدام

٣٦) سفيان الثوري

٣٧) مالك بن مغول

٣٨) يونس بن أبي اسحاق ومن بعدهم

٣٩) زائدة

٤٠) شريك

٤١) الحسن صالح

٤٢) أبو بكر بن عياش

٤٣) حفص بن غياث

٤٤) جرير بن عبد الحميد المحاربي

٤٥) أبو إسحاق الفزاري

٤٦) سعد بن الصلت

٤٧) إسحاق بن يوسف الارزق

٤٨) المعافي بن عمران

٤٩) زيد بن الحبان

٥٠) حفص بن عبد الرحمن

٥١) عبيد الله بن موسى العبسى

٥٢) محمد بن عبد الله الأنصاري

٥٣) أبو أسامة

٥٤) ابن نمير

٥٥) جعفر بن عون

٥٦) إسحاق بن سليمان الرازي

وزاد عليه الإمام الطحاوي

٥٧) داود الطائي

٥٨) أسد بن عمرو
٥٩) يوسف بن خالد
٦٠) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وكان لازم الإمام أبا حنيفة ثلاثين عاماً وكان كاتباً لتدوين الفقه أيضا
٦١) مكي بن إبراهيم
٦٢) فضيل بن عياض
٦٣) حسن بن زياد
٦٤) هشيم بن بشير
٦٥) الفضل بن دكين
٦٦) سفيان بن عيينة
٦٧) شعيب الدمشقي
٦٨) الإمام محمد بن الحسن الشيباني
٦٩) معمر
٧٠) حماد بن زيد
٧١) خلف ابن أيوب
٧٢) الليث بن سعد
٧٣) الإمام مالك
٧٤) أبو مطيع البلخي وغيرهم .

الفائدة السابعة والثلاثون

في علو كعبة في الحديث والشهادة عليه

لقد كان الإمام رحمه الله تعالى في عصر التابعين وتابعيهم بإحسان، ولقد كان العالم في تلك العصور هو العارف المتفقه في الكتاب والسنة وأقوال السلف كان الإمام مجتهداً إجماعا بل من أكابر المجتهدين ، لم ينكر أحد سلفاً ولا خلفاً ، والرجل لا يكون مجتهداً الا بعد ان يكون ماهراً بالكتاب والسنة والتفسير واللغة والقياس ،

كما صرح به أئمة الأصول قديماً وحديثاً فبعد ذلك انكار امامته في الحديث سفسطة قطعاً، مع هذا نذكر نبذة من تصريحات أهل هذا الفن، لتسكن قريحة المضطرب ويطمئن قلب المتشكك ، قال الإمام عبد الله بن المبارك كان والله شديد الأخذ العلم ذاباً عن المحارم متبعاً لأهل بلده لا يستحل أن يأخذ الا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد المعرفة بناسخ الحديث ومنسوخه ،

وكان يطلب احاديث الثقات والآخر من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما أدرك عليه علماء أهل الكوفة في اتباع الحق اخذ به وجعله دينه، وقد شنع عليه قوم فسكتناعهم نستغفر الله منه ، وأيضا قال : دخلت الكوفة فسألت علماءها وقلت : من اعلم الناس

في بلادكم هذه ؟ فقالوا كلهم : الإمام أبو حنيفة رح، وعده الذهبي في حفاظ الحديث ، وذكر في تذكرته ترجمة محدودة للإمام رحمه الله ،

وقال في مقدمته " هذه تذكرة باسماء معدلي حملة العلم النبوي ومن يرجع إلى اجتهادهم في التوثيق والتصحيح والتزييف ، فهذه شهادة على أن الإمام كان حافظاً معدلاً حاملاً للعلم النبوي يرجع إلى اجتهاده في تصحيح الأحاديث وتضعيفها ، وتوثيق الرجال وتزييفها

قال علي بن المديني ، أبو حنيفة روى عنه الثوري وابن المبارك وحماد بن زيد وهشيم ووكيع بن الجراح وعباد بن العوام وجعفر بن عون ، وهو ثقة لا بأس به ، قال مكي بن إبراهيم كان أبو حنيفة اعلم زمانه ، روى الخطيب عن سفيان بن عيينة أنه قال: أول من اقعدني للحديث بالكوفة أبو حنيفة ، وفي رواية اول من صيرني محدثاً أبو حنيفة، قدمت الكوفة فقال أبو حنيفة وان هذا اعلم الناس بحديث عمرو بن دينار، فاجتمعوا عليّ فحدثتهم ،

قال محمد بن سماعة : ان الإمام ذكر في تصانيفه نيفا وسبعين ألف حديث، وانتخب الآثار من أربعين ألف حديث ، قال العلامة ظفر احمد التهانوي في قواعد علوم الحديث : ويدل على صحة هذا القول ما روى عنه أصحابه ، كمحمد بن الحسن في كتبه الستة

المعروفة بظاهر الرواية ، وغيرها المعروفة بالنوادر ، وكابي يوسف في اماليه وكتاب الخراج له ، وكعبد الله بن المبارك في كتبه ، ووكيع وغيرهم من أصحابه، مسائل كثيرة لا يحصى عددها ، ولا يستفصى أمدها فإذا لخصت منها ما يوافق الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة صراحة ودلالة ، سوى ما استنبطه باجتهاده لتجدها نحو ذلك ان شاء الله . فهذه المسائل كلها أحاديث رواها الإمام بطريق الإفتاء دون التحديث ،

وقال العلامة ظفر في انجاء الوطن : انما لم يقل فيها الإمام أبو حنيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لشدة تحريه وتوقيه وقال أيضا في القواعد: ومع ذلك فما يوجد من احاديث أبي حنيفة التي رواها بطريق الإسناد كثيرة أيضا ، منها ما قد جمعه الحفاظ في مسانيده،

ومنها ما ذكره أصحابه محمد بن الحسن في الآثار والموطا والحجج وغيرها من كتبه، وأبو يوسف وابن المبارك والحسن بن زياد وغيرهم في كتبهم ، ووكيع بن الجراح في مسنده، وابن أبي شيبة وعبد الرزاق في مصنفيهما، والحاكم في المستدرك وغيره، وابن حبان في صحيحه، وفي الثقات له وغيرهما ، والبيهقي في سننه وكتبه ،

والطبراني في معاجمه الثلاثة ، والدار قطني في كتبه ، وغيرهم في غيرها لو جمعنا تلك الأحاديث كلها في مجلد واحد لكان كتاباً ضخماً ، وقال يحيى بن آدم كان النعمان جمع حديث بلده كله فنظر إلى آخر ما قبض عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال أبو يوسف ما رأيت اعلم بتفسير الحديث منه وكان ابصر بالحديث الصحيح مني .

وروى الخطيب عن اسرائيل بن يونس انه قال : نعم الرجل النعمان ما كان احفظه لكل حديث فيه فقه واشده فحصا عنه واعلمه بما فيه من الفقه، " وعن محمد بن سلمة قال قال خلف بن أيوب صار العلم من الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثم إلى أصحابه ثم إلى التابعين ثم صار إلى أبي حنيفة رح واصحابه " وقال يزيد بن هارون أدركت ألف رجل وكتبت عن أكثرهم ، ما رايت فيهم افقه ولا اورع ولا اعلم من خمسة اولهم أبو حنيفة ، ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم، وروى الخطيب عن محمد بن بشر قال كنت اختلف إلى أبي حنيفة والى سفيان الثوري، فاتي سفيان فيقول من اين جئت ؟

فاقول من عند أبي حنيفة فيقول : لقد جئت من عند افقه أهل الأرض ، " وقال أبو يوسف ما خالفت أبا حنيفة في شئ قط

فتدبرته الا رأيت مذهبه الذي ذهب إليه انجى في الآخرة ، وكنت ربما ملت إلى الحديث ،

وكان هو ابصر بالحديث الصحيح مني ، وقال: كان إذا صمم على قول ، درت على مشايخ الكوفة، هل أجد في تقوية قوله حديثاً أو اثراً ، فربما وجدت الحديثين والثلاثة ، فاتيته بها فمنها ما يقول فيه، هذا غير صحيح أو غير معروف فأقول له وما علمك بذلك مع انه يوافق قولك ؟ فيقول انا عالم بعلم آهل الكوفة .

روى انه كان عند الاعمش فسئل عن مسائل فقال لابي حنيفة ما تقول فيها؟ أجابه قال من اين لك هذا قال من أحاديثك التي رويتها عنك وسردله عدة أحاديث بطرقها، فقال له الاعمش: حسبت ما حدثتك به في مائة يوم تحدثني به في ساعة واحدة ما علمت انك تعمل بهذه الاحاديث يا معشر الفقها أنتم الأطباء ونحن الصيادلة وأنت أخذت بكلا الطرفين .

قال محمد بن سعدان سمعت من حضر يزيد بن هارون وعنده يحي بن معين وعلي بن المديني واحمد بن جنبل وزهير بن حرب وجماعة، اذا جاءه مستفت فسأله عن مسألة فقال له يزيد: اذهب الى أهل العلم، فقال له ابن المديني أليس اهل العلم والحديث عندك ؟ قال

أهل العلم أصحاب أبي حنيفة وانتم صيادلة.، قال أبو يوسف روى الموفق بسنده إلى علي بن هاشم، قال كان أبو حنيفة كتز العلم ، ما كان يصعب من المسائل على أعلم الناس فهو كان سهلاً على أبي حنيفة .

قال زفر كان كبراء المحدثين مثل زكريا بن أبي زائدة وعبد الملك بن أبي سليمان والليث بن أبي سليم ومطرف بن طريف وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم، يختلفون إلى أبي حنيفة يسألونهم ، عما ينوبهم من المسائل ويشتبه عليهم من الحديث، (مناقب الموفق ١/ص١٥٢) .

قال أبو داود صاحب السنن : ان أبا حنيفة كان اماما وان مالكا كان اماما وان الشافعي كان اماما ، قال ابن عبد البر سئل يحي بن معين وعبد الله بن احمد الدورقي ايسمع من أبي حنيفة ؟ فقال يحي بن معين: هو فقيه ما سمعت أحدا ضعفه، وهذا شعبة بن الحجاج يكتب إليه ان يحدث بامره، وشعبة لشعبة

وقيل ليحيى بن معين: يا أبا زكريا أبو حنيفة كان يصدق في الحديث ؟ فقال نعم صدوق وأيضا سئل يحيى بن معين هل حدث

شعبة عن أبي حنيفة قال نعم كان أبو حنيفة صدوقاً في الحديث والفقه مامونا على دين الله واثنى عليه (قلائد عقود العقيان ص٧١) .

وقال الامام أبو جعفر الطحاوي في معاني الاخيار من رجـــال الآثار أبو حنيفة الإمام الأعظم ثقة ثبت فقيه مشهور "

وحكي عن عبد الله بن المبارك يقول قصيدة في مدح الإمام رح عدة منها .

لقد زان البلاد ومن عليها + إمام المسلمين أبو حنيفة
بآثار فقه في حديث + كآثار الرموز على الصحيفة
فما في المشرقين له نظير + ولا بالمغربين ولا بكوفة
رأيت القامعين له سفاها + خلاف الحق مع حجج ضعيفة

ومن الذي يدلنا دلالة واضحة على اشتغاله لحديـــث الشـــريف رواية وكتابة ودراية ، تلك المسانيد الكثيرة التي تركها بعده ورواهـــا عنه أصحابه ، لقد جمع حديث الإمام في سبعة عشر مسندا ، جمـــع خمسة عشر منها الإمام أبو المؤيد الخوارزمي ص٦٦٥ .

وقال الشيخ محمود حسن خان الطونكي في معجم المصنفين فقد جمع حديث الإمام جم غفير من العلماء من طائفة المحدثين والحفاظ المتقنين منهم :

(١) الحافظ الكبير أبو بكر محمد بن إبراهيم الاصفهاني ٣٨١ .

(٢) والحافظ الثقة الإمام أبو عبد الله محمد بن احمد البغدادي ٣٣١.

(٣) والحافظ صدر الدين موسى بن زكريا المصري المعروف بالحصكفي ٦٥٠ .

(٤) والحافظ نجم الدين الكبرى احمد بن عمر الزاهد المشهور ٦١٨.

(٥) والشيخ قاسم بن قطلوبغا المصري ٨٧٩ .

(٦) والحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد الحارثي المعروف بالاستاذ السبذموني ٣٤٠ .

(٧) والحافظ أبو القاسم طلحة بن محمد البغدادي ٣٨٠ .

(٨) والعالم الحافظ الحجة أبو الحسن محمد بن المظفر بن موسى البغدادي ٣٧٩ .

(٩) والحافظ الإمام المشهور أبو نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني ٤٣٠

(١٠) والشيخ الحافظ محمد بن عبد الباقي الأنصاري ٥٣٦ .

(١١) والحافظ الإمام أبو احمد عبد الله الجرجاني المعروف بابن عدي ٣٦٥

(١٢) والحافظ الحسن بن زياد اللؤلوي ٢٤٠ .

(١٣) والحافظ عمر بن الحسن الاشناني ٣٤٩ .

(١٤) والحافظ أبو بكر احمد بن محمد بن خالد الكلاعي .

(١٥) والقاضي أبو يوسف الإمام يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ١٨٢.

(١٦) الإمام محمد بن الحسن الشيباني ١٨٧ .

(١٧) والشيخ حماد بن أبي حنيفة الإمام الأعظم رحمه الله .

(١٨) والحافظ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن أبي بن العوام السعدي.

(١٩) والحافظ أبو عبد الله حسين بن محمد بن خسرو البلخي ٥٧٦.

وهذه المسانيد الخمسة عشر الاخيرة منها جمعها أبو مؤيد الخوارزمي ٦٦٥

وأما صاحب كشف الظنون فذكر مسند الماوردي أيضا .

وهذا ادل دليل لا دليل فوقه، على أن الإمام كان من حفاظ الحديث ومن المكثرين في روايته ، وذلك لأن المحدثين لم يعتنوا بجميع حديث أحد الا حديث من اكثر من السماع والرواية عن المحدثين الخ .

وقال الشيخ المحقق الفقيه أبو الوفاء الافغاني في مقدمة شرحه كتاب الآثار للإمام محمد رح، واول كتاب ألف في علم الحديث النبوي وآثاره وأخباره واقوال الصحابة واتباعهم ، وأحسنه ترتيبا وانتخاباً مرتباً على الابواب كتاب الآثار لإمام الأئمة الإمام الأعظم أبي حنيفة نعمان بن ثابت التيمي الفارسي الكوفي ،

ثم نسج أئمة الامصار على منواله ، ابن جريج في مكة المكرمة ، ومالك بن أنس في المدينة المنورة، وسعيد بن أبي عروبة وعثمان البتي بالبصرة ، والاوزاعي بالشام ، وانتخب كتابه هذا من بين الوف الاخبار المرفوعة والموقوفة ، " وقال الموفق وذكر محمد بن شجاع في تصانيفه نيفاً وسبعين ألف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، مما فيها نظيرها من الصحابة، وانتخب أبو حنيفة رحمه الله الاثار من أربعين ألف حديث "

وقال الحافظ بدر الدين محمود العيني في تاريخه الكبير .

(٢٠) ان مسند أبي حنيفة لابن عقدة يحتوي وحده على ما يزيد على ألف حديث وهو غير تلك المسانيد .

(٢١) ومسند آخر للحافظ المفيد المكثر محدث العراق أبو حفص عمر بن احمد بن عثمان البغدادي الواعظ المعروف بابن شاهين ٣٨٥.

(٢٢) وكذا مسند آخر للحافظ أبي الحسن على بن عمر الدار قطني ٣٨٥ وذكر هذا المسانيد الثلاثة الشيخ المحقق الكوثري في التانيب ص١٠٦ .

(٢٣) وكذا جمع كتاباً في احاديث الإمام رحمه الله الحافظ الزاهد عبد الله بن محمد الأنصاري ٤٨١.

(٢٤) وكذا جمع كتاباً الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسي المعروف بابن القيسراني ٥٠٧.

(٢٥) وكذا جمع الحافظ الكبير محدث الشام أبو القاسم بن علي بن الحسين بن هبة الله الشهير بابن عساكر ٥٧١ .

(٢٦) وكذا جمع شيخ الحرم المحدث عيسى الجعفري المغربي ١٠٨٠ .

ذكره الإمام الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه " انسان العين في مشايخ الحرمين " قال صنف مسندا للإمام أبي حنيفة رحمه الله واتى فيه بعنعنة متصلة إلى العظام الخ، قال المحدث الفقيه محمد بن يوسف الصالحي : كان أبو حنيفة من كبار حفاظ الحديث واعيانهم ولو لا كثرة اعتاءه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه.

الفائدة الثامنة والثلاثون

في بيان محن الإمام رحمه الله تعالى ووفاته

كان الإمام رحمه الله تعالى يقيس في زمان خير القرون ، وكان حكام المسلمين يحتكمون إلى الإسلام واحكامه، الا في مسائل يحرفون فيه تبعاً للأهواء والمطامع، وكانت الأمة الإسلامية لا تعرف سوى الإسلام و أحكامه غالباً، فلقد أصيبت الأئمة الأربعة بمحن كادت توجد في حياة غيرهم ممن بعده ، منهم الإمام الأعظم رض الله تعالى عنه، فقد امتحن بالأذى والضرب والحبس والتهديد بالقتل وصبر على ذلك كله واستقام على الحق حتى لقي الله تعالى .

المحنة الأولى : كان ذلك سنة ١٢٧ أيام الخليفة مروان بن محمد الأموي ، حين احتل الخوارج بالكوفة تحت قيادة الضحاك بن قيس الشيباني ، فقد دخل الضحاك ومعه جماعة على الإمام رحمه الله وطلب منه ان يتوب ، فقال له الإمام مم اتوب ؟ واعاد عليه الضحاك الأمر بالتوبة فقال له الإمام مم أتوب ؟ قال من رضاك بالتحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، فقال له أترضى به أن يكون بيننا ؟ قال نعم ! فقال الإمام للضحاك : قد رضيت بالتحكيم فانقطع الضحاك .

قال المحدث الفقيه علي القاري : وهذا الذي نقل في بعض روايات الثلاث في الإمام، انه استتيب مرتين ، انما كان ذلك من الخوارج الذين كفروا علياً وكرام الصحابة رضوان الله عليهم وقاتلوهم .

ذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل من بني تميم يقال له ذو الخويصرة فوقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعطي الناس من غنائم حنين فقال قد رأيت ما صنعت هذا اليوم ، فقال الرجل فكيف رأيت ؟ قال لم أراك عدلت فيها ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكونوا ؟

فقال عمر بن الخطاب الا اقتله قال : دعه فانه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، (السيرة لابن هشام ج٢ ص٤٩٦) .

المحنة الثانية : ودخل عليه وفد من الخوارج تلك الايام، وقد شهروا سيوفهم ، فقالوا له هاتان جنازتان بباب المسجد ، اما احداهما فجنازة رجل شرب الخمر حتى كظمته ، وخرج بها فمات، والأخرى امرأة زنت حتى إذا أيقنت الحبل قتلت نفسها، قال من أي الملل كانت

من اليهود ؟ قالوا لا ، قال فمنْ النصارى ؟ قالوا لا، قال فمن المجوس ؟ قالوا لا قال من أي كانوا ؟ قالوا من الملة التي تشهد أن لا اله الا الله وان محمد رسول الله قال فاخبروني عن هذه الشهادة أهي من الإيمان ثلث أو ربع أو خمس ؟ قالوا ان الإيمان لا يكون ثلثاً ولا ربعاً ولا خمساً، قال فكم هي من الإيمان ؟ قالوا الإيمان كله ،

قال فما سوالكم اياي عن قوم قد زعمتم واقررتم انهما كانا مؤمنين ؟ قالوا دعنا عنك أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار ؟ قال اما إذا ابيتم فاني اقول فيهما ما قال إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا اعظم جرماً منهما " فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم " وأقول فيهما ما قال عيسى عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهما " ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم "

وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح عليه السلام " اذ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين " وأقول ما قال نوح عليه السلام " ولا اقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً أعلم بما في أنفسهم اني اذن لمن الظالمين " وعند ما سمع الخوارج هذا القوا

السلاح، ولو انه رحمه الله تعالى أجابهم أول الأمر بأنهما مؤمنان لقتلوه ، لأنهم يكفرون المؤمن بفعله الذنب ،

المحنة الثالثة : كان ذلك سنة مائة وثلاثين، وأمامنا رحمه الله في الخمسين من عمره، وقد استتم الأمر من جديد لبني أمية ، وأمير الكوفة يومئذ عمر بن هبيرة ، روى الموفق بسنده قال كان ابن هبيرة والياً على الكوفة في زمان بني أمية،

فظهرت الفتن في العراق ، فجمع فقهاء العراق ببابه، فيهم ابن أبي ليلى وابن شبرمة وداؤد بن أبي هند، فولى كل واحد مهم صوراً من عمله و أرسل إلى أبي حنيفة ولا يخرج من بيت المال شيئ الا من تحت يد أبي حنيفة ، فامتنع أبو حنيفة فأراد أن يجعل الخاتم في يده ولا ينقذ كتاب الا من تحت يد أبي حنيفة ، فحلف ابن هبيرة ان لم يقبل ان يضربه ، فقال له هؤلاء الفقهاء انا ننشدك الله ان تهلك نفسك فانا اخوانك وكلنا كاره لهذا الأمر ، فقال أبو حنيفة : لو ارادني أن اعدله ابواب مسجد واسط ، لم ادخل في ذلك ،

فكيف هو يريد مني بان يكتب دم رجل يضرب عنقه ، واختم انا على ذلك الكتاب ، فو الله لا أدخل في ذلك ابداً ، فقال ابن أبي ليلى : دعوا صاحبكم فهو المصيب وغيره المخطئ ، فحبسه صاحب

الشرطة وضربه اماماً متتالية، فجاء الضارب إلى ابن هبيرة قال له : ان الرجل ميت ، فقال ابن هبيرة قل تخرجنا من اعيننا فسأله فقال: لو سألوني ان اعدله ابواب المسجد ما فعلت،

ثم اجتمع الضارب ابن هبيرة فقال : الاناصح لهذا المحبوس ان يستأجلني فاوجله ، فاخبر أبو حنيفة بذلك فقال : دعوني استشير اخواني وانظر في ذلك ، فامر ابن هبيرة بتخلية سبيله ، فركب دابته وهرب إلى مكة،

وكان هذا سنة مائة وثلاثين ، وأقام بمكة حتى صارت الخلافة العباسية ، فقدم أبو حنيفة الكوفة في زمن أبي جعفر المنصور الخ ، " لقد ضرب رحمه الله في هذه المحنة مائة سوط على عشرة أيام، في كل يوم عشرة اسواط في راسه ووجهه وسائر جسمه ، وهو في كل ذلك صابر لا يشكو، حتى إذا بدت آثار الضرب على وجهه ، حزن لذلك حزناً شديداً خشية ان تراه أمه ، فتغتم لذلك ،

ولقد رأت أمه ذلك عافيه فعلاً فحزنت عليه وقالت له: أن علما أوردك مثل هذا الحري أن تتركه فقال لها لو اردت به الدنيا لوصلت اليها ولكن اردت أن يعلم الله اني صنت العلم و لم أعرض نفسي فيه للهلكة ، (مناقب الوفق ج٢ ص١٢) .

وروى الصيمري بسنده إلى يحيى بن اكثم بن داؤد قال : أراد ابن هبيرة انه يولي الإمام قضاء الكوفة فأبى: فحلف ابن هبيرة انه ان لم يقبل ليضربنه بالسياط على رأسه ويحبسه ، فحلف الإمام انه لا يلي منه، فقيل له أنه حلف على أن يضربك فقال ضربه لي في الدنيا اخف من معالجة مقامع الحديد في الآخرة، والله لا افعل وان قتلني ، (أبو حنيفة لأبي زهرة ص٣٣) .

المحنة الرابعة : كان الإمام رحمه الله تعالى لا يسكت عن قول الحق حيث يمكنه ذلك، في درس أو محضر جماعة فكان لا يعجبه ، مثلا ما فعله أبو جعفر المنصور مع محمد بن عبد الله النفس الزكية ، الذي خرج على أبي جعفر بالمدينة المنورة ، ومع أخيه إبراهيم الذي خرج عليه بالعراق سنة ١٤٥ ، فقضى على حركتهما بعنف وشدة ، روى الخطيب بسنده إلى زفر رح قال : كان أبو حنيفة يجهر بالكلام ايام إبراهيم جهاراً شديداً ، وكان رحمه الله تعالى ينتقد قضاء قضاة الكوفة إذا خالفت ، ويصرح بخطئها في اوقات صدورها ولمن قضى فيها وقضى لهم بها،

ولقد كان ذلك يثير حفيظة القاضي عليه ، ويجعله يسيئ الظن به ، وقد يدفعه ذلك إلى القول فيه عند الامراء ، بل يروي ان ابن أبي

ليلى قاضي الكوفة شكاه فعلا ، وجاء الأمير يمنعه من الفتوى حينا ، ثم ابيحت له الفتوى بعد الخطر، فكان الإمام رحمه الله تعالى محسوداً يسيئ بعضهم الظن فيه جهلاً أو قصداً ، روى الخطيب في تاريخه بسنده : ان العباس الطوسي كان سيئ الرأي في أبي حنيفة ، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك ، وذخل أبو حنيفة على أبي جعفر وكثير الناس، فقال الطوسي : اليوم اقتل أبا حنيفة فاقبل عليه، فقال يا أبا حنيفة ؟ ان أمير المؤمنين يأمر الرجل منا بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو، ايسعه ان يضرب عنقه ؟ فقال : يا أبا العباس أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟ قال بالحق قال أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه ان هذا أراد ان يوثقني فربطته ، (تاريخ بغدا ١٣ ص٣٦٦) .

وروى ان أهل الموصل كانوا قد انتقضوا على المصور، وقد اشترط المنصور عليهم انهم إذا انتقضوا تحل دمائهم له ، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبو حنيفة ،

فقال: اليس صح أنه عليه السلام قال: المؤمنون عند شروطهم ، وأهل الموصل قد شرطوا الا يخرجوا علي عاملي ، وقد حلت لي دماءهم فقال رجل: يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم ، فان

عفوت فأنت أهل العفو وان عاقبت فهم يستحقون فقال لابي حنيفة ما تقول انت يا شيخ السنا في خلافة نبوة وبيت امان قال انهم شرطوا لك ما لا يملكونه ، وشرطت عليهم ما ليس لك ، لأن دم المسلم لا يحل لأحد الا باحد معان ثلاثة ، فان اخذهم آخذت بما لا يحل، وشرط الله احق ان توفي به ، فأمرهم المصور القيام فتفرقوا ثم دعاه ، وقال يا شيخ القول ما قلت ، انصرف إلى بلادك ولا تفت الناس بما هو شين على امامك فتبسط ايدي الخوارج، (مناقب لابن السبزازي ص١٧ ج٢) .

وفي رواية لما سأل المنصور أبا حنيفة، اجابه الإمام أبو حنيفة يا أمير المؤمنين اباحوا ملا يملكون، ارايت لو أن امرأة اباحت فرجها بغير عقد نكاح وملك يمين، أكان يجوز أن تؤطأ ؟ قال لا وكف عن أهل الموصل ، (الكامل لابن الاثير ص٢١٧ ج٥) .

وجاء في المناقب للموفق المكي: انه ارسل إليه أبو جعفر بجائزة عشرة آلاف درهم وجارية ، وكان عبد الملك بن محمد وزير أبي جعفر فيه كرم وجيد الرأي، فقال لأبي حنيفة عند ما رفضها، انشدك الله أن أمير المؤمنين يطلب عليك علة ، فان لم تقبل صدق على نفسك ما ظن بك ، فابى عليه ، فقال اما المال فقد أثبتته في الجوائز ،

اما الجارية فاقبلها انت مني اوقل عذرك ، حتى اعذرك عند أمير المؤمنين ، فقال أبو حنيفه اني ضعفت عن النساء أي كبرت فلا استحل ان اقبل جارية لا اصل اليها ولا اجتري ان ابيع جارية، خرجت من ملك امير المؤمنين "

روى الخطيب عن أبي يوسف انه قال: دعا المنصور أبا حنيفة : فقال الربيع حاجب المنصور يا أمير المؤمنين ؟ هذا أبو حنيفة يخالف جدك ، كان عبد الله بن عباس يقول: إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك اليوم أو يومين جاز الاستثناء ،

وقال أبو حنيفة . لا يجوز الا متصلاً باليمين ، فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين ان الربيع يزعم أنه ليس لك في رقاب جندك بيعة

قال وكيف ، قال يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل ايمانهم، فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تعرض لأبي حنيفة فلما خرج قال الربيع أردت ان تشيط بدمي، قال لا ولكنك اردت أن تشيط بدمي، فخلصتك وخلصت نفسك، (تاريخ بغداد ٣٦٥/١٣) .

لعل تلك الأسباب هى التي دفعت أبا جعفر المنصور ليعرض القضاء على الإمام رح ، فان قبل كان ذلك اعلانا للولاء

للدولة والتقوية لشأنها وضمانا لطاعة جماعة كريمة من العلماء لسلطان الخلافة، وإن رفض كان ذلك ذريعة إلى التخليص منه، ولم يكن لأبي جعفر سوى هذا المسلك يسلكه، لأن الإمام ليس صاحب دنيا ووظيفة، وليس أحد يتهمه في دينه وورعه، وكان الإمام أعقل من أن يخرج على الإمام ويعاديه، وإن كان لا يمنعه ذلك من أن يقول الحق في وجهه، ولو انفرد في ذلك بمقالة

قال الشيخ أبو زهرة: دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة رح، ليتولى القضاء فطلب إليه أن يرجع إليه القضاء فيما يشكل عليهم ليفتيهم فامتنع، فنزل به العذاب الضرب والحبس أو أقسم وله نده: على اختلاف الروايات [illegible] هي لاسة القصة، وا [illegible] كرهسا كما جاءت في كتب التاريخ والمناقب منقولة عن الرواة.

جاء في المناقب للموفق المكي: ان أبا حنيفة لما اشخص إلى بغداد خرج [illegible] وقال أن هذا دعاني للقضاء، فاعلمته اني لا اصلح . واني لا أعلم البينة على المدعي واليمين على [illegible] أكثر ولكنه لا يصلح للقضاء الا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك وعلى ولدك وعلى قوادك، وليست تلك النفس لي، انك لتدعوني فما ترجع

نفسي حتى افارقك ، قال : فلم لا تقبل صلتي ؟ فقلت : ما وصلني امير المؤمنين من بيت ماله بشئ فرددته ولو وصلني بذلك من ماله لقبلته ، إنما وصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق لي في بيت مالهم ، اني لست ممن يقاتل من ورائهم فاخذ ما يأخذ المقاتل ولست من ولدانهم فاخذ ما يأخذ الولدان ، ولست فقرائهم فأخذ ما يأخذ الفقراء ، قال فاقم تأتك القضاة فيما يقضون لعلهم ان يحتاجوا اليك فيه (أبو حنيفة لأبي زهرة ٤٩) .

وجاء في المناقب لابن البزازي : ان ابا جعفر حبس أبا حنيفة على أن يتولى القضاء ويصيرقاضي القضاة فابى حتى ضرب مائة وعشرة اسواط ، وأخرج من السجن على أن يلزم الباب و طلب منه أن يفتي ، وكان يرجع إليه في المسائل وكان لا يفتي فأمر ان يعاد إلى السجن فأعيد وغلظ عليه وضيق تضيقاً شديداً ، (مناقب ابن البزازي ١٩/٢)

وجاء في تاريخ بغداد : اشخص أبو جعفر أبا حنيفة فاراده على أن يوليه القضاء فابى فحلف المنصور ليفعلن فحلف أبو حنيفة رح الا يفعل فقال الحاجب : الا ترى امير المؤمنين يحلف فقال أبو حنيفة :

أمير المؤمنين على كفارة أيمانه اقدر مني ، وأبي أن يلي فامر به إلى الحبس ، (تاريخ بغداد ٢٣٧/١٣).

وجاء فيه أيضا عن الربيع بن يونس : رايت امير المؤمنين ينازل أبا حنيفة رح في أمر القضاء وهو يقول اتق الله ولا ترع امانتك الا من يخاف الله والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات أو أن الحكم لأخترت ان أغرق لك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك ،

فقال له : كذبت أنت تصلح فقال : قد حكمت على نفسك ، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب (فيه ٢٣٧/١٣) ذكرنا هذه الروايات لنضع بين يدي القاري ما تجري به الروايات المختلفة في المحنة التي أنزلها المنصور بابي حنيفة وان اختلاف المجاوبات بين أبي حنيفة والمنصور باختلاف الروايات لا تدل على تضار بها بل تدل على أن العرض قد اختلفت مجالسه وتعددت وتباينت الأقوال فيه فهو مرة يعرض عليه القضاء ،

ثم الإفتاء ، ويناقشه الحساب في أمر رفض العلماء وفي مجلس آخر يشدد عليه في عرض القضاء ، وأبو حنيفة يتشدد في الرفض

مختاراً أن يغرق في الفرات عن أن يلي القضاء لو خير بين الامرين ومرة ثالثة يحلف عليه المنصور ان يلي ، فيحلف أبو حنيفة رح الا يلي وتنتهي الإيمان بينهما إلى الحبس بعد أن يثير الربيع بن يونس الحاجب أبا جعفر المنصور بما يغمزه من قول ،

وقد ذكرنا ما كان بين أبي حنيفة وبينه من عداوة ، أو بالاحرى ما كان يكنه لأبي حنيفة رح من بغض واتفق الرواة على انه حبس وانه لم يحبس للافتاء والتدريس بعد ذلك وانه مات بعد هذه المحنة أو معها ،

ولكن اختلفت الرواية مات محبوسا بعد الضرب أم مات محبوساً بالسم أم اطلق من حبسه قبل موته ، فمات في مترله ومنع من التدريس والإفتاء والاتصال بالناس لقد ذكرت الروايات الثلاث في كتب المناقب وغيرها .

فروى أنه استمر بعد الضرب في الحبس حتى مات . وروى الموفق بسنده إلى داؤد بن راشد الواسطي أنه قال كنت شاهداً حين عذب الإمام ليلى القضاء كان يخرج كل يوم ، فيضرب عشرة أسواط حتى ضرب عشرة ومائة سوط كان يقال له : اقبل القضاء فيقول : لا اصلح ،

فلما تتابع عليه الضرب ، قال : خفيفاً اللهم ابعد عني شرهم بقدرتك ، فلما ابى دسوا عليه بالسم فقتلوه .

وجاء في المناقب لابن البزازي : انه بعد أن حبس وضيق عليه مدة حكم المنصور بعض خواصه فاخرج من السجن ومنع الفتوى والحلوس للناس ، والخروج من المترل ، فكانت تلك حالته إلى أن توفي (٢/١٥) .

يقول الشيخ أبو زهرة "نحن نميل إلى هذه الرواية الأخيرة لأسباب عديدة يعلل بها رأيه والرواة متفقون على أنه أوصى بأن يدفن في جانب من المقبرة لم يجر فيه غصب دون الجانب الآخر لأنه غصب ، وروى الموفق أنه جاء في كتاب المتفجعين بالسند إلى أبي حيان الزيادي قال بلغني أن أبا حنيفة رحمه الله لما أحسن بالموت سجد فخرجت نفسه وهو ساجد (٢ ص١٨٥) .

وروى أنه اوصى أن يدفن بارض الخيزران لأن ارض بغداد غصب يمكن أن يقال ان هذه الخيزران كانت في جانب المقيرة التي اوصى الإمام ان يدفن فيها وتوفي الإمام مثل وفات الصديقين والشهداء في النصف من شوال سنة ١٥٠هـ وقيل سنة١٥٣هـ والصحيح الأول

وغسل الحسن بن عمارة أبا حنيفة ، فلما فرغ من غسله مدح الإمام وذكر بعض خصاله وتكلم بكلمات ابكى الجميع يقول رحمك الله وغفر لك لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولا تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة ، وقد اتعبت من بعدك ، وفضحت القراء ، وحضر جنازته جمع غفير قدر خمسين ألف رجل ، وصلى عليه ست مرات آخرها صلاة ولده حماد ، ومكث الناس يصلون على قبره أكثر من عشرين يوماً ،

وجاء المنصور فصلى على قبره ولا ندري أكان ذلك إقرارا منه بعظمة العلم والدين وجلالة التقى أم لا رضاء العامة ولما بلغ المنصور ان الإمام أوصى بان يدفن في ارض طيبة لم يجر عليها غصب ، والا يدفن في أرض قد اتهم الامير بأنه غصبها ، قال : من يعذرني من أبي حنيفة حياً وميتاً . (المناقب للموفق ٢ ص ١٨٠) .

قد علمت مما سبق ان الإمام ولد في خلافة عبد الملك بن مروان الأموي وعاش في ذلك العصر الأموي اثنين وخمسين سنة ، وهي السن التي تربي فيها ، وبلغ أشده ثم بلغ أوجه العلمي ، ونضجه الفكري الكامل ، وادرك عهد العباسيين ثمانية عشر سنة ، فهو قد أدرك دولتين من دول الإسلام أدرك الدولة الأموية في قوتها وعنفوانها ، ثم في

تحدرها ، وانهيارها ، وادرك الدولة العباسية وهي وعاية سرية تجوس خلال الديار الفارسية ، وهي حركة تغالب الأمرين وتنزع الملك من أيديهم ، وتفرضه على الناس سلطاناً ، تحسبه دينيا لأن خلفاءها من اقرب أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصولهم وكان في قلب الإمام ميل إلى العلويين حين خرجوا على الامويين ، وكان لا يرى لبني أمية حقاً على أية حال ، ولا سلطاناً من الشرع والدين ، ولكنه لا يحمل السيف ، ولا يثور

ويروي انه لما خرج زيد بن علي على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ ، قال أبو حنيفة ضاحي خروجه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدره ، أنه يرى الثورة على ملك الامويين امراً جائزاً شرعاً إذا كان من إمام عادل مثل الإمام زيد بن علي ، وأنه كان يود لو حمل السيف مع المجاهدين انتهت ثورة الإمام زيد بقتله سنة ١٢٢ ، ثم قام بعده ابنه يحيى في خراسان سنة ١٢٥ ، فقتل كما قتل ابوه ، فقام عبد الله بن يحيى : يطالب بحق آبائه ، فقتل شهيداً سنة ١٣٠ ،

فرأى الإمام بعينه هذه الحوادث الفاجعة ، والجراحات السارية ، والمظالم الواهية ، ولذا أنكر القضاء حين طلبه ابن هبيرة وآل الكوفة في زمن بني امية ، فظهرت الفتن في العراق حتى صارت خطراً

وجيوش العباسيين تساوروا الامويين وهرب الإمام إلى مكة واقام فيها ١٣٠ سنة إلى أن استقام الأمر للعباسيين واستقبل أبو حنيفة عهد العباسيين بارتياح كما تدل خطبته في حضرت أبي العباس وبيعته ولما بويع المنصور بالخلافة كان يدنيه ويعليه ويرفع قدره ويعطيه العطايا الجزيلة ولكنه كان يردها في رفق وبحيلة ثم لما اشتدت الخصومة بين أبناء على رض وبين العباسيين وكان ميل الإمام إلى علي وقتل المنصور محمداً النفس الزكية بن عبد الله بن حسن وإبراهيم أخاه وكان أبوهما ممن اتصل به أبو حنيفة اتصالاً علمياً حتى ذكر في شيوخه فانحرف عن العباسيين ولا يرى الولاء لهم صواباً وكان يظهر حقاً لا يخاف لومة لائم فانزل المنصور بالمحن ما أنزله و توفي الإمام رضي الله عنه على هذه الحقيقة كما رأيت مما سبق فابو حنيفة رح كان من أعظم أبطال الجهاد وكان جلداً قوياً لقيته الأذى من السفهاء ثم من الأمراء ثم من الخلفاء وما ضعفت نفسه وما وهنت وكذا حال أولياء الله تعالى الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكمات الله " والله يرفع درجاته في أعلى العليين آمين يا رب العالمين .

الفائدة التاسعة والثلاثون

في كشف الشبهات ودفع الايرادات

على سيدنا الإمام الأعظم رح

اعلم ان الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله تعالى من كبار الأئمة المشهود لهم بالعدالة والضبط فلا يضره قول القائلين فيه ولا تؤثر عليه شبهات المشتبهين لقد اجمع السلف من التابعين ومن بعدهم من أئمة الجرح والتعديل وأمراء المؤمنين في الحديث وكبار الناقدين على الثناء عليه في الفقه والزهد وخوف الله والصدق والحفظ والنصح لهذه الأمة

فقد أثنى عليه شيوخ البخاري وشيوخ شيوخه مثل على بن المديني ويحيى بن معين ويحيى بن سعيد القطان ومكي بن إبراهيم ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج والفضل بن دكين وسفيان الثوري ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وجعفر الصادق وعبد الله بن المبارك في خلق كثير لا يحصون ولا يحصر عددهم بسهولة ،

وقد روى الخطيب عن الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله انهما قال " ان لم تكن الفقهاء أولياء الله فليس لله ولي " وعن ابن عباس رض قال من أذى فقيهاً فقد أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أذى الله "

وثبت في الصحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله عز وجل قال من أذى لي ولياً فقد أذنته الحرب " وقال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رح اعلم يا أخي ان لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك استار منتقصيهم معلومة وان من اطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب "

وكانت سنة السلف الصالح عدم التعرض للعلماء المشهود لهم بالخير والبر والتقوى بظنون و أوهام وجهالات فان لحوم العلماء مسمومة ويخشى على صاحبها كما قيل سوء خاتمة ولعمر الله أن الإمام أبا حنيفة رح من السلف الصالح من أولياء الله تعالى فلا وجه للتعرض والايراد عليه ومع ذلك أوردت عليه شبهات اريد عن كشف حقائقها ودفع شبهاتها لئلا يقع أحد في قعر الهلاك والخسران والله يرعينا ويحفظنا عن ذلك ويرزقنا حسن الظن بآهل العلم والتقوى في هذه الأمة وهو ولي التوفيق .

منها ما يقال ان الإمام رض قليل الرواية للحديث حتى قال العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه أن أبا حنيفة لا يصح عنده الا سبعة عشر حديثاً وأيضا لم يخرج له البخاري ومسلم وباقي الستة فهذا

يدل على عدم اعتبارهم له أو كونه ليس من علماء الحديث فكشفها قال ابن حجر المكي ان الإمام أخذ عن أربعة آلاف شيخ من أئمة التابعين وغيرهم ومن ثمة ذكره الذهبي وغيره في طبقات الحفاظ من المحدثين وأخذ عنه أيضاً كثير حفاظ الحديث والفقهاء .

فكيف لا يكون من علماء الحديث قال الموفق انتخب الإمام رض الآثار من أربعين ألف حديث وروى عن يحيى بن نصر قال سمعت أبا حنيفة يقول عندي صناديق من الحديث ما أخرجت منها الا اليسير الذي ينتفع به وقال الحسن بن زياد كان أبو حنيفة يروي أربعة آلاف حديث ألفين لحماد وألفين لسائر مشايخ" وغير ذلك من الأقوال قد بينا علو كعبه في الحديث في فائدة مستقلة وذكرنا هناك ما قال أئمة الحديث في حقه .

ولا تغفل عما قال المحدث الفقيه محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي أنه اول من دول علم الفقه ورتبه ابواباً ولم يسبق أبا حنيفة أحد ولاجل اشتغاله بهذا الأمر الجليل لم يظهر حديثه في الخارج ولم يجلس لرواية الحديث مثل ما ظهر عمن دونها حتى صغار الصحابة وكذا مالك والشافعي لم يظهر عنهما مثل ما ظهر عمن تفرغ للرواية كأبي زرعة وابن معين لاشتغالهما بذلك والاستنباط والاجتهاد على كثرة

الروية بدون دراية فقه ليس فيه كبير مدح بل عقد له ابن عبد البر باباً في ذمه وقال ابن شبرمة أقل الرواية تفقه وقال الذهبي في رسالة "بيان زغل العلم " اما المحدثون فغالبهم لا يفهمون ولا همة لهم في معرفة الحديث ولا في التدوين به بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبة وانما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ وتكثير العدد من الاجزاء والرواية فاي شئ ينفع السماع على جهلة المشيخة قال الخطيب البغدادي في كتابه " الفقيه والمتفقة "

وأكثر كتبة الحديث في هذا الزمان بعيد عن حفظه خال عن معرفة فقه لا يعرفون بين معلل وصحيح ولا يميزون بين معدل من الرواة ومجروح ولا يسألون من لفظ أشكل عليهم رسمه ولا يبحثون عن معنى خفي عنهم علمه مع الهم قد اذهبوا في كتبه أعمارهم وبعدت في الرحلة لسماعه أسفارهم كل ذلك لقلة بصيرة أهل زماننا بما حمقوه (٢/٨١) .

ولهذا الوجه الخفي لم يلتفت الإمام إلى تكثير رواية الحديث بل بذل جهوده إلى فقه الحديث ومعانيه وأيضا قال الإمام رحمه الله لا ينبغي للرجل ان يحدث من الحديث الا بما حفظه يوم سمعه إلى يوم يحدث به فهو لا يرى الرواية الا لمن حفظه فاحتاط على رواية الحديث

كثيراً فالإمام أبو حنيفة شدد في شروط الرواية والتحمل ومن أجلها قلت روايته لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً فحاشاه من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه فيما بينهم والتعويل عليه ،

واما غيره من المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط فاكثر حديثهم وأيضا أن جماعة من المشايخ كانوا على الغاية القصوى من الاحتياط في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم بالطريق المتعارف لخوف أن يكونوا فيه شئ من الوهم فيدخلوا في الوعيد القول على النبي صلى الله عليه وسلم بما لم يقله ولذا شدد عمر رض كثرة الرواية في عصره قال أبو هريرة لما ولي عمر قال اقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا فيما يعمل

وقال إبراهيم ان عمر حبس ثلاثة ابن مسعود وابا الدرداء وابا مسعود الأنصاري فقال لقد أكثرتم الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو سلمة قلت لأبي هريرة أكنت تحدث في زمان عمر رض هكذا فقال لو كنت أحدث في زمان عمر رض مثل ما أحدثكم لضربني " وخطب الصديق الأكبر رض فقال أنكم تحدثون أحاديث تختلفون فيه والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدثوا " وأوصى عمر

رض قرظة بن كعب لما سيرهم إلى العراق بأن اقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقالت عائشة جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت خمس مائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيراً قالت فغمني فقلت اتتقلب عن شكوى أو لشئ بلغك فلما اصبح قال أي بني هلمي أحاديث التي عندك فجئته بها فدعا بنار فحرقها فقلت حرقتها قال خشية أن أموت وهي عندي فيكون فيها عن رجل قد ائتمنته ووثقته لم يكن كما حدثني فاكون قد نقلت ذلك فهذا لا يصح " وانت خبير بأن رواة الصديق لم تكن الا صحابة فكيف بمن بعدهم ،

وحكى الذهبي عن أبي عمرو الشيباني قال كنت اجلس إلى ابن مسعود رض حولاً لا يقول قال رسول الله فإذا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقله الرعدة فقال هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذاك وغير ذلك من الآثار التي تدل على تورع الصحابة عن كثرة الرواية

وهكذا كان حال إبراهيم وعلقمة يبينون المسائل ولا يرفعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا الاحتياط والتورع لم يكثر الرواية عن الإمام لا لعدم معرفته بالحديث كما تقوله الجهلة أو لأن

علماء الحديث قد خرجوا لمن يخشى فوات حديثة إذا تركوا روايته و لم يرووا او لم يكثروا عمن له تلامذة يروون حديثه ويتناقلونه ثم ان الإمام كان جل انصرافه لفهم الحديث ومعرفة دلالتـــه ومعرفـة ناســخه ومنسوخه ومطلقه ومقيده وعامه وخاصه لا إلى رواية الحديث فقط .

قال المحقق الزاهد الكوثري ومما يلتفت إليه النظر ان الشــيخين لم يخرجا شيئاً من حديث الإمام مع أنهما أدركا صغار أصحابه وأخذا عنهم و لم يخرجا أيضا من حديث الإمام الشافعي مع أنهما لقيا بعــض أصحابه ولا أخرج البخاري من حديث أحمد الا حديثــين أحدهمـا تعليقا والآخر بواسطة مع أنه أدركه ولازمه ولا أخــرج مسـلم في صحيحه عن البخاري شيئاً مع أنه لازمه ونسج على منواله ولا عــن أحمد الا قدر ثلاثين حديثاً ولا أخرج أحمد في مسنده عن مالك عــن نافع بطريق الشافعي وهو أصح الطريق أو من أصحها الا أربعة أحاديثاً

ولا أخرج أحمد في مسنده عن مالك عن نافع بطريق الشـــافعي وهو اصح الطريق أو من اصحها الا أربعة أحاديث وما رواه الشـافعي بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين حديثاً مع أنه جالس الشافعي وسمــع موطا مالك وعد من رواة القديم والظاهر من دينهم وأمانتهم ان ذلـك من جهة أنهم كانوا يرون أحاديث هؤلاء في ما من من الضياع لكـثرة

أصحابهم القائمين برواياتها شرقاً وغرباً وجل عناية أصحاب الدواوين باناس من الرواة ربما كانت تضيع أحاديثهم لو لاعنايتهم بها لأنه لا يستغنى من بعدهم عن دواوينهم في أحاديث هؤلاء .

ومن ظن ان ذلك كان لتحاميهم عن أحاديثهم أو لبعض ما في كتب الجرح من الكلام في هؤلاء الأئمة كقول الثوري في أبي حنيفة وقول ابن معين في الشافعي وقول الكرابيسي في أحمد وقول الذهلي في البخاري ونحوها فقد حملهم شططاً وهذا البخاري لولا إبراهيم بن معقل النسفي وحماد بن شاكر الحنفيان لكاد ينفرد الفربري عنه في جميع الصحيح سماعاً كما كاد ان ينفرد إبراهيم بن محمد بن سفيان الحنفي عن مسلم سماعاً .

وما قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه من ان أبا حنيفة لم يصح عنده الا سبعة عشر حديثاً فهفوة مكشوفة لا يجوز لأحد أن تعتربها لأن رواياته على تشدده في الصحة لم تبلغ سبعة عشر حديثاً فحسب بل أحادثه في سبعة عشر سفراً يسمى كل منها بمسند أبي حنيفة التي خرجها جماعة من الحفاظ وأهل العلم بالحديث باسانيدهم إليه ما بين مقل ومكثر حسبما بلغهم من أحاديثه وقل ما يوجد بين تلك الأسفار سفراً أصغر من سنن الشافعي رواية الطحاوي ولا من مسند الشافعي

برواية أبي العباس الأصم الذين عليهما مدار احاديث الشافعي وقد خدم أهل العلم تلك المسانيد جمعاً وتلخيصاً وتخريجاً وقراءة وسماعاً وروايةً وللحافظ محمد بن عابد السندي كتاب المواهب اللطيفة على مسند أبي حنيفة في اربع مجلدات أكثر فيه جداً من ذكر المتابعات والشواهد ورفع المرسل ووصل المنقطع وبيان مخرجي الأحاديث والكلام في مسائل الخلاف ومن ظن أن ثقاة الرواة هم رواة الستة فقط فقد ظن باطلا وقد جمع الحافظ قاسم بن قطلوبغا الثقاة من غير رجال الستة في مؤلف حافل يبلغ أربع مجلدات وهو ممن اقر له الحافظ ابن حجر وغيره بالحفظ والاتقان والله اعلم .

منها ٢ : ما قيل أن الإمام البخاري قال في تاريخه أبو حنيفة ضعيف تركوا حديثه وأيضاً قال هو مرجئ فكشفها بأن الإمام البخاري عالم محدث مجتهد فقيه له اراءات واجتهادات بثها في ابواب كتابه الصحيح وقد سبق ذكر ثناء بعض شيوخ البخاري الكبار لأبي حنيفة وهم معاصرون له مقاربون فكثير من الناس أفرطوا في ذم الإمام وتجاوزوا عن الحد في ذلك وشنعوا عليه وكثيراً من الأمور التي هو منها برئ وذلك لكثرة حساده في زمانه وبعده كما سترى وبلغ كثيرا من الناس الغلط من أحواله فكانوا معذورين في الطعن ولذا رجع عنه

من بلغ إليه الصحيح من حاله كما قال ابن عبد البركان أبو حنيفة يحسد وينسب إليه ما ليس فيه ويختلق عليه ما لا يليق به "

وقال المحدث الفقيه تاج الدين السبكي ومما ينبغي ان يتفقد عند الجرح حال العقائد واختلافها إلى الجارح والمجروح فربما خالف الجارح والمجروح في العقيدة فجرحه لذلك "

فعلى هذا يمكن لنا أن تقول بأن كلام البخاري في الإمام رحمه الله تعالى انما وقع بسبب الخلاف المذهبي وذلك لا يعد قدحاً ولا جل هذا لا يجعل الإمام موضع اتهام ومهما كان فقد تحامل البخاري رح على الإمام الأعظم وله اسباب كما تلي :

(١) لقد صحب البخاري رحمه الله تعالى بعض المتحاملين على الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى كالحميدي واسماعيل بن عرعرة وغيرهما وتاثر بأقوالهم فيه ودون في تاريخه ما سمعه من هؤلاء المجازفين وأيضا صحب نعيم بن حماد وهو بضع الحديث وحكايات مزورة في ثلب أبي حنيفة كلها كذب ولذا نحرف عن الإمام أبي حنيفة .

(٢) وكان البخاري رح يرى ان الإيمان يزيد وينقص مع العلم انه لم يصحح حديثاً في ذلك لأنه ليس فيه حديث صحيح وكان

الإمام رحمه الله تعالى يرى أن الإيمان عقيدة يمتلئ بها القلب فلا يتصور فيه زيادة لأنه لا زيادة فوق اليقين ولا نقصان لأنه إذا نقص فلا يبقى يقيناً وكان الإمام البخاري رح يقول انه لم يخرج في صحيحه لمن لا يقول بزيادة الإيمان ونقصه مع أنه كان يروي عن بعض غلاة الخوارج مثل عمر بن حطان الخارجي الذي أيد الظالم عبد الرحمن بن ملجم في قتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه معاذ الله يتقرب إلى الله بقتل علي وكذا روي البخاري عن واحد وثمانين راو من أهل الفرق المنحرفة ولكن اشترط البخاري على نفسه أن لا يخرج حديث من لا يقول بزيادة الإيمان ونقصه .

(٣) كان الإمام البخاري يرى ان الاعمال جزء الإيمان ويرى الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ان الإيمان عقد القلب على التصديق بالله تعالى والنطق بالشهادتين اما الاعمال فليست جزء من الإيمان .

(٤) كان الإمام البخاري يرى ان تارك العبادات يعذب بالنار في الآخرة ويرى الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ان من سلم له إلى الله ان شاء عذبه بها بعدله وان شاء عفا عنه فيها بفضله

كما قال تعالى " ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " ولذا يرى البخاري يقول في الإمام رحمه الله " رمي بالارجاء " فان كان قصد البخاري به الارجاء الذي هو ارجاء أمر المؤمن إلى الله تعالى يقضى فيه بما يشاء فذلك صحيح لأنه عقيدة أهل السنة وان كان يقصد به الارجاء الذي يعني به انه لا تضر معصية مع الإيمان بحال كما هو رأي المرجية فهذا مردود على قائله ايا كان فان حياة الإمام رح من عبادته لله وخوفه منه وزهده وورعه وحرصه على مرضاة الله ورسائله المدونة فيها عقيدة الإمام من الفقه الأكبر والفقه الابسط تردد هذه الدعوة على الإمام رحمه الله تعالى وترفض قبولها .

قال المحقق الزاهد الكوثري كان في زمن أبي حنيفة وبعده أناس صالحون يعتقدون ان الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ويرمون بالارجاء من يرى الإيمان العقد والكلمة مع الحق الصراح بالنظر إلى حجج الشرع قال الله تعالى ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وقال النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه.ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " أخرجه مسلم عن عمر بن

الخطاب وعليه جمهور أهل السنة (تانيب الخطيب ص٤٤) . قال الامدي أن المعتزلة كانوا في الصدر الأول يلقبون من خالفهم في القدر مرجية .

روي عن عثمان البتي انه كتب إلى الإمام رحمه الله تعالى وقال انتم مرجئة فأجابه بان المرجئة على ضربين مرجئة ملعونة وأنا منهم برئ ومرجئة مرحومة وأنا منهم وكتب فيه بأن الأنبياء كانوا كذلك الا ترى إلى قول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم .

وقال عبد الشكور السالمي في التمهيد ثم المرجئة على نوعين مرجئة مرحومة وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومرجئة ملعونة وهم الذين يقولون بأن المعصية لا تضر والعاصي لا يعاقب " قال الذهبي في ميزان الاعتدال في ترجمة مسعر بن كدام لا عبرة بقول السليماني كان من المرجئة مسعر وحماد بن أبي سليمان والنعمان وعمرو بن مرة وعبد العزيز بن أبي رواد وابو معاوية وعمر بن ذر وسرد جماعة قلت .

الذهبي : الارجاء مذهب لعدة من اجلاء العلماء ولا ينبغي التحامل على قائله وهذا الارجاء معناه تاخير أمر المؤمن المذنب إلى الله تعالى في

الآخرة ان شاء عذبه وان شاء غفر له فكلام البخاري في هذا انما هو من قبل المذهب الذي مال إليه ولا مجال للرد بمخالفة المذهب فلكل وجهة هو موليها وما قال البخاري تركوا حديثه يضاده ما قال بعده روى عنه عباد بن العوام وابن المبارك وهشيم ووكيع ومسلم بن خالد ومعاوية المقرئ ان رجلا روى عنه هؤلاء وأمثالهم لا يقال فيه تركوا حديثه ولا ينبغي ذلك كيف ؟

وقد روى عنه كثير من حفاظ الحديث فلاسباب ما بينا تحامل البخاري على الإمام أبي حنيفة رح .

(٣) منها ما قيل أن الخطيب البغدادي ذكر اقوال كثيرين الذين قدحوا في الإمام رحمه الله تعالى باسانيد إلى قائلها كشفها انظر تانيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الاكاذيب فترى تلك الاسانيد ظالمة كاذبة أو مخطئة أو جاهلة وحاسدة وحاشى ان يتكلم سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وأمثالهما من الشيوخ فضلا عن أبي يوسف ومحمد وأمثالهما من تلاميذ الإمام فيه رحمه الله تعالى فان لهم جميعاً اقوالاً معروفة محفوظة صحيحة النسبة إليهم في الثناء .

قال يوسف بن حسن بن احمد بن عبد الهادي الحنبلي في كتابه تنوير الصحيفة مناقب الإمام أبي حنيفة لا تغتر بكلام الخطيب فان

عنده العصبية الزائدة على جماعة من العلماء كابي حنيفة واحمد وبعض أصحابه وتحامل عليهم بكل وجه " وقال العلامة عبد الحي اللكهنوي في الرفع والتكميل إذا علم بالقرائن المقالية أو الحالية ان الجارح طعن على أحد بسبب تعصب منه عليه لا تقبل منه ذلك الجرح . وان علم انه ذو تعصب على جمع من الاكابر ارتفع الامان عن جرحه وعد من أصحاب القدح (ص٦٢) .

قال ابن حجر المكي في الخيرات الحسان اعلم انه لم يقصد بذلك الا جمع ما قيل في الرجل على عادة المؤرخين و لم يقصد بذلك انتقاصه ولا حط مرتبته بدليل انه قدم ذكر كلام المادحين واكثر منه ومن نقل مأثرة عقبه بذكر القادحين فيه ومما يدل على ذلك أيضا ان الاسانيد التي ذكرها للقدح لا يخلو غالبها من متكلم فيه أو مجهول لا يجوز اجماعاً ثم عرض المصنف بمثل ذلك فكيف بامام من أئمة المسلمين وبغرض صحة ما ذكر الخطيب من القدح لا يعتد به قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على الرفع والتكميل ص ٢٧٥ ان الخطيب قد افصح عن طريقته في كتابه فقال " كلما ذكرت في التاريخ رجلاً اختلف فيه اقاويل الناس في الجرح والتعديل فالتعويل على ما أخرت منه وختمت به الترجمة فالاعتذار عنه بانه قدم كلام المادحين لا يتفق

مع تصريحه بما التزمه فح يكون قول ابن حجر توجيه القول بما لا يرضى به قائله .

(٤) **منها : ما قيل** ان بعض رجال الحديث تكلم في الإمام مثل النسائي والدار قطني والعقيلي وقولهم حجة كشفها ان الرعيل الأول من علماء الرجال والذين بدؤوا الكلام في جرح الرواة وتعديلهم عاصروا الإمام وانثوا عليه كعلي بن المديني ويحي بن سعيد القطان ويحي بن معين وشعبة بن الجراح وقالوا صدوق ثقة وكثير ممن تكلم في الرجال يحتاجون إلى من يوثقهم فكيف يقبل توثيقهم اوتضعيفهم لغيرهم ثم هناك التحامل على بعض العلماء للخلاف في المذهب والعصبية والرأي والجهل والحسد فحرى ان لا يقبل ثمة الجرح بحال.

وهناك تحامل لا يقبل من صاحبه لأن الشواهد تشهد على خلاف قوله لقد قال ابن معين في الشافعي ليس بثقة وقال مسلم في البخاري انه منتحل الحديث سيئ الرواية وقال بعضهم في البخاري تركه أبو زرعة وأبو حاتم من أحل مسالة اللفظ وقال مالك في عبد الرحمن بن أبي ذئب وعبد الرحمن بن أبي ذئب في مالك وذكر العقيلي على بن المديني والبخاري وعبد الرزاق والبخاري وعبد الرزاق وعثمان بن أبي شيبة وإبراهيم بن سعيد وعفان بن مسلم الأنصاري وابان العطار وازهر

98

السمان وبهز بن اسد وثابت البناني وجرير بن عبد الحميد في الضعفاء .

قال الذهبي بعدان اورد الأسماء التي سردت لو تركت حديث علي بن المديني الخ لغلقنا الباب وانقطع الخطاب ولماتت الآثار واستولت الزنادقة ولخرج الدجالون امالك عقل يا عقيلي ؟ اندري فيمن تتكلم ؟ قال الشيخ عبد الحي اللكهنوي أن العلماء لم يقبلوا جرح هؤلاء العلماء الاجلاء خاصة مثل ابن المديني والبخاري ومالك وحملوا كلام بعضهم في بعض إلى معاصرة وجهالة وخلاف العقيدة والمذهب والحسد كما أن الإمام احمد يتكلم في الحارث المحاسبي ووجهه لأن الإمام يكره ان يتكلم في علم الكلام والحارث المحاسبي تكلم في شيء من مسائل الكلام قال أبو القاسم النصرابادي بلغني ان احمد بن حنبل هجره بهذا السبب .

وكذا تكلم الإمام احمد في الحسن بن علي الكرابيسي صاحب الإمام الشافعي لأنه كان يقول القرآن غير مخلوق ولفظى به مخلوق ولا يرى أحمد كذلك فقال فيه ما قال فلا يقبل كلام احمد فيهما لأن الخلاف خلاف رأي ،

وكذا تكلم عبد الرحمن بن أبي ذئب في الإمام مالك وقال يستتاب مالك فان تاب والاضرب عنقه لأنه قيل له ان مالكاً يقول ليس البيعان بالخيار يعني رد الحديث وتركه فقال فيه ما قال وفي الاصل البيعان بالخيار خبر آحاد قوبل بعمل أهل المدينة وعمل أهل المدينة مقدم عنده على خبر آحاد فلا يقبل هذا الجرح في مالك

وكذا لا يقبل ما قال الدار قطني في حق الإمام أبي حنيفة فانه اخرج حديث أبي حنيفة من كان له إمام فقرأة الإمام له قرأة في سننه ثم تعقبه بقوله هذا الحديث لم يسنده عن جابر بن عبد الله غير أبي حنيفة والحسن بن عمارة وهما ضعيفان وكيف يقبل هذا بعد ما قال ابن معين أبو حنيفة ثقة ما سمعت احداً ضعفه

وكذا لا يقبل ما ذكره البخاري في تاريخه قال حدثنا نعيم بن حماد قال حدثنا القزاري قال كنت عند سفيان فنعى النعمان فقال الحمد لله كان ينقص الإسلام عروة عروة ما ولد في الإسلام اشأم منه " معاذ الله كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذباً" .

حاشا لله ان يقول سفيان كذلك انما قال كذباً شيخه نعيم بن حماد فانه كان يضع الحديث في تقوية السنة وحكايات مزورة في ثلب أبي حنيفة كلها كذب كما في تهذيب التهذيب (١٠ ص٤٦٣) .

وقد علمت ثناء سفيان الثوري على الإمام وروايته عنه. فبعيد أن يقول هذا سفيان . فهذا حال الجارحين والطاعنين فكيف يقبل كلامهم ؟

(٥) منها ما قيل كيف لا يكون الإمام أبو حنيفة ضعيفاً وقد ذكر له ابن عدي ثلاث مائة حديث وقال أنها ضعيفة وكذا قال العقيلي بل عده الذهبي من الضعفاء في ميزان الاعتدال

كشفها :

(١) اما ابن عدي فيحتاج إلى من يعد له ويحسن القول فيه لأنه بعيد الفقه والنظر وطويل اللسان في الرجال قال الكوثري في فقه أهل العراق وحديثهم :" ومن معايب ابن عدي طعنه في الرجل بحديث مع ان افتاه الراوي عن الرجل دون الرجل نفسه و قد اقر بذلك الذهبي في مواضع من الميزان " ومن هذا القبيل كلامه في الإمام أبي حنيفة رح في مروياته البالغة عند ابن عدي ثلاث مائة حديث وانما تلك الأحاديث من رواية أبي جعفر النجيرمي وكل ما في تلك الأحاديث من المؤاخذات كلها بالنظر إلى هذا الراوي الذي هو من مشايخ ابن عدي وللذهبي استدراكات كثيرة على رجال ضعفهم في كامله ورد عليه

الذهبي وذكر كونهم ثقات قال الكوثري في تانيب الخطيب وكان ابن غدي على بعده عن الفقه والنظر والعلوم طيل اللسان في أبي حنيفة واصحابه ثم لما اتصل بابي جعفر الطحاوي واخذ عنه تحسنت حاله يسيراً حتى ألف مسنداً في احاديث أبي حنيفة رح .

(٢) اما العقيلي فقد علمت مما سبق فلا يعتمد على قوله .

(٣) وأما الذهبي فهو صاحب الاستقراء في الرجال فلم يذكر الإمام رحمه الله تعالى في الميزان في الضعفاء الذي هو ملخص الكامل لابن عدي مع استدراكات كثيرة عليه لقد قال الذهبي في مقدمة الميزان وكذا لا أذكر في كتابي من الأئمة المتبوعين في الفروع احداً لجلالتهم في الإسلام وعظمتهم في النفوس مثل أبي حنيفة والشافعي والبخاري وللميزان نسخ مختلفة وفي بعضها الحاقات وزيادات يقيناً وفي اصل النسخة الصحيحة ليست فيها ترجمة الإمام أبي حنيفة يقيناً انما هي دخلية على الكتاب بيد بعض الحالقين على الإمام أبي حنيفة وذلك جاءت في سطرين لا تليق بمقام الأعظم ويؤيده ما قال العراقي في شرح الفتية ان الذهبي ذكر في كتابه كل ما ذكر ابن عدي في

كامله وتبعه على ذلك الذهبي الا انه لم يذكر احداً من الصحابة والائمة المتبوعين ،

وكذا ما قال السخاوي ان الذهبي تبع ابن عدي في ايراد كل من تلكم فيه ولو كان ثقة لكنه التزم ان لا يذكر احداً من الصحابة ولا الأئمة المتبوعين" وكذا قال السيوطي في تدريب الراوي الا انه لم يذكر أحدا من الصحابة ولا الأئمة المتبوعين " فهذه العبارات من هؤلاء الثقات تنادي بأعلى النداء على أنه ليس في الميزان اثر لترجمة الإمام أبي حنيفة النعمان فهي زيادات من بعض المعاندين في بعض النسخ فلا تعتبر قطعاً .

(٥) **منها ما يقال** ان الإمام أبا حنيفة كان يقول بالرأي بل هو إمام أهل الرأي وقد ورد في ذم الرأي نصوص كثيرة . كشفها تقدم عند ذكر أصول مذهب الإمام ان الأصل الرابع عنده القياس والاجتهاد والرأي ومن المقرر ان الأخذ بالقياس والرأي هو رأي الأئمة الأربعة والمذاهب المعتبرة ولقد تقدم ان الإمام رحمه الله لا يقول بالرأي الا إذا عدم النص في القضية ،

قال ابن القيم في اعلام الموقعين : أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة ان ضعيف الحديث عنده اولى من القياس

والرأي وعلى ذلك بني مذهبه كما تقدم حديث القهقهة مع ضعفه على القياس والرأي ومنع قطع السارق باقل من عشرة دراهم والحديث فيه ضعيف وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعيف وشرط في إقامة الجمعة المصر والحديث فيه كذلك فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة على القياس والرأي قوله وقول احمد بن حنبل (١ ص٧٧ مختصراً).

وذكر ابن حزم الظاهري جميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على ان مذهب أبي حنيفة ان ضعيف الحديث اولى عنده من القياس والرأي

"وذكر الخطيب البغدادي في كتابه "الفقيه المتفقة " عن كبار الصحابة وكراههم الاجتهاد والرأي في المسائل التي نص فيها فنقل ذلك عن أبي بكر وعمر وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وذكر مسائلهم ثم ذكر بعض التابعين مثل ابراهيم النخعي وذكر مسائلهم فليس أبو حنيفة اول من قال بالرأي ولا آخر من قال ويقول به ، ليس مراده برأيه رداً لنصوص لكن اعتبارها وفهما والفهم عنها ولا يبلغه بعض الناس لفهمه القاصر .

قال ابن عبد البر والذين تكلموا فيه من أهل الحديث اكثر ما عابوا عليه الاغراق في الرأي والقياس " وقال ابن حجر في مقدمة الفتح ومن

تم لم يقبل جرح الجارحين في الإمام أبي حنيفة حيث جرحه بعضهم بكثرة القياس .

وقال أبو بكر الرازي في الفصول بعد ان سرد ما كان عليه فقهاء الصحابة والتابعين من القول بالرأي إلى ان نشأ قوم ذو جهل بالفقه وأصوله لا معرفة لهم بطريقة السلف ولا توقي للإقدام على الجهالة واتباع الأهواء البشعة التي خالفوا بها الصحابة ومن بعدهم من اختلافهم فكان أول من نفى القياس والاجتهاد في أحكام الحوادث إبراهيم النظام وطعن على الصحابة من أجل قولهم بالقياس ونسبهم إلى ما يليق بهم ثم تبعه نفر من المتكلمين البغداديين إلا انهم لم يطعنوا على السلف كطعنه ،

ثم تبعهم رجل داؤد بن علي رأس الظاهرية ولم يدر ما قال هؤلاء ولا ما قال هؤلاء أخذ طرفاً من كلام النظام وطرفاً من كلام المتكلمين ببغداد فاحتج به في نفي القياس والاجتهاد مع جهله بما تكلم الفريقان ويزعم أن العقل لا حفظ له في إدراك شيء من علوم الدين فأنزل نفسه منزلة البهيمة بل هو أضل منها (انتهى مختصراً) فظهر أن الفقه حيث كان يصحبه الرأي هم أصحاب الاجتهاد وهذا ليس بقدح فيهم يقيناً .

الفائدة الأربعون :

في تاريخ الفقه الحنفي وتدوينه

اعلم ان الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ، قسم الفقه إلى قسمين الفقه الأكبر والفقه الاصطلاحي فعرف الأول : معرفة النفس ما لها وما عليها ، معناه معرفة الإيمان بالله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأوامره ونواهيه والإيمان بالملائكة وسائر أمور الغيب كالإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره تعالى .

والفقه الاصطلاحي هو الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أدلتها التفصيلية كالعبادات من الطهارة الصلاة والأحكام من الحدود والتعازير وموارد الدولة المالية ومصارفها كالزكاة والديات و الكفارات والمعاملات بين الناس كالمتبوع والوكالات والشركات والمضاربات وصلاة المسلمين بغيرهم كالدعوة إلى الإسلام والجهاد والغنائم والصلح والعهود وصلاة المسلمين بالأموات منهم كالجنازة والوصايا والمواريث .

ومن موضوعات الفقه الأكبر تبدو لنا شدة حاجة إليه لأن الإيمان بالله تعالى وبالملائكة والرسل والأنبياء والكتب المترلة واليوم الآخر وما فيه من الحساب وما بعده من الجنة والنار وقضاء الله تعالى

وقدره هو الأساس الأول وبدونه لا يصح الإيمان وعليه يبنى جميع العبادات وما لم تكن أساس فكيف يقوم بناء .

ومن موضوعات الفقه الاصطلاحي تبدو شدة حاجة الناس إليه فان الفقه هو الفهم عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في الحياة العملية عبادية كانت أو أسرية مالية كانت أو معاملات صلاة بين المسلمين أو بينهم أو بين غيرهم أو أحكاما على الأحياء والأموات ،

وكل ذلك لا بد منها للإنسان إذا أراد ان يتقرب إلى الله تعالى بدون ذلك لا يمكن حصوله قال عطاء رحمه الله في حلق الذكر أنها مجالس العلم التي يعلم فيها الحلال والحرام والبيع والشراء وقد كان من سيرة عمر انه إذا رأى رجلا في السوق يبيع ويشترى ولا يعرف أحكام البيوع دفعه إلى المسجد ليتفقه ومن لا يعرف الحلال والحرام فهو أجدر أن يقع في الحرام لجهله حدود ما بين الحلال والحرام فان أحكامها تؤخذ من الشرع لا من الهوى والعقل ومن لا يتفقه ولا يسأل عن دقائق الفقهية أهل العلم والفقه ربما يأكل الربا وهو لا يعلم ويأكل أموال الناس بالباطل وهو لا يعلم فيتردى في نار جهنم .

فظهرت من هذه شدة حاجة الناس إلى الفقه فلما علمت هذا فلتعلم ان هذا الفقه يقوم أصول متفق عليها بين الأئمة ،

وهناك أصول يختلف في الأخذ بها بين الأئمة فالأصول المتفق عليها هي القرآن الكريم والسنة والإجماع والقياس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجع الصحابة الكرام رضي الله عنهم في جميع ما يعرض لهم من القضايا عقدية كانت أو عملية يستوي في ذلك فقيهم وعاميتهم السابق في إسلامه والمتأخر فيه ومع أنه كان هناك عدد من فقهاء الصحابة يفتون في عهده صلى الله عليه وسلم في غيبته وحضوره الا انهم جميعاً يرجعون إليه بقضاياهم وفتاواهم ليستيقنوا حكم الله تعالى فيما قضوا و أفتوا .

وقد بين الإمام شمس الدين بن شلبي : عدد المفتين من الصحابة اثنى عشر صحابياً فقال في عددهم:

وفي زمن المختار أفتى بأمره + أبو بكر الفاروق عثمان حيدر
حذيفة عمار وزيد بن ثابت + معاذ أبو الدرداء هو عويمر
أبو موسى إلى أشعر أنتمي + وختم نظامي ابن عوف معطر

وزاد عليه الشيخ محمد بن الحسن الحجوي اثنين فقال :

ومن جملة المفتيين أيضا عبادة + كفاك ابن مسعود إمام منور

فكل هؤلاء السادات استنبطوا الأحكام من أصولها أفتـــوا في العـــهد النبوي وحفظت فتاواهم وهي منقولة في كتب الحديث والسير ،

قال الشيخ الحجوي : بل كل من ولي أمرا للنبي صلى الله عليـــه وسلم بعيداً منه صار مفتياً مثل معاذ بن جبل والى اليمـــن ومثـــل أبي عبيدة بن الجراح الذي كان أمير سرية الخبط وأفتاهم بأكل الحـــوت ومثل أبي سعيد الخدري الذي افتى لنفسه وأصحابه يأخذ الجعل علـــى الرقية بالقرآن ،

ومثل أبي قتادة الذي اصطاد و هو حلال وافتى من كان محرمـــاً بالآكل من صيده وينبغي أن يعد سعد بن معاذ الذي نفذ حكمه النـــبي صلى الله عليه وسلم في بنى قريظة وأمثاله ممن توفي في الحياة النبويـــة ونقلت عنه بعض فتاوى صادرة في العهد النبوي كعثمان بن مظعـــون وجعفر ابن أبي طالب "

وأما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فقد زاد عدد المفتيين مـــن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى بلغ مائة وعشرين صحابيـــاً وصحابية على ما ذكره ابن حزم وكان باقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجعون إلى أولئك المفتيين المجتهدين فيما يترل هم مـــن

القضايا والنوازل وكان أولئك يفتون بما عندهم من آية أو حديث أو اجتهاد أو رأي ثم تفقه باولئك الصحابة الكرام رضوان الله عليهم تابعون اجلاء مثل الفقهاء السبعة وهم :

(١) سعيد بن المسيب المخزومي القرشي المدني راس علماء التابعين وحامل رواية عمر بن الخطاب وعلمه ومذهبه اصل مذهب مالك كما روي عن علي وعثمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة و أزواجه رضوان الله عليهم كان يفتي والصحابة متوافرون توفى٩٨ سنة .

(٢) عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود حفيد عتبة بن مسعود أخ عبد الله الصحابي المشهور قال العجلى كان جامعاً للعلم توفى سنة ٩٨هـ .

(٣) عروة بن الزبير بن العوام الذي تفقه على خالته عائشة رض أم المؤمنين رضي الله عنها توفي سنة ٩٤هـ .

(٤) القاسم بن محمد بن أبي بكر الذي تفقه على عمته الصديقة المبرأة عائشة رضي الله عنها وقال فيه عمر بن عبد العزيز لو كان لي من الأمر شئ لاستخلفته توفى ١٠٦هـ

(٥) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال أبو الزناد أحد الفقهاء السبعة وقال ابن خراش هو أحد أئمة المسلمين توفي سنة ٩٤هـ .

(٦) سليمان بن يسار قال فيه الحسن بن محمد : هو عندنا أفهم من سعيد بن المسيب ولم يقل افقه ولا أعلم روى عن عباس وأبى هريرة توفي سنة ١٢٠هـ .

(٧) خارجة بن زيد أدرك زمان عثمان رضي الله عنه أخذ عن والده زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن واعلم الناس بالفرائض توفي حارجة سنة ١٠٠هـ .

(٨) ومثل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أخذ عن أبيه عبد الله وغيره توفي سنة ١٠٦هـ .

(٩) وإبراهيم النخعي الكوفي كان يدخل مع خاله الأسود بن يزيد على عائشة رضي الله عنها توفي ٩٦ .

(١٠) وعكرمة المغربي البربري مولى ابن عباس اخذ العلم والتفسير خاصة عن ابين عباس رضي الله عنه قال له ابن عباس انطلق فافت الناس توفي سنة ١٠٥هـ .

(١١) وعطاء بن أبي رباح الجغدي اليماني اخذ عن ابن عباس وغيره وقال ابن عباس يا أهل مكة تجتمعون عليّ وفيكم عطاء توفي ١١٤هـ .

(١٢) والحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري مولى زيد بن ثابت رضي اللهِ عنه أدرك سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف وروى عن مائة وعشرين من الصحابة قال فيه ابن القيم : جمع بعض العلماء فتاواه في سبعة أسفار ضخمة وكانوا يرون ان ما ظهر عليه من غزارة العلم كان ببركة رضاعه من ثدي أم سلمة أم المؤمنين توفي سنة ١١٠هـ .

وعلى كثرة المفتيين من الصحابة كما ذكرنا قبل فقد اجتمع علم الصحابة رضوان الله عليهم في ستة منهم ثم انتهى إلى اثنين قال مسروق بن الاجدع التابعي الكبير رحمه الله : وجدت علم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ينتهي إلى ستة إلى علي وعبد الله بن مسعود وعمر وزيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي ثم وجدت علم هؤلاء الستة

ينتهي إلى علي وعبد الله بن مسعود رض وهذا عبد الله بن مسعود وهو سادس من اسلم فهو سدس المسلمين ضمه إليه النبي صلى الله عليه وسلم فكان يلبس النبي صلى الله عليه وسلم نعليه ويمشي معه وامامه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام وقال عليه السلام اذنك على أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادي يعين اسراري حتى أنهاك .

هاجر هجرتين وشاهد المشاهد كلها وقال النبي صلى الله عليه وسلم رضيت لا متى ما رضى لها ابن أم عبد وسخطت لها ما سخط لها ابن أم عبد .

وقال فيه حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان عبد الله بن مسعود كان من أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة وحلفت بالله ما اعلم أحدا أشبه دلاً وهدياً برسول الله صلى الله عليه وسلم من حين يخرج من بيته إلى ان يرجع من ابن مسعود وسئل عنه على رضي الله عنه فقال: " قد قرأ القرآن وعلم السنة وكفى بذلك .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة حين ارسله إليهم " اني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما واسمعوا من قولهما وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي لقد انتقل رضي الله عنه اذن إلى الكوفة يعلم الناس ويفقههم في دين الله تعالى من سنة بناء عمر الكوفة عام سنة ١٧ من الهجرة كان وقد انتقل اليها ألف وخمس مائة صحابي منهم سبعون بدرياً إلى أواخر عهد عثمان رضي الله عنه حتى تفقه عليه وعلى أصحابه نحو أربعة آلاف رجل وكان معه هناك أمثال سعد بن أبي وقاص وحذيفة بن اليمان وعمار بن يسار وأبي موسى رضي الله عنهم بل أن علياً رضي الله عنه لما انتقل إلى الكوفة أيام خلافته سر من كثرة فقهائها (مقدمة نصب الراية للكوثري) .

(٧٨) لقد انتشر العلم والدين من أربعة أعلام من الصحابة أكثر من غيرهم ابن مسعود في أصحابه وهم أهل العراق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر واصحابهما بالمدينة المنورة وابن عباس و أصحابه، وهم أهل مكة المكرمة ، ولقد تفقه بابن مسعود رضي الله عنه أربعة آلاف رجل ، ونذكر هاهنا بعض من اشتهر منهم .

(١) عبيدة بن قيس السلمان كان شريح إذا اشتبه عليه الأمر في قضية برسل إلى السلمان يستشيره ، كما في المحدث الفاصل

للرامهرمزي وشريح ذلك المعروف بكمال اليقظة في الفقه واحكام القضاء توفى سنة ٧٢ .

(٢) زر بن حبيش مخضرم كان يؤم الناس في التراويح وهو ابن مائة وعشرين سنة وهو راوية قراءة ابن مسعود رض ومنه اخذ عاصم وقد رواها ابو بكر بن غياش وفيها الفاتحة والمعوذتان توفي سنة ٨٢ .

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عرض القرآن على علي رضي الله عنه وهو عمدته في القراءة وقد فرع نفسه لتعليم القرآن لأهل الكوفة بمسجدها أربعين سنة كما خرجه أبو نعيم بسنده ومنه تلقى السبطان الشهيدان القراءة بأمر أبيهما وعاصم تلقى قراءة علي رض عنه وهي القراءة التي يرويها حفص عن عاصم وقراءة عاصم بالطريقتين في اقصى درجات التواتر في جميع الطبقات توفي سنة ٧٤هـ .

(٤) علقمة بن قيس النخعي قال فيه ابن مسعود رض : لا أعلم شيئاً الا وعلقمة يعلمه وفي المحدث الفاصل بسنده عن قابوس قال قلت لأبي كيف تأتي علقمة وتدع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال يا بني لأن أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم يستفتونه كان علقمة خال إمام أهل العراق بعد وهو إبراهيم بن يزيد النخعي توفي سنة ٦٢هـ .

(٥) شريح بن الحارث الكندي معمر مخضرم ولي قضاء الكوفة في عهد عمر واستمر على القضاء اثنين وستين سنة إلى أيام الحجاج حيث توفي ، قال له على رض يوماً : قم يا شريح فأنت اقضي العرب توفي سنة ٨٠هـ .

قال ابن القيم في اعلام الموقعين ١/ص٢٠ ، قال ابن جرير : لم يكن (في الصحابة) أحد له أصحاب معروفون حرروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود ، وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر وكان لا يكاد يخالفه في شيئ من مذاهبه ويرجع من قوله " .

قال المحقق الكوثري بعد سرد هذه الأسماء واسماء آخرين ، واكثر هؤلاء لقوا عمر وعائشة أيضا واخذوا عنهما ، وهؤلاء كانوا يفتون بالكوفة بمحضر الصحابة وتلي هؤلاء طبقة لم يدركوا علياً رض ولا ابن مسعود ولكنهم تفقهوا على أصحابهما وجمعوا علم الأمصار إلى علومهم وأشهرهم إبراهيم بن يزيد النخعي الذي جمع شتات علوم هاتين الطبقتين بعد ان تفقه على علقمة قال أبو نعيم : أدرك إبراهيم أبا سعيد الخدري وعائشة ومن بعدهما من الصحابة رضي الله عنهم

وكان عامر بن شراحيل الشعبي الذي قال فيه ابن عمر لما رآه يحدث بالمغازي" لهو احفظ لها مني وان كنت شهدتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل إبراهيم النخعي على علماء الأمصار كلها حيث يقول عندنا توفي سنة ٩٥ دفنتم أفقه أهل الأرض فقال رجل ومن الحسن البصري قال افقه من الحسن ومن أهل البصرة ومن أهل الكوفة ومن أهل الشام واهل الحجاز كما أخرجه أبو نعيم بسنده إليه وأئمة الجرح والتعديل يعدون مراسيل النخعي صحاحاً بل يفضلون مراسيله على مسانيد نفسه كما نص على ذلك ابن عبد البر في التمهيد ،

وقال فيه الأعمش : ما عرضت على إبراهيم حديثاً الا وجدت عنده منه شيئاً وقال كان إبراهيم صرفي الحديث فكنت إذا سمعت الحديث من بعض أصحابنا عرضته عليه وقال إسماعيل بن أبي خالد : كان الشعبي وأبو الضحى وإبراهيم واصحابنا يجتمعون في المسجد فيذكرون الحديث فان جاءهم فتيا ليس عندهم منها شيئ رموا بابصارهم إلى النجعى .

قال الشعبي في إبراهيم انه نشأ في بيت افقه فاخذ فقههم (فان خاله علقمة والاسود بن يزيد أبي علقمة) ثم جالسنا فاخذ صفوة حديثنا إلى فقه أهل بيته فإذا نعيته اليوم انعى العلم ما خلف بعده مثله.

وقال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه بسنده إلى الحسن بن عبد الله النخعي قال قلت لإبراهيم كل ما سمعتك تفتي به سمعته ؟ فقال لا قلت تفتي بما لم تسمع ؟ قال : سمعت الذي سمعت وجاءني ما لم اسمع فقسته بالذي سمعته " وقال ابن العماد في ترجمته : فقيه العراق بالاتفاق توفي سنة ٩٦ (شزرات الذهب ١ص١١) .

وقال الاعمش عن إبراهيم : انه كان لا يعدل بقول عمر وعبد الله بن مسعود إذا اجتمعا ، فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب إليه ، لأنه كان الطف ، وبمثل هذا الإمام الجليل تفقه حماد بن أبي سليمان الذي رشحه إبراهيم نفسه ، فقد سئل من نسأل بعدك فقال حماداً " (مقدمة نصب الراية للكوثري) .

هذا حماد بن مسلم أبي سليمان بن يزيد تفقه على إبراهيم النخعي ولازمه واستفاد منه فائدة عظيمة ، ولذا رشحه إبراهيم للفتيا بعده ، أخرج ابن حيان في طبقات محدثي اصبهان : انه وجه إبراهيم حماداً يوماً يشتري له لحماً بدرهم في زنبيل فلقيه ابوه راكباً دابة وبيد حماد زنبيل فزجره ورمى به من يده فلما مات إبراهيم جاء أصحاب الحديث الخراسنية يدفون على باب أبي سليمان مسلم بن يزيد فخرج إليهم في الليل بالشمع ، فقالوا لسنا نريدك نريد حماداً فدخل إليه فقال

: قم إلى هؤلاء فقد علمت ان الزنبيل ادى بك إلى هؤلاء ، كان رحمه الله تعالى عفيف النفس يحفظ وجهه ويبذل ماله .

لما قدم أبو الزناد الكوفة والياً على الصدقات كلم رجل حماد بن أبي سليمان أن يكلم أبا الزناد في رجل يستعين به في بعض أعماله فقال له حماد : كم يؤمل صاحبك من أبي الزناد ؟ قال : ألف درهم ، قال فقد أمرت لك بخمسة آلاف درهم ، ولا ابذل وجهي ، فقال له الرجل جزاك الله خيراً .

وكان جواداً كريماً يكافئ ويحسن قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيئ بلغني : انه كان راكباً فانقطع زره ، فمر على خياط فأراد أن يترل إليه ليسوي زره فقال : والله لا نزلت ، فقام الخياط إليه وسوى زره فادخل حماد يده في جيبه واخرج صرة فيه دنانير فناولها الخياط ثم اعتذر إليه من قلتها وحلف انه لا يملك غيرها ، (حيات الإمام أبي حنيفة للعفيفي ص ٢٧) .

ولي أمر التدريس حين طلب ذلك منه أصحابه بعد وفاة شيخهم إبراهيم ، وأخرج ابن عدي في الكامل بسنده إلى عبد الملك بن أياس الشيباني انه قال قلت لإبراهيم من نسأل بعدك قال حماداً .

وروى العقيلي بسنده إلى إسماعيل بن إبراهيم قال : حدثنا محمد بن سليمان الاصبهاني قال لما مات إبراهيم اجتمع خمسة من أهل الكوفة فيهم عمرو بن قيس فجمعوا أربعين ألف درهم وجاءوا إلى الحكم بن عتبة فقالوا أنا قد جمعنا أربعين ألف درهم نأتيك بها وتكون رئيسنا فابى عليهم الحكم فاتوا حماد بن إلى سليمان فقال فأجابهم ، جاء في المغني حماد بن أبي سليمان هو أبو إسماعيل كوفي يعد تابعياً سمع انساً والنخعي ، وكان أعلمهم برأي النخعي ، روى عنه المنصور والحكم وشعبة والثوري مات سنة ١٢٠هـ ،

قال ابن معين : حماد ثقة وقال أبو حاتم صدوق وقال العجلي كوفي ثقة كان أفقه أصحاب ابراهم " وفي "الكاشف للذهبي" وكان ثقة اماماً مجتهداً كريماً جواداً واستشهد به البخاري تعليقاً في صحيحه فقال قال حماد عن إبراهيم ان كان عليهم ازار فسلم والا فلا تسلم ،

روى عنه الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله الفي حديث من أحاديث الأحكام واكثر من ثلث أحاديث الإمام في مسنده الذي جمعه الحصكفي هي رواية الإمام عنه عن إبراهيم بن أبي موسى الاشعري عن الاسود عن عائشة رضي الله عنها ،

وعلى هذا الإمام العظيم تفقه امامنا الأعظم أبو حنيفة رح وافرد به ثمانية عشر عاماً بعد عن أخذ عن سبعة من الصحابة وثلاثة وتسعين من التابعين ، وكثير من أتباعهم حتى بلغوا أربعة آلاف رجل "روى العلامة أبو القاسم اليمني بسنده إلى مسعر بن كدام قال : من جعل أبا حنيفة بينه وبين الله تعالى رجوت ان لا يخاف ، وروى القاضي الصيمري باسناده قال قال لي المغيرة بن مغنم الضبي : جالس أبا حنفة فلو كان إبراهيم النخعي حياً كان محتاجاً إلى مجالسته اياه هو والله يحسن ان يتكلم في الحلال والحرام ،

"وأيضا روى الصيمري باسناده إلى حماد بن سلمة قال " كان مفتي الكوفة والمنظور إليه بعد موت النخعي حماد بن أبي سليمان فكان الناس به اغنياء ، فلما مات احتاجوا إلى من يجلس لهم ، وخاف أصحابه ان يموت ذكره ويندرس علمه بموته وكان لحماد بن حسن المعرفة فاجمعوا عليه أصحاب أبيه أبو بكر النشلي وأبو بردة العبيسي ومحمد بن جابر الحنفي وغيرهم فاختلفوا إليه وكان الغالب عليه النحو والكلام العربي فلم يصبر لهم على القعود فاجتمع رايهم على أبي بكر التهسلي وسألوه فأبى وسالوا أبا بردة فأبى فقالوا لأبي حنيفة فقال لا أحب ان يموت العلم فساعدهم وجلس لهم فاختلفوا إليه ،

ثم اختلف بعدهم أبو يوسف وأسد بن عمرو والقاسم بن معن وزفر بن الهذيل والوليد ورجال من الكوفة وكان أبو حنيفة يفقههم في الدين وكان شديداً البر بهم والتعاهد وكان ابن أبي ليلى وابن شبرمة وشريك يخالطونه ويطلبون تشنيعه فلم يزل كذلك حتى استحكم امره واحتاج إليه الناس واجتمع إليه الأمراء وذكره الخلفاء ، وأخرج الخطيب في تاريخه بسنده قال دخل أبوحنيفة يوماً على المنصور وعنده عيسى بن موسى فقال للمنصور هذا عالم الدنيا اليوم فقال يا نعمان عمن أخذت العلم فقال عن أصحاب عمر عن عمر وعن أصحاب علي عن علي وعن أصحاب عبد الله بن مسعود عن عبد الله رضي الله عنهم وما كان في وقت عبد الله بن عباس على وجه الأرض اعلم منه قال المنصور قد استوثقت لنفسك (تاريخ بغداد ١٤/ص٣٣٦)

وابتكر الإمام رحمه الله تعالى نموذجا منهجياً في تقرير مسائل الاجتهاد واستنباط الأحكام وذلك عن طريق عرض المسألة على تلامذته العلماء في حلقة الدرس ليدلى كل بدلوه ويذكر ما يروى لرأيه من حجة ثم يعقب هو على آرائهم بما يدفعها بالنقل والعقل ويصوب صواب أهل الصواب ويسدده ويؤيده بما عنده من ادلة ولربما تقضت أيام حتى يتم تقرير تلك المسألة وانها لعمر الله دراسه منهجية حرة

شريفة يظهر فيه احترام الاراء ويشتغل فيها عقل الحاضرين من التلامذة كما يظهر علو الإسناد وفضله فإذا تقررت مسالة من مسائل الفقه على تلك الطريقة كان العسير نقدها فضلاً عن نقضها وذكر أبو محمد الحارثي عن عن أبي سليمان الجوزجاني قال : كان أبو حنيفة سهل الله له هذا الشان يعني الفقه وبين له وكان يتكلم أصحابه في مسألة من المسائل ويكثر كلامهم وترتفع اصواقم ويأخذون في كل فن وأبو حنيفة ساكت فإذا اخذ أبو حنيفة في شرح ما هم فيه سكتوا كان ليس أحد في المجلس وفيهم من أهل الفقه والمعرفة وكان أبو حنيفة يتكلم يوماً وهم سكوت فلما فرغ من كلامه قال واحد منهم سبحان الله من انصت الجميع قال سلميان كان أبو حنيفة عجباً من العجب وانما رغب عن كلامه من لم يقو عليه (كتاب التعليم).

قال الموفق المكي وضع الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى مذهبه شورى بينهم و لم يستبد فيه بنفسه دونهم اجتهاداً منه في الدين ومبالغة في النصيحة لله ولرسوله والمؤمنين فكان يلقي مسألة مسألة يقلبها ويسمع ما عندهم ويقول ما عنده ويناظرهم شهراً أو أكثر من ذلك حتى يستقر أحد الأقوال فيها ثم يثبتها القاضي أبو يوسف في الأصول حتى اثبت الأصول كلها وإذا اشكلت عليه مسألة قال لأصحابه ما

هذا الا لذنب احدثته وكان ستغفر وربما قام وصلى فتنكشف له المسألة ويقول رجوت أنه تيب علي فبلغ ذلك الفضيل بن عياض فبكى بكاء شديداً ثم قال ذلك لقلة ذنبه اما غيره فلا يتنبه لهذا (مناقب الموفق المكي ٢/ص ١٣٣) .

وأيضا فيه اخرج ابن أبي العوام بسنده إلى أبي يوسف قال كان أبو حنيفة إذا اوردت عليه المسألة قال ما عندكم فيها من الأثار فإذا روينا الأثار وذكرنا وذكر هو ما عنده نظر فان كانت الآثار في أحد القولين أكثر اخذ بالاكثر فإذا تقاربت وتكافأت نظر فاختار (٦/ص ١٣٤) .

وذكر الخطيب في تاريخه بسنده إلى أبي كرامة قال كنا عند وكيع بن الجراح فقال رجل اخطا أبو حنيفة فقال وكيع وكيف يقدر أبو حنيفة ان يخطئ ومعه مثل أبو يوسف ومحمد الحسن وزفر في قياسهم واجتهادهم ومثل يحيى بن أبي زائدة وحفص بن غياث وحبلن وقندل ابني على في حفظهم للحديث ومعرفتهم ومثل القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود في معرفته بالنحو واللغة وداؤد الطائي والفضيل من عياض في زهدهما وورعهما عبد الله بن المبارك في معرفة التفسير والأحاديث والتواريخ فمن كان أصحابه وجلسائه هؤلاء كيف يخطي وهو بينهم وكل منهم يثنى عليه لأنه ان اخطأ ردوه

إلى الصواب . ثم قال فمن زعم ان الحق مع من خالف أبا حنيفة رحمه الله تعالى حيث وضع المذهب وحده أقول له ما الفرزدق لجرير.

أولئك أبائي فجئني بمثلهم + إذا جمعتنا يا جرير المجامع

(قلائد عقود العقيان ص ١٥)

وذكر الشيخ عبد القادر القرشي في كتابه الجواهر المضية في ترجمة يحيى بن زكريا بن أبي زايدة قال الطحاوي كتب ابن أبي ثور يحدثني عن سليمان بن عمران حدثني أسد بن الفرات قال كان أصحاب أبي حنيفة الذين دونوا الكتب أربعين رجلاً ،

وكان في العشرة المتقدمين أبو يوسف وزفر وداود الطائي و اسد بن عمرو ويوسف بن خالد السمتي ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة وكان هو الذي يكتبها لهم ثلاث سنين " وذكر الشيخ احمد المكي الخوارزمي ان الذين رووا عن الإمام من كبار العلماء سبعمائة وثلاثون رجلاً كلهم من مشايخ المسلمين رووا عنه وحدثوه عنه في الآفاق "

وقال الموفق المكي كان لأبي حنيفة رحمه الله تعالى تلامذة كثيرة منهم من كان يرحل إليه ويستمع امدا ثم يعود إلى بلده بعد ان يأخذ طريقة ومنهاجه ومنهم من لازمه وقد قال الإمام هؤلاء ستة

وثلاثون رجلا منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء وستة يصلحون للفتوى واثنان يعني أبا يوسف وزفر يصلحان لتأديب القضاة و أرباب الفتوى (المناقب للموفق المكي ٣/ ص١٣١) .

وأيضا روى الموفق بسنده إلى علي بن هاشم قال كان أبو حنيفة كنز العلم ما كان يصعب من المسائل على اعلم الناس فهو كان سهلاً على أبي حنيفة (١/ص ٢٨) .

وأيضا فيه قال زفر كان كبراء المحدثين مثل زكريا بن ابي زائدة وعبد الملك بن أبي سليمان والليث بن أبي سليم ومطرف بن طريف وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم يختلفون إلى أبي حنيفة ويسألونه عما ينوبهم من المسائل ويشتبه عليهم من الحديث (١/ص١٥٢) .

وأيضا روى بسنده إلى محمد بن الحسن قال سمعت أبا يوسف يقول كنا نتكلم اباحنيفة في باب من ابواب العلم فإذا قال يقول واتفق عليه أصحابه أو قال اتفقنا عليه درت على مشايخ الكوفة هل أجد في تقوية قوله حديثاً أو أثراً فربما وجدت الحديثين أو الثلاثة فاتيه بها فمنها ما يقبله ومنها ما يرده فيقول هذا ليس بصحيح أو ليس بمعروف وهو

موافق ل فأقول وما علمك بهذا فيقول انا عالم بعلم أهل الكوفة (١٥٢/١) .

قال الفقيه المحدث محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي وأبو حنيفة اول من ألف في أصول الدين أصول الفقه والفرائض ودون الكتب ورتب قال الإمام الشافعي رحمه الله : ما رأيت أحدا افقه من أبي حنيفة ، قال ابن المبارك ليس أحد أحق ان يقتدي به من أبي حنيفة كان اماماً تقيا نقياً ورعاً عالماً فقيها به كشف العلم كشفا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقي (مناقب البزازي ١/ ٩٠) .

ولم يعرف لأبي حنيفة كتاب في الفقه مرتباً أبوابه فقد كان المعروف أن تلاميذه يدونون أراءه ويقيدونها وكان بأملائه أحيانا وتأليف الكتاب لم يشفع ولم ينتشر الا بعد وفات أبي حنيفة أوفى أخر حياته وقد كان المجتهدون في عصر الصحابة يمتنعون عن ان يدونوا فتاويهم أو اجتهادهم بل امتنعوا عن تدوين السنة نفسها ،

ثم اضطر العلماء إلى تدوين السنة وتدوين الفقه والفتاوى فكلن فقهاء المدينة يجمعون فتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من التابعين في المدينة وينظرون فيها ويبنون عليها ،

وكان العراقيون يجمعون فتاوى عبد الله بن مسعود وقضايا على وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة وقد رووا ان إبراهيم النخعي جمع الفتاوى والمبادي في مجموعة وان حماداً شيخ أبي حنيفة كانت له مجموعة ولكن لم تكن هذه المجموعات كتباً منشورة بل كانت اشبه بالمذاكرات الخاصة يرجع إليها المجتهد ولا يعينها كتاباً للناس وانما يكتبها خشية النسيان ثم صارت نواة التأليف و التدوين بعد ذلك فألف مالك موطأه ودون أبو يوسف كتاب الخرج وغيره من كتب الفقه العراقي ثم جاء محمد فأوفى على الغاية ودون الفقه العراقي كاملاً أو قريباً من الكمال ،

وجاء في المناقب للمكي مانصه " أبو حنيفة أول من دون علم هذه الشريعة لم يطبقه أحد من قبله لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا في علم الشريعة ابواباً مبوبة ولا كتباً مرتبة وانما كانوا يعتمدون على قوى فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديق علمهم ونشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشراً فخاف عليه الخلف السوء ان يضيعوه فلذلك دونه أبو حنيفة فجعله ابواباً مبوبة وكتباً مرتبة (١٣١/٢) .

والظاهر من هذا القول انه يقصد بالتدوين ما كان يصنعه تلاميذه وكان ذلك بإرشاد منه رحمه الله تعالى كما علمت مما سبق

طريقه دراسة أبي حنيفة و أصحابه للمسائل بان مذهبه كان شورى بينهم مم يستبصر فيه بنفسه دوهم وإذا استقر أحد الأقوال يثبتها أبو يوسف في الأصول وبهذا النحو من التحرير دون مذهب أبي حنيفة و أصحابه وجاء أصحابه فنشروه كتباً مبوبة مرتبة منظمة .

وقال الشيخ الحجوي كان الفقه في الزمن النبوي هو التصريح بحكم ما وقع بالفعل اما من بعده من الصحابة وكبار التابعين وصغارهم فكانوا يبينون حكم ما نزل بالفعل في زمنهم ويحفظون أحكام ما كان نزل في الزمن قبلهم ، فدون الفقه وزادت فروعه نوعاً ، اما أبو حنيفة فهو الذي تجرد لفرض المسائل وتقدير وقوعها وفرض أحكامها اما بالقياس على ما وقع واما باندراجها في العموم فزاد الفقه نموا وعظمة (الفكر السامي ٢/١٧٠) .

ونحن نرى ان أبا حنيفة لم يحدث الفقه التقديري اعني الفتوى في مسائل لم تقع ويفرض وقوعها ولكنه نماه ووسعه وزاد فيه بما كثر من التفريع والقياس وهذا الفقه التقديري يوجد قبل أبي حنيفة أيضا ولو كان إبراهيم النخعي قلد نحاماه والفقه التقديري كان شائعاً في الكوفة في عهد حماد كثيراً فلا بد أن أبا حنيفة لم يحدثه ولكن قد وجده فنماه و زاد فيه واكثر من التفريع في المسائل .

فلا بد أن تكون قائمة على أصول وان تكون مؤسسة على قواعد الاستنباط و لم يسعفنا التاريخ ببيان هذه القواعد مفصلة بسند متصل إلى أبي حنيفة نفسه ولقد وجدنا في كتب المتأخرين أصولا مفصلة قرروا أنها أصول الاستنباط في المذهب الحنفي وذكروا الاختلافات بين أئمة ذلك المذهب في هذه الأصول كما قال الإمام الشاه ولي الله الدهلوي "في الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف واعلم اني وجدت اكثر يزعمون ان بناء الاختلاف بين أبي حنيفة والشافعي على هذه الأصول المذكورة في كتاب البزدوي ونحوه وانما الحق ان اكثرها أصول مخرجة على قولهم " .

فالأصول التي يذكرها الحنفية على انها أصول المذهب الحنفي أو الاصول التي بنى عليها أئمة استنباطهم ليست من وضع أئمته بل هي من وضع العلماء في ذلك المذهب الذين جاءوا بعد عصر الأئمة وتلاميذهم الذين اتجهوا إلى استنباط القواعد التي يضبط بها استنباط فروع المذهب فهي جاءت متأخرة ومستندة لبعض الفقهاء كالبزدوي والكرخي وغيرهما فتكون الأصول قسمين :

٩٦

قسم ينسبونه إلى الأئمة على انه القواعد التي لاحظوها عند الاستنباط وهذا يذكرون فيه الفروع الدالة على صحة القاعدة والقسم الثاني أراء الفقهاء المذهب الحنفي كرأي عيسى بن ابان في رواية الواحد الضابط غير الفقه إذا كانت مخالفة للقياس والكتاب أصول فخر الإسلام البزدوي أوفى الكتب في القسم الأول . وقد بيننا على ضوء هذا التحقيق أصول المذهب الحنفي وما صدره في مقام آخر فلتمعن النظر يفيدك ان شاء الله .

مهما يكن الأمر فانا سنأخذ فقه الإمام عن تلامذه و أصحابه وليس لنا طريق غير ذلك ولقد كان للإمام تلاميذ كثيرون :

منهم : من كان يرحل إليه ويستمع امداً ثم يعود إلى بلده بعد ان يأخذ طريقة ومنهاجه .

ومنهم : من لازمه وقد قال في أصحابه الذين لازموه اكثر من مرة هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً .

ومنهم :ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء وستة يصلحون للفتوى واثنان أبو يوسف وزفر يصلحان لتأديب القضاة وأرباب الفتوى (المناقب لابن البزازي ١/ص ١٢٥) .

ولذلك يختار بالبيان المؤجز بعض أصحابه الذين لهم تدوين سواء كانت طالت ملازمتهم أم لم تطل ما دام لهم أثر في نقل مذهبه إلى الاجيال اللاحقة . أولهم الإمام أبو يوسف رح وهو يعقوب ابن ابرايهم بن حبيب الأنصاري نسباً والكوفي منشأ وتعلماً ومقاماً فهو عربي ولد ١١٣ هـ وتوفي ١٨٢هـ ،

قال ابن جرير الطبري كان أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً " ولقد ولى القضاء لثلاثة من الخلفاء للبمهدي ثم الهادي ثم الرشيد ويقول ابن عبد البر كان الرشيد يكرمه ويجله و كان عنده حظياً مكيناً (الانتفاء ص ١٧٢) .

وقد استفاد الفقه الحنفي من أبي يوسف فوائد جليلة أو ان اختياره للقضاء جعله يصقل المذهب صقلاً عملياً . وكان القاضي الأول للدولة فكان كل نفود له يشهد منه مذهبه نفوداً ولابي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وأراء شيخه وله من الكتب في الأصول والامالي ذكرها ابن نديم في الفهرست ٢٨٦ من كتاب الخراج وكتاب اختلاف الامصار وكتاب الآثار وغيرها .

وثانيهم محمد بن الحسن الشيباني يكني أبا عبد الله ولد سنة ١٣٢هـ وتوفي ١٨٩هـ

ولقد كانت سنة يوم مات أبو حنيفة نحو الثامنة عشرة فهو لم يتلق من أبي حنيفة امداً طويلاً ولكنه اتم دراسته لفقه العراق على أبي يوسف ولقد أخذ عن الثوري والأوزاعي و رحل إلى مالك ،وتلقى عنه الحديث والرواية بعد أن تلقى عن العراقين فقه الراي والدراية فتلقى فقه العراق كاملاً وفقه الحجاز فقه الشام أيضا وولي القضاء للرشيد وكان في محمد اتجاه إلى التدوين فهو الذي يعد بحق ناقل فقه العراقيين إلى الاختلاف وكانت له مكانة من كونه اماماً مجتهداً وكتب الإمام محمد تعد المرجع الأول لفقه أبي حنيفة سواء كان ذلك برواية عن أبي يوسف أو ماكان دونه من فقه أهل العراق تلقاه عن أبي يوسف وغيره وليست كتب الإمام محمد كلها في درجة واحدة من حيث الثقة بهابل قسمها العلماء إلى قسمين .

القسم الأول كتب ظاهر الرواية وهي المبسوط والزيادات والجامع الصغير والسير الصغير والسير الكبير والجامع الكبير وتسمى الأصول وسميت بظاهر الواية لأنها رويت عن محمد رواية الثقات فهي ثابتة عنه اما متواترة أو مشهورة (رسالة رسم المفتي لابن عابدين ص ١٩).

القسم الثاني التي لم تبلغ في نسبتها إلى محمد مبلغ القسم الأول وهي الكيسانيات والهارونيات والجرجانيات والرقيات وزيادة الزيادات ويقال لها غير ظاهر الرواية ويقال النوادر أيضاً فالقسم الأول هو عمار النقل في الفقه الحنفي وحيث نص على المسالة فيها فهي المذهب ولذلك عني العلماء بها من القديم فشرحوها وخرجوا مسائلها واصلوا أصولها وفروعها فقام في أوائل المائة الرابعة أبو الفضل محمد بن محمد بن احمد المروزي المشهور بالحاكم الشهيد والف كتاباً سماه الكافي وجمع فيه كتب الإمام محمد وشرحها شمس الأئمة السرخسي في كتاب سماه المبسوط وقد استفاض في بيان أصول المسائل وأدلتها وأوجه القياس فيها وهو حجة في كل ما اشتمل عليه .

ثالثهم زفر بن الهذيل وهو اقدم صحبة لأبي حنيفة من صاحبيه أبي يوسف ومحمد فقد توفي من ثمان وخمسين ١٥٨من الهجرة و لم يؤثر عنه كتب و لم تعرف له رواية لمذهب شيخه لأنه توفي بعد وفات شيخه ثماني سنوات وبينما الصاحبان عاش كل منها بعده اكثر من ثلاثين عاماً فتوافر لهم زمن الكتابة ،

ومن فقهاء المذهب الحنفي الذين يعدون من رواة اراء أبي حنيفة الحسن بن زياد اللؤلوي الكوفي المتوفى سنة ٢٠٤ ويقولون أنه تلميذ

لأبي حنيفة وكان من أصحابه وقد أخذ عنه محمد بن سماعة ومحمد بن شجاع الثلجي وعلى الرازي وعمربن مهير والد الخصاف ولقد اثنى على فقهه كثيرون .

قال يحيى بن آدم ما رأيت أفقه من الحسن بن زياد وقد تولي القضاء الكوفة سنة ١٩٤ ثم استعفى .

قال الطحاوي له من الكتب كتاب المجرد لأبي حنيفة روايته وكتاب أدب القاضي وغيرهما.

فهؤلاء من أصحاب أبي حنيفة تلقوا عنه الفقه وامتازوا برواية الفقه الحنفي وتدوينه حتى أوصلوا إلى الاختلاف ثم أصحاب أصحاب الإمام الذين تلقوا عنهم الفقه نحو عيسى بن آبان قد تلمذ على الإمام محمد وتفقه عليه وقد تولي قضاء البصرة وله من الكتب كتاب الحج وكتاب خبر الواحد وكتاب الجامع وغيرها توفي في ٢٢٠هـ .

ومنهم: محمد بن سماعة قد كان تلميذا للإمام محمد بن الحسن بن زياد وروى كتب النوادر عن أبي يوسف ومحمد وقد تولى القضاء للمأمون سنة ١٩٢ وتوفي سنة ٢٣٣ وله من الكتب كتاب ادب القاضي وكتاب المحاضر والسجلات والنوادر .

ومنهم: هلال بن يحيى البصري تتلمذ على يوسف بن خالد السمتي وعلى أبي يوسف، وزفر رح توفي سنة ٢٤٥هـ .

ومنهم: أحمد بن عمير بن مهير الخصاف أخذ الفقه عن أبيه وكان فقيها عارفاً بمذهب أبي حنيفة رح قال شمس الأئمة الحلواني الخصاف رجل كبير في العلوم وهم ممن يصح الاقتداء به وله الأوقاف وأيضا له كتب كثيرة توفي سنة ٢٦١هـ .

ومنهم: أحمد بن محمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي ابتداء حياته بتلقي الفقه الشافعي على خاله إسماعيل بن يحيى المزني ثم تحنف وتلقى فقه العراقيين عن أبي حازم عبد الحميد قاضي قضاة الشام وكان هذا تلميذ العيسى بن آبان وان الإمام الطحاوي جمع دراسة الفقه الشافعي والفقه العراقي وقد أعطاه حرية فقد اكثر من غيره وانمى أخيراً إلى الحنفية وكان يعد فقيهاً مجتهداً قال الإمام الدهلوي أن مختصر الطحاوي يدل على انه كان مجتهداً ولم يكن مقلداً للمذهب الحنفي تقليداً محضاً فانه اختار اشياء تخالف مذهب أبي حنيفة رح لما لاح له

من الادلة القويمة توفي سنة ٢٣١ وله كتب كثيرة مثل كتاب معـــاني الآثار مشكل الآثار شرح الجامع الصغير .

هذه الكتب هي التي كتبها أصحاب أبي حنيفة أو أصحـــابهم أو تلاميذهم بعدهم تعتبر ينابيع الفقه الحنفي وقد جاء بعدهم المتـــأخرون من الفقهاء فشرحوها وفرعوها أفتوا على مقتضاها واستنبطوا الادلة ثم اختصروا تلك الكتب في متون مختصرة جامعة وشرح تلـــك المتـــون علماء بشروح مستفيضة أو غير مستفيضة وهكذا فالكتب التي رويـــت في الفقه الحنفي ليست في درجة واحدة من حيث قوة الرواية بـــل مراتب ثلاث :

أولاها : الأصول وتسمى ظاهر الرواية كما قلنا .

والثانية . النوادر وهي مروية عن أصحاب المذهب في غـير الكتـــب الستة المذكورة.

والثالثة : الفتاوى والواقعات وهي مسائل التي اســـتنبطها المجتـــهدون المتأخرون مثل أصحاب أبي يوسف ومحمد وأصحاب من بعدهم وهذه

مسائل الواقعات والفتاوى انزل مرتبة من الأصول والنوادر لأن الأصول أقوال أصحاب المذهب وهذه المسائل والفتاوى تخريجات على أقوالهم ، وقد يكون فيه مخالفة للمروي منهم ، وتقبل على أنها اجتهاد من أصحابها لا أنها أقوال الإمام أبي حنيفة وأصحابه فهي تؤخذ على انها آراءهم ومن مجموع هذه الأقسام الثلاثة يكون المذهب الحنفي واليك هذا الكلام الموجز وعليك بالمطولات . والله اعلم .

الفائدة الحادية والأربعون

في فقه الإمام وأصول مذهبه

اعلم ان الإسلام قرآن وسنة واتفاق أئمة المسلمين ومجتهديهم من الصحابة ومن بعدهم على حكم شرعي أو فهم وقياس اوتيه رجل عالم بالدين وبصير بأصوله ووسائله . قد كان الإمام أبو حنيفة رح حافظاً لكتاب الله تعالى كما كان حافظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحافظاً لاقوال الصحابة وفتواهم وما اجتمعوا عليه وما اختلفوا فيه رزقهم الله تعالى شيوخاهم جبال العلم والفقه .

جاء في كتاب الانتقاء أن أبا حنيفة رضي الله عنه قال " آخذ بكتاب الله فان لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان لم أجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول الصحابة أخذ بقول من شئت منهم وأدع قول من شئت منهم ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم فإذا انتهى الأمر أو جاء إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم وعدد رجالاً فقوم اجتهدوا فاجتهد كما اجتهدوا ،

وجاء في المناقب للموفق المكي بسنده إلى سهل بن مزاحم قال " كلام أبي حنيفة اخذ يالثقة وفرار من القبح والنظر في معاملات

الناس وما استقاموا عليه وصلح عليه أمورهم بمضي الأمور على القياس فإذا قبح القياس امضاها على الاستحسان مادام يمضي له فإذا لم يمض له رجع إلى ما يتعامل المسلمون به وكان يوصل الحديث المعروف الذي قد اجمع عليه ثم يقيس عليه ما دام القياس سائغاً ثم يرجع إلى الاستحسان ايهما كان أوفق رجع إليه . قال سهل هذا علم أبي حنيفة رحمه الله تعالى علم العامة (ص٨٩).

وأيضا فيه بسنده إلى الحسن بن صالح قال " كان أبو حنيفة شديد الفحص عن الناسخ في الحديث والمنسوخ فيعمل بالحديث إذا ثبت عنده عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وكان عارفاً بحديث أهل الكوفة وفقه أهل الكوفة شديد الاتباع لما كان عليه الناس ببلده " وقال كان يقول " أن لكتاب الله ناسخاً ومنسوخاً وأن للحديث ناسخاً ومنسوخاً " وكان حافظاً لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخير الذي قبض عليه مما وصل إلى بلده " (١ ص٩٠) .

ونقل ابن عبد البر بسنده إلى محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال العلم على أربعة أوجه ما كان في كتاب الله الناطق وما اشبهه وما كان في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المأثورة وما اشبهها وما كان فيما اجمع عليه الصحابة وما أشبهه وكذلك ما اختلفوا فيه لا

يخرج على جميعهم فان وقع الاختيار فيه على قول فهو علم نفيس عليه ما اشبهه وما استحسنه فقهاء المسلمين وما اشبهه وكان نظيراً لـه ولا يخرج العلم عن هذه الوجوه الأربعة (٢ ص ٣٦)

فهذه النقول تدل على مجموع المصادر الفقهية عند الإمام رحمه الله فهي القرآن العظيم والسنة الشريفة وما اجمع عليه الصحابة وما اختلفوا فيه لا يخرج عن أقوالهم والقياس والاستحسان والعرف أي اتباع ما عليه الناس ببلده وبقي بهم الفقهاء وأهل العلم .

واما شرحه فالقرآن العظيم هو كتاب الله تعالى المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة ملك الوحي جبرئيل المنقول الينا نقلاً متواتراً والمجموع بين دفتي المصحف والذي اعجز البشر عن الاتيان باقصر سورة من مثله ولا يزال يعجزهم ولن يزال بـاذن الله تعالى .

فهذا القرآن عند الإمام رحمه الله هو المصدر الأول والاعلى في مسائل الفقه لأنه الكتاب القطعي الثبوت ولا يصل إلى رتبته في الثبوت الا الحديث المتواتر ولذلك لا يرى نسخ القرآن بخبر الاحاد من السنة وانما يعمل بهما ما أمكن والا ترك السنة الظنية للكتاب القطعي مثاله قال الله تعالى " فاقرؤوا ما تيسر من القرآن " وقال عليه السلام لا

صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " متفق عليه فيحكم بان اصل قراءة القرآن في الصلاة ركن وأما قراءة الفاتحة فهي واجبة وبذلك عمل بالقرآن والسنة جميعاً وبناءً على هذا الأصل عنده لا يجعل الطمانينة فرضاً في الركوع وغيره لأن الركوع فرض بنص الآية "اركعوا" وأما الطمانينة فثابتة بخبر آحاد وهو حديث المسيئ صلواته فجعل الطمانينة واجبة .

والمصدر الثاني هي السنة الشريفة وهي ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية او خلقية .

و الإمام لا يجعل السنة كلها في رتبة واحدة بل يقدم مثله السنة القولية على الفعلية والسنة المتواتر على أخبار الآحاد عند التعارض وعدم امكان الجمع بينهما مثاله فقد ثبت بالتواتر أداءه صلى الله عليه وسلم كل صلاة في وقتها الا صلاتي العصر والمغرب في عرفة ومزدلفة فجمع بين الظهر والعصر في عرفة وقت الظهر وجمع بين المغرب والعشاء بمزلفة في وقت العشاء فهو أمر متواتر .

وأيضاً ثبت جمعه صلى الله عليه وسلم بين بعض الصلوات في السفر وهو خبر آحاد فيرى الإمام رحمه الله ان الجمع في عرفة ومزدلفة

جمع حقيقي وكان من نسك الحج والجمع في السفر انما هـو جمـع صوري رخصة عند العذر عملا بالحديثين بل يترك العمل بخبر الآحـاد إذا خالف قاعدة شرعية مأخوذة من نص القرآن أو السنة كما تـرك العمل بحديث الخراج بالضمان " .

والمصدر الثالث الإجماع وهو ما اجمع عليه أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم وما اختلفوا فيه لا يخرج عن أقوالهم إلى أقوال غيرهم فان الصحابة هم أولئك الأخيار الذين صحبوه صلى الله عليـه وسلم وأخذوا العلم والفهم عنه ولقد أكرمهم الله تعالى برتبة لامتثـال بفقه وعبادة فهذا هو إجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين " فهذا مقدم أولاً ثم الإجماع الذي هو اتفاق الأئمة المجتهدين في عصر مـن العصور على حكم شرعي وهو إجماع الفقهاء في بلدة خاصة وكـل من هذا الإجماع حجة معمول به وتركه مشاقة الله ولرسوله وسـبيل المورخين كما قال تعالى " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبـين لـه الهدى ويتبع غير سبيل الموقين نوله ما تولى ونصله جـهنم وسـاءت مصيراً " .

وقال عليه السلام أن امتي لن تجمع على ضلالة فـإذا رأيتـم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم " رواه ابن ماجة وغيره وهو صحيح .

والمصدر الرابع القياس وهو الحاق فرع باصل فيه نص بحكم معين من الوجوب أو الحرمة لوجود علة الحكم في الفرع كما هي في الأصل ويسمى هذا اجتهاداً أيضا . ولقد علمنا رسول لله صلى الله عليه وسلم عن طريق المقايسة مثاله روى أنه قال لعمر حين سأله عن القبلة في حالة الصوم ورأيت لو تمضمضت بماء ثم مجحته اكان يضرك " هذا تعليم بالمقايسة فان بالقبلة يفتتح طريق اقتضاء الشهوة ولا يحصل بعينه اقتضاء الشهوة كما أن بادخال الماء في الفم يفتتح طريق الشرب ولا يحصل به الشرب " كما في أصول السرخسي ٢ ص ١٣٠ .

وأيضاً قال عليه السلام لمعاذ حين وجهه إلى اليمن قاضياً: بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله قال : فان لم تجد في كتاب الله قال : بسنة رسول الله قال : فان لم تجد في سنة رسول الله قال : اجتهد برأئي قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لا يرضى به رسوله (رواه أبو داؤد وغيره) .

والامام رحمه الله يقدم السنة ولو كان حديثاً مرسلاً على القياس ولذا قال بنقض الوضوء من الدم السائل من البدن وبانتقاض وضوء المصلى وفساد صلواته إذا ضحك قهقهة في صلواته والحديثان مرسلان وأيضاً يقدم الحديث الضعيف على القياس روى الإمام الشعراني بسنده

إلى الإمام الأعظم رحمه الله تعالى انه قال كذب والله وافترى علينا من يقول : اننا تقدم القياس على النص وهل يحتاج بعد النص إلى قياس (الميزان١ ص ٥١) .

وقال أيضا : نحن لا نقيس الا عند الضرورة الشديدة وذلك اننا ننظم في دليل المسألة من الكتاب والسنة وأقضية الصحابة فان لم نجد دليلاً قسنا مسكوتاً على منطوق" (أصول السرخسي ٢ ص ١٤٩) .

وأيضا يروي أن أبا جعفر المنصور كتب إليه : بلغني انك تقدم القياس على الحديث فرد عليه أبو حنيفة برسالة جاء فيها " ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين انما اعمل أولا بكتاب الله ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم باقضية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ثم باقضية بقية الصحابة ثم اقيس بعد ذلك إذا اختلفوا " (أصول السرخسي ٢ ص١٥٠).

وقد ذكر الإمام السرخسي المتوفى سنة ٤٩٠هـ أن شروط العمل بالقياس في مذهب الإمام رحمه الله عليه خمسة :

أحدها : أن لا يكون حكم الأصل مخصوصاً به بنص آخر

والثاني : أن لا يكون معدولاً به عن القياس .

الثالث : ان لا يكون التعليل للحكم الشرعي الثابت بالنص بعينه حتى يتعدى به إلى فرع هو نظيره ولا نص فيه .

الرابع : أن يبقى الحكم في المنصوص بعد التعليل على ما قبله .

والخامس : أن لا يكون التعليل متضمناً أبطال شئ من ألفاظ المنصوص (أصول السرخسي ٢ ص١٥٠) .

والمصدر الخامس : الاستحسان وهو لغة وجود الشئ حسناً وفي لسان الفقهاء نوعان :

(أ) العمل بالاجتهاد وغالب الرأي في تقدير ما جعله الشرع موكولاً إلى آرائنا مثاله قوله تعالى "متاعاً المعروف حقاً على المحسنين " أوجب المتعة بحسب اليسار والعسرة وشرط أن يكون بالمعروف فعرفنا أن المراد ما يعرف استحسانه بغالب الرأي.

(ب) والنوع الآخر هو الدليل الذي يكون معارضاً للقياس الظاهر الذي تسبق إليه الاوهام قبل امعان النامل فيه وبعد أمعان التامل في حكم الحادثة واشباهها من الأصول يظهر أن الذي عارضه فوقه في القوة فان العمل به هو الواجب فسموه بذلك استحساناً للتمييز بين هذا النوع من الدليل وبين الظاهر الذي تسبق إليه الاوهام (أصول السرخسي٢ ص ٢٠).

ضرب الإمام رحمه الله تعالى مثالاً فقال إذا قال لامرأته إذا حضت فأنت طالق فقالت قد حضت فكذبها الزوج فإنها لا تصدق في القياس باعتبار الظاهر وهو ان الحيض شرط للطلاق كدخولها الدار وكلامها زيداً وفي الاستحسان تطلق لأن الحيض شئ في باطنها لا يقف عليه غيرها . فلا بد من قبول قولها بمنزلة المحبة والبغض . لقد بان اذن ان الاستحسان عند الإمام رحمه الله ليس اتباعاً للهوى ولا حكم بالأغراض لكن ذلك اختيار أقوى الدليلين في حادثة معينة (أصول السرخسي٢ ص ٢٠٢) .

المصدر السادس : هو العرف والعادة وهو ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول والأصل في اعتبار العرف دليلاً شرعياً قول ابن مسعود ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن (رواه أحمد وغيره) وانما يكون العرف دليلاً لا دليل شرعي من كتاب وسنة واما إذا خالف العرف الكتاب والسنة كتعارف بعض التجار التعامل بالربا واختلاط النساء مع الاقارب غير المحارم فهو عرف مردود لأنه محاد للشرعية ومخالف لها ،

وقد ذكر الفقيه محمد أمين الشهير بابن عابدين الشامي طائفة من المسائل القائمة على العرف في رسالته العرف والتي تغير فيها الحكم

لاختلاف الازمان مما يدخل تحت قاعدة " لا ينكر اختلاف الأحكام باختلاف الازمان " أي اختلاف الأحكام القائمة على العرف اما الأحكام القائمة على النصوص فهي قضية على الأزمان والأمكنة .

لقد ورث أبو حنيفة رحمه الله علم عمر و علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم أخذه عنهم علومهم بواسطة شيوخه البالغين أربعة آلاف رجل وبواسطة فقهاء الكوفة خاصة وكان شيخه حماد الذي اختص به ثماني عشرة عاماً دون انقطاع يلازمه ليلاً ونهاراً

وكان رحمه الله أول من رتب مسائل الفقه ودونها في سجلات يقوم بذلك الإمام أبو يوسف في غالب الاحيان وغيره حيناً حتى بلغت مسائله المعروفة خمس مائة ألف مسألة ولقد انتشر هذا الاسلوب الفقه الجديد في ترتيبه وعرضه بين العامة والخاصة في الكوفة وسائر العراق وأخذ به كبار المحدثين وكبار الفقهاء ،

قال المحدث محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي " أبو حنيفة أول من ألف في أصول الدين و أصول الفقه والفرائض ودون الكتب ورتب الابواب " كان الإمام رحمه الله فقيهاً مجتهداً حافظاً لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة وأقوالهم وأقوال التابعين لهم بإحسان ولم يكن مجرد راوية للحديث ووعاء له

ولذا اصل قواعد خاصة و أصولا معينة وتبعه عليها كثيرون في قبول النصوص وترتيبها عند تعارضها وتقديم بعضها على بعض عند التعارض وغير ذلك مما كتب عنه بعد علماء أصول الفقه و لم يكن في ذلك مبتدعاً معاذ الله اذ هو من التابعين ولا صاحب هوى وغرض انما كان سنده أقوال الصحابة وفتاواهم وأقوال التابعين وفتاواهم أقوال أهل اللغة :

(١) هذا علي رض يقدم القياس على خبر الواحد في المسألة التالية سئل ابن مسعود عن امرأة مات زوجها و لم يفرض لها صداقاً فقال لم ار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي في ذلك فاختلفوا إليه شهراً وفكر فاجتهد برأيه وقضى بأ لها مهر نسائها لاوكس ولا شططاً وعليها العدة ولها الميراث فقدم معقل بن يسار فشهد بأنه صلى الله عليه وسلم قضى بمثل ذلك ففرح ابن مسعود فرحة لم يفرح كذلك قط ،

وكان علي رض يخالفه في الصداق ويقول لا صداق ولا نقبل قول اعرابي أشجع على كتاب الله قال تعالى " لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة " الآية . نزلت في الطلاق فقاس عليه الموت فقدم القياس على خبر الواحد (الفكر

السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ محمد بن الحسن الحجـــوي٢ ص٤٢) .

(٢) وهذا عمر بن الخطاب يرد حديثاً بظاهر آية لقد شـــهدت فاطمة بنت قيس عند عمر انها كانت مطلقة الثلاث فلم يجعـــل لهـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى فرد عمر شهادتما وقال لا نترك كتاب الله وعني قوله تعالى لا تخرجوهن من بيوتمن لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت لها النفقة والسكنى (الفكر الســـامي ٢ ص٤٢) .

هكذا يفعل بعض فقهاء الصحابة في بعض الاحيان يرد اخبـــار الآحاد على ضوء نصوص القرآن أو على أصول ممهدة عنـــده الـــتي فهمها من النصوص وهؤلاء أصحاب رسول الله يختلفون في التمســـك بظواهر النصوص أو المعنى المقصود من التشـــريع الحكيـــم مثالـــه إذا هلكت هالكة عن زوج وابوين فقال ابن عباس للزوج نصف التركـــة وللام ثلثها وللاب ما بقي تمسكاً بظاهر قوله تعالى " فان لم يكن لـــه ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث وقال زيد وبقية اعلام الصحابة لها ثلـــث ما بقي عن الزوج نظراً للمعنى لأنها هي والاب ذكر وأنثى ورثا بجهـــة

واحدة للذكر مثل حظ الانثيين كالاولاد (الفكر السامي ٢ ص١٣٦)

قال العلامة الزاهد الكوثري ومن ظن بابي حنيفة انه قليل الحديث أو كثير الأخذ بالاحاديث الضعيفة جهل ذلك كله وجهل شروط قبول الاخبار عند الأئمة ووزن علوم أئمة الاجتهاد بميزانه الخاص الذي ربما يكون مختل العيار وللامام أصول ناضجة في باب استنباط الأحكام ربما يرميه بكل ما تقدم من جهل ذلك

(١) ومن تلك الأصول قبول المرسلات من الثقات إذا لم يعارضها ما هو أقوى منها والاحتجاج بالمرسل كان سنة متوارثة جرت عليه الأمة في القرون الفاصلة حتى قال ابن جرير رد المرسل مطلقاً بدعة حدث في رأس المائتين كما ذكره الباجي في أصوله وابن عبد البر في التمهيد وابن رجب في شرح علل الترمذي وغيرهم .

(٢) ومن أصول الإمام رحمه الله عرض اخبار الآحاد على الأصول المجتمعة عنده بعد استقرائه مواد الشرع فإذا خالف خبر الآحاد تلك الأصول يأخذ بالاصل عملاً بأقوى الدليلين ويعد الخبر المخالف له شاذا ولذلك نماذج كثيرة في شرح معاني الآثار للطحاوي

وليس في ذلك مخالفة لخبر بدت علة فيه للمجتهد وصحة الخبر فرع خلوه من العلل القادحة عند المجتهد .

(٢) ومن أصوله أيضا عرض أخبار الآحاد على عمومات الكتاب وظواهره فان خالف عاماً أو ظاهراً في الكتاب أخذ بالكتاب وترك الخبر عملاً بأقوى الدليلين أيضا لأن الكتاب قطعي الثبوت وظواهره وعموماته قطعية الدلالة عنده لأدلة ناهضة مشروحة في مفصلات كتب الأصول كفصول أبي بكر الرازي وشامل الاتقاني ،

واما إذا لم يخالف خبراً عاماً أو ظاهراً في الكتاب بل كان بياناً لمجمل فيه فيأخذ به حيث لا دلالة فيه بدون بيان ولا يدخل هذا في باب الزيادة على الكتاب بخبر الآحاد وأن توهم ذلك بعض من تعود التشغيب .

(٤) ومن اصوله أيضا في الاختلاف بخبر الآحاد ان لا يخالف السنة المشهورة سواء كانت سنة فعلية أو قولية عملاً باقوى الدليلين أيضا .

ومن أصوله أيضا في الأخذ بذلك ان لا يعارض خبراً مثله وعند التعارض يرجح أحد الخبرين على الآخر بوجوه ترجيح تختلف أنظار المجتهدين فيه كما بينت في موضع آخر.

(٥) ومن أصوله أيضا ان لا يعمل الراوي بخلاف خبره كحديث أبي هريرة في غسل الاناء من ولوغ الكلب سبعاً فانه مخالف لفتيا أبي هريرة فترك الإمام العمل به لتلك العلة .

(٦) ومن أصوله أيضا رد الزائد متناً كان أو سنداً إلى الناقص احتياطاً في دين الله كما ذكره ابن رجب .

(٧) ومن اصوله أيضا عدم الأخذ بخبر الآحاد فيما تعم به البلوى فلا يكون طريق ثبوت ذلك غير الشهرة والتواتر ويدخل في ذلك الحدود والكفارات التي تدرأ بالشبهة .

(٨) ومن أصوله أيضا ان لا يترك أحد المختلفين في الحكم من الصحابة الاحتجاج بالخبر الذي رواه احدهم .

(٩) ومن أصوله أيضا في خبر الآحاد ان لا يسبق طعن من السلف عليه.

(١٠) ومن أصوله الأخذ بأخف ما ورد في الحدود والعقوبات عند اختلاف الروايات .

(١١) ومن أصوله استمرار حفظ الراوي لمروية من أن التحمل إلى الاداء من غير تخلل النسيان .

(١٢) ومن أصوله عدم تعويل الراوي على خطة ما لم يذكر مروية .

ومن أصوله الأخذ بالاحوط عند اختف الروايات التي في الحدود التي تدرأ بالشبهات كأخذه برواية قطع السارق بما ثمنه عشرة دراهم دون رواية ربع دينار من حيث أنه ثلاثة دراهم فتكون رواية عشر دراهم أحوط وأجدر بالثقة حيث لم يعلم المتقدم من المتأخر حتى يحكم بالنسخ لأحدهما .

(١٣) ومن أصوله أيضا الأخذ بخبر تكون الآثار أكثر في جانبه .

(١٤) ومن أصوله عدم مخالفة الخبر للعمل المتوارث بين الصحابة والتابعين في أي بلد نزله هؤلاء دون اختصاص بمصر دون مصر كما أشار إلى ذلك الليث بن سعد فيما كتب إلى مالك وله أصول اخرى من أمثال ما سبق تحمد على الإعراض عن كثير من الروايات عملاً بالاقوى (تانيب الخطيب ١٥٣) .

وقال الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشافعي مؤلف السير الشامية كتابه عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان في الفصل الثالث منه ما نصه : قال ابن عبد البر في كتاب الكنى كان مذهب الإمام أبي

حنيفة في أخبار الآحاد أن لا يقبل منها ما خالف الأصول المجمع عليها فانكر عليه أصحاب الحديث وافرطوا ،

" وقال في الانتقاء كان يذهب أبو حنيفة إلى عرض اخبار الآحاد على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن فما شذ عن ذلك رده وسماه شاذاً وقال في كتاب العلم " ليس أحد من علماء الأمة يثبت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرده دون ادعاء نسخ ذلك باثر مثله أو باجماع أو بعمل متوارث يجب على اصله الانقياد إليه أو طعن في سنده ولو فعل ذلك أحد لسقطت عدالته فضلاً عن أن يتخذ إماما ولزمه اسم الفسق ولقد عافاهم الله تعالى من ذلك ، والله أعلم .

الفائدة الثانية والأربعون

في أسماء شركاء تدوين فقه الحنفي

الذين اشتركوا مع الإمام أبي حنيفة في تدوين الفقه وكانوا أصحابه وشركاءه فهم كثيرون ولكن اختص بهذا الأمر الجليل أربعون منهم فاستحسنا ان نذكر أسماء هؤلاء الأصحاب كي تشير كيف كان فقه الحنفية في بدء أمره وهم حسب ما يلي :

١) الإمام زفر بن الهذيل بن قيس بن سليم المولود سنة ١١٠هـ والمتوفى سنة ١٥٨هـ .

٢) الإمام مالك بن مغول البجلى المتوفى سنة ١٥٩هـ اخرج عنه الشيخان .

٣) الإمام داؤد بن نصير الطائي الكوفي سنة ١٦٠هـ .

٤) الإمام مندل بن علي سنة ١٦٨ أخرج عنه أبو داؤد وابن ماجة

٥) الإمام نصر بن عبد الكريم سنة ١٦٩ .

٦) الإمام عمرو بن ميمون البلخي سنة ١٧١ أخر عنه الترمذي في جامعه .

٧) الإمام حبان بن علي سنة ١٧٢ اخ الإمام مندل بن علي اخرج عنه ابن ماجة .

٨) الإمام أبو عصمة نوح بن أبي مريم سنة ١٧٣ أخرج عنه ابن ماجة .

٩) الإمام زهير بن معاوية سنة ١٧٣ اخرج عنه أصحاب السنة .

١٠) الإمام قاسم بن معين سنة ١٧٥ أخرج عنه أصحاب السنن .

١١) الإمام حماد بن الإمام الأعظم ١٧٦ .

١٢) الإمام هياج بن بسطام سنة ١٧٧ .

١٣) الإمام شريك بن عبد الله الكوفي سنة ١٧٨ اخرج عنه مسلم وأبو داؤد والنسائي وابن ماجة .

١٤) الإمام عافية بن يزيد القاضي سنة ١٨٠ اخرج عنه النسائي .

١٥) الإمام عبد الله بن المبارك امير المؤمنين في الحديث ١٨١ أخر عنه أصحاب الستة .

١٦) الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الحافظ الحجة في الحديث سنة ١٨٣ .

١٧) الإمام أبو محمد نوح بن دراج النخعي الكوفي سنة ١٨٢أخرج عنه ابن ماجة .

١٨) الإمام هشيم بن بشير السلمي الواسطي سنة ١٨٣ .

١٩) الاما يحيى بن زكريا بن أبي زائدة الهمداني الكوفي سنة ١٨٣ .

٢٠) الإمام فضيل بن عياض العالم الرباني سنة ١٨٧ أخرج عنه أصحاب الصحاح الستة .

٢١) الإمام اسد بن عمرو بن عامر البجلى الكوفي سنة ١٨٨ أخرج عنه ابن ماجة .

٢٢) الإمام محمد بن الحسن الشيباني المجتهد الجليل المولود سنة ١٣٢ والمتوفى سنة ١٨٩ هـ

٢٣) الإمام علي بن مسهر القريشي الكوفي ١٨٩أخرج عنه أصحاب الستة .

٢٤) الإمام يوسف بن خالد السمتي سنة ١٨٩ .

٢٥) عبد الله بن ادريس الكوفي سنة ١٩٢ من رواة الصحاح الستة .

٢٦) الإمام فضل بن موسى السيناني سنة ١٩٢ .

٢٧) الإمام على بين ظبيان سنة ١٩٢من رواة ابن ماجة .

٢٨) الإمام حفص بن غياث سنة ١٩٤ من رواة الصحاح الستة .

٢٩) الإمام وكيع بن الجراح سنة ١٩٧ من رواة الصحاح الستة .

٣٠) الإمام هشام بن يوسف سنة ١٩٧ من رواة البخاري والسنن الأربعة .

٣١) يحيى بن سعيد القطان البصري سنة ١٩٨ من رواة الصحاح الستة .

٣٢) الإمام شعيب بن إسحاق الدمشقي سنة ١٩٨ من رواة البخاري ومسلم وأبي داؤد والنسائي وابن ماجة.

٣٣) الإمام أبو عمرو حفص بن عبد الرحمن البلخي سنة ١٩٩ من رواة أبي داؤد والنسائي .

٣٤) الاما أبو المطيع حكم بن عبد الله بن سلمة سنة ١٩٩ .

٣٥) الإمام خالد بن سليمان البلخي سنة ١٩٩ .

٣٦) الإمام عبد الحميد بن عبد الرحمن الكوفي سنة ٢٠٢ من رواة الشيخين وأبي داؤد والترمذي وابن ماجة .

٣٧) الإمام حسن بن زياد اللؤلوي سنة ٢٠٤ .

٣٨) الإمام أبو عاصم النبيل ضحاك بن مخلد البصري سنة ٢١٢ . من رواة الصحاح الستة .

٣٩) الإمام مكي بن إبراهيم البلخي ٢١٥ من رواة البخاري .

٤٠) الإمام حماد بن دليل القاضي سنة من رواة أبي داؤد .

الفائدة الثالثة والأربعون

في انتشار المذهب الحنفي في العالم

كان الإمام رحمه الله تعالى مخلصاً لله تعالى في تبليغ الفقه والعلم إلى الناس في كل صفح ومكان وقد رأينا بارك الله تعـــال في عمـــره وعمله فقد قصده طلاب العلم والفقه من كل حدب وصوب فاعترفوا من علمه وملئوا كئوسهم من فقهه ثم عادوا إلى بلادهم يعلمون النـاس ويفقههم ،

فنشأ المذهب الحنفي بالكوفة في حياته وتدارسه العلماء بعـــد وفات شيخه ببغداد ،ثم شاع من بعد ذلك وانتشر في أكـــثر البـــلاد الإسلامية في مصر والشام وبلاد الروم وسائر العراق وما وراء النـــهر والافغان والهند والصين واليابان وتركستان والمغرب والأندلس واروبـــا كلها من شمالها إلى جنوبها وهولندا ورومانيا وبلغاريا والنمسا وتركيـــا واليونان ويوغسلافيا والبانيا حتى بلغ عدد المسلمين الذي يتعبـدون الله تعالى على مذهبه شطر المسلمين ،

وقد ابتدأ مذهب أبي حنيفة ينال المترلة الرسمية التي سمحت لـــه بالانتشار والاتساع من وقت أن ولى الإمام أبو يوسف منصب القضاء للرشيد ثم صار له السلطان الأكبر على القضاء في كل نواحي الدولـــة

بعد سبعين ومائة اذ اصبح قاضي القضاة فلم يكن قاض الا بـــامره أو من يشير إليه ويرتضيه ولا بولي الا أصحابه فانتشرت بهذا عند العامـــة آراء فقهاء العراق في كل بقاع الإسلامية ما عدا الاندلس التي انتشـــر بها المذهب المالكي ،

ولذلك قال ابن حزم مذهبان انتشر في بدء امرهما بالرياســـة والسلطان الحنفي بالشرق والمالكي بالأندلس فأصبح مذهب الخلافـــة العباسية من أيام هارون الرشيد وكان مذهب آل الليث والســـلاجقة والدولة الغزنوية ثم الدولة العثمانية التي عاشت في قلب اروبا الكـــافرة ست مائة سنة ترفع راية الإسلام في عزة ، حتى والحكومات المصريـــة والسورية والاردنية والعراقية واللبنانية وغيرها في شئون الإفتـــاء وفي المحاكم الشريعة ، وهي الجذوة التي ستشتغل وتتسع حتى تعم ســـائر جهات الحكم والقضاء بإذن الله تعالى قال الشيخ عبد الوهاب الحـــافظ رحمه الله ان الإفتاء استمر بالشام سبع مائة سنة للمذهب الحنفي ،

وقال الشيخ عبد الرشيد النعماني في تعليقه على التعليم " و لم تزل الخلفاء الراشدون المهديون من آل عباس بن عبد المطلب ذاهبـــين هذا المذهب معتقدين لأصوله عاملين لفروعه ناصرين لأصحابه أولهـــم المنصور والمهدي والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل

والمعتقد والمقتدر والمطيع والقادر والقائم والمكتفي وكانوا جميعاً من المبرزين في علم الأصول والفروع من أهل النظر والفتيان على مذهب أبي حنيفة وكذلك سلاطين آل طاهر وآل ساسان وآل الليث وآل صفار وآل سبكتكين وآل سلجوق الذين كانوا ملوك الإسلام وسلاطين الأرض كانوا على مذهب أبي حنيفة منتمين إليه متعصبين له إلى يومنا هذا .

وقال العلامة ابن عابدين فالدولة العباسية وان كان مذهبهم مذهب جدهم فاكثر قضاهًا ومشايخ اسلامها حنفية يظهر ذلك لمن تصفح كتب التواريخ وكانت مدة ملكهم خمس مائة سنة تقريباً ،

واما الملوك السلجوقيون وبعده الخوارزميون فكلهم حنفيون وقضاة ممالكها غالبها حنفية واما ملوك زماننا سلاطين آل عثمان فمن تاريخ تسع مائة إلى يومنا هذا لا يولون القضاء وسائر مناصبهم الأحنفية " وفي أفريقية أي طربلس وتولس والجزائر لم يكن مذهب أبي حنيفة في اول أمره غالباً أو شائعاً حتى تولي قضاءها أسد بن الفرات بن سنان فظهر ظهوراً كثيراً قال ابن فرحون ان المذهب الحنفي ظهر ظهوراً كثيراً بافريقية إلى سنة ٤٠٠ وانقطع بعدها ودخل منه شئ إلى ما وراءها من المغرب قديماً إلى الأندلس "

واما مصر فقد عرفت مذهب العراقي في عهد المهدي عندما تولى قضاءها إسماعيل بن اليسع الكوفي وكان المذهب الحنفي ممكن السلطان في مصر ما قوى سلطان العباسيين ولكن كان الشعب أكثرهم .

أما على مذهب الشافعي أو على مذهب مالك ولذلك كـلن في مصر القاضي الحنفي قضاة من الشافعية والمالكية استمر الأمر كذلك إلى ان استولى الفاطميون على مصر فجعلوا مذهب الشيعة الاسماعيلية هو المذهب الرسمي ،

ولما قامت الدولة الايوبية اتجهت إلى اعادة نفوذ المذهب الشافعي والمذهب المالكي إلى ما كان من قبل فانشأوا المدارس لهذين المذهبين وذلك لأن صلاح الدين كان شافعياً والشعب كان للمذهب المالكي فيه سلطان ،

ولكن لما آل الأمر في الشام إلى نور الدين الشهيد وكان حنفياً نشر مذهبه بالشام ومن الشام قدم إلى مصر ولكنه في هذه المرة نزل في الشعب لا في الحكومة فقط كما قدم اولاً في عهد سلطان العباسيين ولما استولى العثمانيون على مصر كان القضاء كله على مذهبابي حنيفة

فرغب كثيرون من طلبة العلم في معرفته واستفاد منه ذلك نفوذاً كثيراً .

وأما الشام ففيها وما حولها فالمذهب الحنفي أمكن واما بلاد المشرق والعراق وما وراءه أي خراسان سجستان وما وراء النهر فكان اكثرهم حنفيين وكان المذهب الحنفي غالباً على أهل أرمينية وآذربيجان وتبريز وأهل الري والاهواز ثم كان في أول الأمر باقليم فارس كثير من الحنفية ثم غلب عليها المذهب الشيعي الاثناعشري.

وأما الهند ففيها المذهب الحنفي يكادِ ينفرد بالسلطان والمذهب الذي يجاوره فيها الشافعي ولا يتجاوز عددهم مليوناً أو نحواً من هذا والباقون من الحنفية ومسلمو الصين ويتجاوز عددهم الاربعون مليوناً كذلك أكثرهم من الحنفية وهكذا ترى ذلك المذهب شرق وغرب كثر الآخذون به والسالكون لطريقه وهذا كله من بركة اخلاص الإمام أبي حنيفة وبركة علمه .

قال يحيى بنِ آدم كان كلام أبي حنيفة في الفقه لله ولو كان يسوبه شئ من الدنيا لم ينفذ إلى الافاق كل هذا النفاذ مع كثرة حساده و منتقصيه (رواه الموفق المكي) والله اعلم .

تمت